تاريخ

عمرو بن العاص

﴿ تأليف ﴾

حسن إبراهيم حسن
دكتور في الآداب

« وهي الرسالة التي تقدم بها الى الجامعة المصرية ونوقش فيها »
« وفى غيرها من المسائل فى ٦ مايو سنة ١٩٢١ م ، ونال بها »
« منها شهادة العالمية ولقب دكتور فى الآداب »

﴿ الطبعة الأولى ﴾

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على
أمام سوق الخضار بمصر
ومكتبة المؤيد بشارع محمد على بمصر

الثمن عشرون قرشاً

١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



المقدمة

إلى أبناء وطني العزيز ، وإلى الناطقين بالضاد ، وإلى الشرقيين عامة ، أتقدم بهذه الرسالة ، وهي صفحة من صحائف البطولة ، وتاريخ بطل من أبطال الشرق ، وقائد من قواد الاسلام ، لا يقل أهمية عن « نابليون » و « بسمارك » وغيرهما من قواد الغرب وساستهم ، أتقدم إليهم بتاريخ رجل لو كان منبته الغرب ، لما رأيت بين الغربيين إلا مترنماً بسالته معجباً بشجاعته ، متفاخراً بدهائه وحكيم سياسته.

ما أحوج الشرق والشرقيين إلى تخليد ذكرى أبطالهم وتدوين آثار عظمائهم ليتوارثها الخلف عن السلف ، ولتظل كمرآة يقرءون فيها المثابرة وحب العمل ، وكنبراس يصرع ساطع نوره مايعلق بجفونهم من الكرى وينير شديد ضيائه لهم الطريق - ألا ترى القوم في أوربا وأمريكا يتبادلون في أعيادهم وأفراحهم سير أبطالهم وتواريخ عظمائهم موشاة بالذهب ومكسوة بالحرير ؟

هذا ما خالج نفسي عند ما جلست للتفكير في وضع رسالة أتقدم بها إلى الجامعة المصرية لنيل شهادة « الدكتوراه في الآداب » ، عقب نجاحي في

امتحان « الليسانس فى الآداب » ، فرأيتُ فى عمرو بن العاص ما يصرف المؤرخ إلى تدوين ذكره وآثاره ، رأيت فيه بطلا من أبطال الحرب ، وصورة من صور حركة الانتقال من الوثنية إلى الأسلام ، وهادياً من هداة الدين والعاملين على نشره في كثير من البلدان ، ورجلاً فذاً من الرجال القليلين الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادراً ، وهبه الله عقلاً راجحاً ، وأنار بصيرته بنور الأسلام ، قام بأعماله الجليلة بهمة لا تعرف الملل سبيلاً تلك الهمة التى ثلت عروش القياصرة وقضت على آمال القواد العظام ، وحار أمامها ذكاء مشهورى الرجال وأقطاب السياسة. ورأيتُ له فوق ذلك صلة كبيرة بمصر والمصريين، فهو أول أمير مسلم ولى مصر بعد أن قضى على دولة الروم فيها ، وأتى على الفتن والقلاقل بها ، ورفع عن كاهل المصريين نير الروم وظلمهم ، فكان عهده أول عهد الحضارة الأسلامية التى رفرفت على ربوع البلاد قاصيها ودانيها ، فتوطدت دعائم الأمن وساد السلام، وتألفت بحسن سياسته قلوب مختلف السكان .

ولكن لم يكن كل ذلك لينسينى عظيم المهمة وكبير المسئولية التى أثقل بها كاهلى ، فالمؤرخ مسئول أمام محكمة التاريخ فى كل العصور حاضرها ومستقبلها ، ثم إن وضع تاريخ رجل كعمرو يتطلب درس العصر الذى عاش فيه : وهو عصر مترامي الأطراف بعيد المدي طويل الأمد ، ويستدعى الألمام بحال الأمة العربية من قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته ، ثم من عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل الدولة الأموية ، ليتبين ما قام به عمرو من جليل الأعمال ، من اشتراكه في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ،

وتوليته الصدقة بعمان ، واشتراكه في حروب الردة ، وفتحه الشام وفلسطين ومصر وطرابلس فى عهد أبى بكر وعمر ، وسياسته مع عثمان وعلىّ ومعاوية ، ولكنى أقدمت يدفعنى حب البحث والاستطلاع ، ثم ميلى لأماطة اللثام عن مسائل نسبها إلى عمرو كثير من المؤرخين ، ولكنهم لم يدلوا لنا بحكمهم الصريح فيها ، أو رأيهم المقنع لتطمئن له النفس ويستريح له الفؤاد ، فكم تضاربت الأقوال في نسبة حريق مكتبة الأسكندرية إلى عمرو ، وكم اختلف المؤرخون فى تدخّله فى الخلاف الذى كان بين علىّ ومعاوية ، وفى صلته بالمقوقس .

وما زلت انتقل فى بطون التاريخ غائصاً في بحار أخبار عمرو ، تارة في كتب العرب وطوراً فى كتب الفرنجة والمستشرقين ، علّنى أهتدى بعد طويل البحث والتنقيب إلى شوارد من أخباره وشتات من آثاره ، ولا أزال أعمل فيها الفكر والعقل كي أجمعها في عقد مكين ، وكنت في كل ذلك أتذرع بالصبر والتؤدة وأستعين بمواصلة الاستقراء . فعسى أن أكون قد وفيت عمراً حقه مما كاد أن تعفيه يد الدهر ويطمس معالمه كر السنين ، وعسى أن أكون قد وفيت التاريخ بعض حقه بأثبات ذكر بطل من أبطاله .

ولا يفوتني أن أسدي جزيل شكرى إلى كل من حضرات أساتذتى الأجلاء : حضرة صاحب العزة إسماعيل رأفت بك، والدكتور طه حسين ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ محمد الخضرى بك ، لما قاموا لى به من المساعدات الجليلة ـ وكذا إلى كل من حضرتي الأستاذين يوسف أفندى

أحمد ، المفتش بلجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف ، والشيخ محمد مختار يونس، المدرس بمدرسة البنات الثانوية بالقاهرة.

وقبل أن أختم كلمتى يجدر بى أن أذكر شيئاً يسيراً عما تؤديه الجامعة المصرية من الخدمات الجليلة للعلم والمتعلمين ، وهو أمر يجهله الكثيرون من الناس ، حتى أن بعضهم ليزعم أن الحصول على شهادة « الدكتوراه » أمر يسير لا يتطلب سوى الانتساب إلى كلية الآداب وكفى ـ وهذا غير صحيح ـ لأنه لو كان لهذا الزعم أثر من الصحة، لأصبح من السهل جداً الحصول على هذه الشهادة ، ولما رأينا عدد الحائزين لها من القلة والندرة بهذا القدر ، ذلك لأن مجرد الانتساب لا ينيل شهادة الدكتوراه ، هذا إذا كان الالتحاق بالجامعة أمراً سهلاً ، مع أنه لا بد أن يكون الطالب حائزاً لشهادة الدراسة الثانوية قسم ثان أو ما يعادلها ـ فأن الطالب يتلقى آداب اللغة العربية وتاريخها ، وتاريخ آداب اللغة الانجليزية أو الفرنسية ، وتاريخ الأمم الأسلامية ، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا وعلم وصف الشعوب ، والفلسفة العربية وعلم الأخلاق ، والفلسفة العامة وتاريخها ، ومقارنة الآداب واللغات السامية ـ ولا يجوز له أن يتقدم للامتحانات التحريرية والشفوية لأجازة « الليسانس » إلا في نهاية السنة الثالثة بعد نجاحه في كل هذه المواد بنسبة « ستين في المائة » على الأقل فى السنتين الاولى والثانية .

بعدئذ يستطيع أن يختار لنفسه مبحثاً يكون موضوع رسالة يكتبها ويتقدم بها لامتحان « الدكتوراه » لو رأت الجامعة صلاحيتها لذلك مبدئياً ،

وحينئذ تناقشه حسابها لجنة من أساتذة الجامعة، ينتظم في عقدها مندوبان من قبل وزارة المعارف العمومية ـ ويكون قد سبق لهؤلاء المتحنين فحصها ـ على مرأى من الجمهور ومسمع ، وتناقشه أيضاً في موضوعين من بين ثلاثة موضوعات فى ثلاث من المواد التى تدرس بقسم الآداب .

وينبغي أن يفهم أيضاً أن الأمر غير قاصر على سماع محاضرة الأستاذ فحسب ، بل هو عكس ذلك ، فما الأستاذ بمحاضرته إلا كمرشد للطالب يدله على طرق البحث والتنقيب ، وذلك ما ترمى إليه الجامعة (ككل الجامعات) من تثقيف عقل الطالب وتنمية مداركه ، ليستطيع كشف ما غمض من أسرار المسائل وما خفى من المعضلات . على أن ما يتلقاه الطالب بقسم الآداب بالجامعة لا يقل عما يتلقاه أى طالب آخر من الآداب في جامعات أوربا وأمريكا . هذه حقيقة يجب الاعتراف بها ، ويجب أن لا يبخس حقها .

ولكن هل فى الجامعة المصرية أقسام نظامية غير قسم الآداب ؟ وهل تدرس بها تلك العلوم الهامة الضرورية لترقية شأن مصر من فلك وطب وهندسة وسياسة وتربية واقتصاد وتشريع وكيمياء ؟ وهل لها من بين متخرجيها بعوث في مختلف الممالك المتمدينة لدراسة طرق التمدين والحضارة ، وللتخصص فى العلوم الراقية لتستعين بأفرادها على نشرها فى مصر ؟ كل هذه أسئلة يحسن الأجابة عليها أغنياؤنا الكرام ، أصحاب الغنى الطائل والثراء ، وذوو العقل والمفكرون فى البلاد !! تلك أسئلة تعقد اللسان خجلا وتذيب القلب أسى ، وتفتت الكبد حزناً وغماً . نعم سيجيبون عليها

بالصمت الطويل ، ولكن هاكم الجواب :

تقول جريدة « الديلى ميل » الأنجليزية في تقويمها عن سنة ١٩١٥م ما نصه : « إن الأهمية العظمى التى يظهر أثرها في التعليم بالولايات المتحدة إنما ترجع إلى ما يصرف عليه سنوياً من الأموال التى بلغت فى سنة ١٩١٥ « مائة مليون من الجنيهات » منها « نيف واثنان وعشرون مليوناً » تبرع بها المحسنون ومحبو العلم على جامعات كولومبيا وهارفارد وكورنل وشيكاغو وييل وستاتفورد »

وتقول دائرة معارف « هارمزورث » في الكلام على تاريخ حياة « توماس جى » : « كان عاملاً عند بائع كتب في لندن ، فتعلم منه أسرار المهنة ، واستطاع بعد زمن أن يجمع لنفسه ثروة ، فانشأ قبل موته مستشفى فى لندن لا يزال يسمى باسمه حتى اليوم ، صرف عليه ثمانية عشر ألف جنيه وسبعمائة وثلاثة وتسعين ، ثم وهبه مائتى ألف جنيه ؛ وهذا المستشفى فضلا عن أن به ستمائة وسبعة وأربعين سريراً لأيواء المرضى ، فأنك ترى فيه مئات من الطلبة يتلقون علم الطب والكيمياء على أشهر أساتذة العصر »

ومن قولها أيضاً في ترجمة حياة « أندرو كارنيچي » « لهذا المحسن الكبير هبات طائلة كثيرة منها : (وقف الأبطال) منه مليون من الجنيهات خصصت أرباحه لمكافأة من استطاعوا تخليص الأنسانية بعمل سامي ، كاختراع أو اكتشاف أو غيره في الولايات المتحدة وكندا ، ثم (وقف السلم) ومنه مليونا جنيه خصصت أرباحها لنشر التعليم والمسابقات وترقية فن الهندسة والقانون والتاريخ ، ثم (اعتماد كارنيچي) وقدره مليونا جنيه

لأتمام تعليم الطلبـة الأسـكتلنديين الذين عاقهم الفقر في أربع جامعات خصصت لذلك ، وله هبات عديدة أخرى لا تدخل تحت حصر »

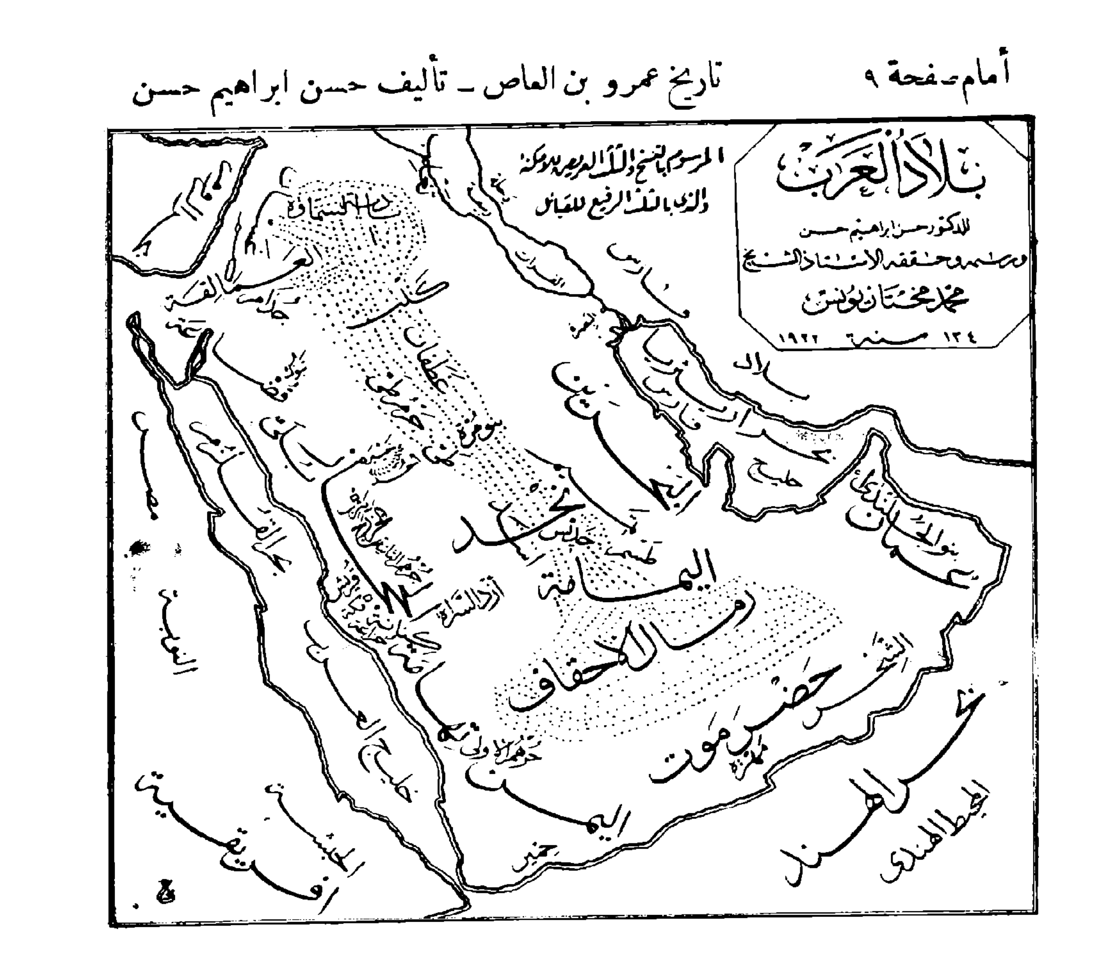
ولقد تضيق صفحات الكتاب بأجمعه دون استيعاب أسماء المحسنين فى الولايات المتحدة وانكلترا وغيرهما من البلاد المتمدينة الذين نصروا العلم وعملوا على ترقيته .

وهل لا يكون من المخجل أن يوجد في مصر جامعة واحدة لا يدرس بها شيء يذكر بجانب ما يدرس في غيرها من الجامعات في البلدان الأخرى ، تلك الجامعات التي لا يكاد يأتي عليها حصر ، والتى تغدق عليها هبات المحسنين؟ أليس عاراً أن ينكر أغنياؤنا ما فى أموالهم للعلم والتعليم من حق معلوم ؟ أليس أمراً مخزياً أن لا يحركهم ذلك المثل الحي الذى ضربته لهم تلك المحسنة الكريمة المرحومة المبرورة الأميرة فاطمة إسماعيل بتبرعها للجامعة بنصيب من حليها وأملاكها، فتراهم بعد كل ذلك يتكالبون على مالهم ويعضون عليه بالنواجذ ، وينكرون العلم ويتجاهلون أمر التعليم ؟

ليس بضائركم أيها الأغنياء أن تتبرعوا بالقليل من مالكم ،وهو والحمد لله كثير ، للجامعة فتعلوا قدرها وتعززوا شأنها ، فلا يتقاعد ذوو السلطة والمناصب السامية في الحكومة من أعضائها عن إصلاح شأنها ،ويضطر القائمون فى الحكومة بأمر التعليم بالاعتراف بمركزها الأدبي ومقامها العلمي اعترافاً جدياً ، فلا تثبط همم المتخرجين فيها ، ولا يقعد غيرهم عن السعي إليها ، وتقوى نفوس الشبيبة المتطلعة إلى العلم .

القاهرة في ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢

حسن ابراهيم حسن


بلاد العرب
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الأستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
نجد
اليمامة
رمال الأحقاف
حضرموت
اليمن
عمان
بحر الهند
المحيط الهندى
افريقية
الحبشة

الكتاب الاول

عمرو بن العاص من ولادته الى ان ولى فتح مصر

الباب الاول

﴿ عمرو قبل أن يُسلم ﴾

(١) قبيلة عمرو

بنو سهم :

لما كان من قصدنا أن ندرس حياة عمرو بن العاص السهمي القرشي الذى نضع له رسالتنا لتقصى أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته واخلاقه لزم ان نذكر كلمة يسيرة عن عشيرته بنى سهم . لان للبيئة التي يولد فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً فى نشأته واعماله . وبالاحاطة بها يسهل استنباط الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات .

ولكن التاريخ لم يحفظ لنا لسوء الحظ شيئاً ذا غناء وانما هي أخبار مبعثرة ليست بذات الخطر ولا بالتي تمثل لنا حياة هذه القبيلة تمثيلا صحيحاً واضحاً . فكل ما نعرفه هو ان بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ابن لؤى بطن من بطون قريش اشتهروا فى الجاهلية وفى الاسلام بمناقب رفيعة وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان فى مكة وكان لهم فى

ادارة شئون قريش نصيب كبير صاروا به ذوى بأس وكرم وعز وجاه وسلطان .

وقد ذكروا ان بنى سهم كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل الاسلام ولسنا ندرى حقيقة هذه الحكومة ولكننا نعلم ان قد كانت العادة عند العرب وعند غيرهم من الامم فى عصورها الاولى ان تتقسم الاسر الكبيرة بينها الاعمال الاجتماعية . فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب الى بنى سهم أو بعبارة أصح الى زعماء بنى سهم فيما كان يقع بينهم من الخصومات هذا شئ يظهر ان ليس فيه من شك فاذا عرفنا ان الذين قد اختصوا بالحكومة عند العرب فى الجاهلية انما كانوا اصحاب رأى وحلم ودهاء (وكلنا يعلم ما يروى عن اكثم بن صيفى وذى الاصبع العدوانى وغيرهما من حكماء العرب) واذا كانت الحكومة قد بقيت محصورة فيهم زمناً طويلا حتى كان الاسلام فليس من شك فى انهم قد احتفظوا بما كانت تستلزمه هذه الحكومة من عادة وخلق . ولا شك في انهم قد استبقوا بقدر ما استطاعوا دهاءهم وحلمهم وحزمهم بل لا شك في ان هذا قد أصبح كأنه خلق يتوارثونه ويتناقلونه . وليس من البعيد أن يكون لذلك شئ من الاثر فيما سيمتاز به عمرو من الحذق السياسى والدهاء العظيم .

وكانت لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الاموال الخاصة بالهتهم وهى أشبه شئ بالاوقاف العامة . ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الاموال

المحجَّرة (كما كانوا يسمونها) يتصرف فيها على حسب ما تقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل باموال أوثانهم. ولا شك في أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الاموال وهذا شئ قد ظهرت آثاره في حياة عمرو كما سترى فقد كان حسن العناية بجمع المال واستثماره لم يقصر في ذلك وربما أسرف. وآية ذلك قوله لمعاوية حين سأله عما بقي مما يستلذه: مال اغرسه فاصيب من غلته وثمرته.

اشتهر بنوسهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار وغيرها من الصفات. فكان منهم قيس بن عدى الذى كان يضرب به المثل فى العز فيقال كأنه في العز قيس بن عدى. ومنهم من اشتهر بالكرم وقرى الضيف: وهو الحارث بن سعيد بن سهم. واشتهر نفر منهم بالشعر من أمثال عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قيس بن عدى أحد شعراء قريش المعدودين وكان من أشد الشعراء على المسلمين قبل فتح مكة.

ولا يفوتنا ما كان للعاص بن وائل ابى عمرو من السيادة والجاه والشرف في الجاهلية (كما سيأتى) فقد كان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة. وكان تاجراً من ذوي اليسار في مكة تجوب تجارته الشام واليمن وغيرهما من البلاد. وما كان لابنيه هشام الذى كان من المهاجرين الاولين واستشهد باليرموك. وعمرو وما كان لابنيه عبد الله ومحمد من الشهرة فى الادب واصابة الرأى. وقد اشتهر بنوسهم باقامة دعائم العدل في الجاهلية، وكانوا كذلك في الاسلام. وكان أول من ولى القضاء بمصر منهم قيس بن ابى العاص بن عدى واشتهر بالشرف والثراء

وقري الضيف . وكان اول من بنى بمصر داراً للضيافة .وولى القضاء بمصر ابنه عثمان بن قيس فى آخر سنة من خلافة عمر رضى الله عنه . واستمر على ذلك الى سنة ٤٢ هـ في خلافة معاوية . ومنهم قيس وعبد الله ابنا حذافة ابن قيس بن عدى وكانا من السابقين الى الاسلام وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجرا الى الحبشة . وحمل عبد الله كتاب النبي الى كسرى يدعوه الى الاسلام .

تعلم مما تقدم أن بنى سهم اشتهروا في الجاهلية والاسلام بالشرف والعز وفصل الخصومات والكرم وقري الضيف واليسار والادب والشعر والجاه وغيرها من الصفات التى انبتت في نفوس ابنائهم الاخلاق الفاضلة والعادات السامية وكان لها اعظم الاثر فى تكوين أفراد ابنائهم النابهين .

وكان عمرو بن العاص أثراً من آثار قومه ورث عن آبائه كثيراً من المواهب النادرة التي أهلته لان يقوم بما عهد اليه من الاعمال خير قيام بما اشتهر عنه من بعد النظر والدهاء والشجاعة وعلو الهمة والفصاحة وغيرها .

لا نكران ان للبيئة التى يولد فيها الطفل ويترعرع تأثيراً كبيراً فى تكوينه (١)

---

(١) راجع خزانة الادب جزء ٣ ص ١٠١ ـ ٣٠٢ . الكامل للمبرد طبع باريس . والامم والملوك لابن جرير الطبرى الاغانى للاصفهانى طبع بولاق وأسد الغابة فى معرفة الصحابة . والاصابة فى تمييز الصحابة . وسبائك الذهب للسويدى

(ب) اسرة عمرو

(ا) العاصى ابو عمرو : هو العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب السهمي القرشى . كان من سادات العرب وأعيانهم واشرافهم فى الجاهلية. وكان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة ادرك الاسلام ولم يسلم وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم اشتهر بطعنه عليه وايذائه لاصحابه وانكاره للدعوة الاسلامية . وهو القائل لما مات القاسم ثم عبدالله ابنا النبي عليه السلام(١): ان محمدا ابتر . فانزل الله فيه (ان شانئك هو الابتر) أى المقطوع عن الخير ومات بعد هجرة النبي بشهر وعمره خمسة وثمانون سنة كما رواه ابن الاثير فى تاريخه (٢)

وقد كان العاص بن وائل تاجراً في الجاهلية ومن ذوى اليسار فى مكة والظاهر انه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة الى الشام وببضائع الشام الى اليمن . كالجلد من اليمن والطيب من الحبشة والزبيب والتين ونحوه من الشام .

واتفق ذات مرة ان ابتاع العاص سلعة من رجل من زبيد من اليمن فمطله العاص حتى عيل صبره وأعيته الحيل فعلا جبل (ابى قبيس) وقريش حول الكعبة وجعل يتظلم بشعر رقيق وهو يقول :

---

(١) ذكر ابن الاثير ان العاص قال ذلك لما مات ابراهيم . وهو يخالف ما ذكره ابن اسحق من انه قالها لما مات القاسم ثم عبد الله وهذا أصح .

(٢) الكامل لابن الاثير جزء ٢ ص٢٩

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الحى والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولاحرام كيومى لابس الغدر

فاجتمعت قريش واجمعوا أمرهم على الاجتماع بدار عبدالله بن جدعان حيث تحالفوا على ان ينصروا المظلوم من الظالم. فسمى هذا (حلف الفضول) وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذكر ياقوت في معجمه ان سعيد بن المسيب (١) مر في بعض ازقة مكة فسمع مغنياً يغنى من دار العاص بن وائل قصيدة منها:

تضوع مسكا بطن نعمان ان مشت به زينب في نسوة عطرات

فضرب برجله الارض وقال: هذا والله مما يلذ استماعه

ومنها:

وليست كاخرى أوسعت جيب درعها * وعضت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفا مرجلا * على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فافتنت * برؤيتها من راح من عرفات

ومن هنا نستدل على ان بنى العاص بن وائل كانوا مولعين بالطرب محبين للادب ميالين لسماع رقيق الشعر ومستملحه. وقد ذكرنا فيما سبق نفراً من بنى سهم قالوا الشعر وأجادوا فيه ومن بينهم عمرو بن العاص (كما سيأتى) ولا يبعد ان يكون سعيد بن المسيب قد سمع هذه القصيدة من احدى الجوارى في بيت العاص او من بعض ابنائه:

(١) ولد سعيد بن المسيب بعد خلافة عمر بسنتين. فان كان سمع شيئاً من دار العاص فيكون بعد وفاته باكثر من نصف قرن

وكان للعاص من الاولاد عمرو وهشام . وكان هشام اصغر من أخيه عمرو . وامه ام حرملة بنت هشام بن المغيره وهي خالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(ب) سلمى ام عمرو : سأل رجل عمرو بن العاص عن امه فقال: سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عذره (١) اصابتها رماح العرب فاشتراها الفاكه بن المغيره ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدعان ثم أصبحت الى العاص ابن وائل فانجبت فان كان جعل لك شئ فخذه .

وقد ذكر المبرد (ص ٤٧٧) فى كتابه : سئل عمرو بن العاص عن امه ولم تكن فى موضع مرضى فاتاه الرجل وهو بمصر امير عليها فقال : اردت ان اعرف ام الامير . فقال نعم كانت من عنزة (٢) تسمى ليلى وتلقب النابغة . اذهب وخذ ما جعل لك . وقيل له مرة أأنت افضل ام هشام ؟ فقال عمرو : ان لهشام علي اربعة : امه ابنة هشام بن المغيره وامى عنزيه . وكان احب الى ابي منى وبصر الوالد بولده من قد عرفتم واسلم قبلى واستشهد وبقيت . (كتاب المعارف لابن قتيبه ص ٩٦)

وقال صاحب السيرة الحلبية (ج ١ ص ٥٤) : يقال انه وطئها (ام عمرو)

---

(١) بنو عذرة بطن من قضاعة من القحطانية : وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة وقد سكنت عدة عشائر من قضاعة فى الاخطاط التي بين المدينة وينبع الى الشمال فى متسع من أرض الحجاز . وبلاد عذرة وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام

(٢) بنو عنزة بطن من أسد بن ربيعة وديارهم عين التمر من برية العراق علي ثلاث مراحل من الانبار ثم انتقلوا عنها الي جهات خيبر فأقاموا هنالك

اربعة وهم : العاص وابو لهب وامية بن خلف وابو سفيان بن حرب وادعى كلهم عمراً فالحقته بالعاص . وقيل لها لم اخترت العاص ؟ فقالت: لانه كان ينفق على بناتي . وكان عمرو يعير بذلك عيرة على وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة

واذا صح ذلك فلا حق لهم في ذلك ولا يؤاخذ عمرو وما كان من ابيه واندفاعه في تيار شباب الجاهليه . ولا يلحقه العار من سبي امه وطالما يحدث مثل هذه الامور في الحروب ويقع علية القوم في مخالب المحاربين حيث لا مناص من الوقوع . وكما ان ابا بكره لم يلحقه العار بامه سمية ام زياد فكذلك عمرو والاسلام يجُبُّ ما قبله

(ح) **ولادة عمرو** : لم تتفق كلمة المؤرخين في تحقيق ثبوت السنة التي ولد فيها عمرو وفي سنه حين توفي . ولم يمكنهم بالطبع تحقيق الامر الثاني لانه مبني على الامر الاول : اي سنة ولادته

وقد روى ابن حجر في كتابه (الاصابة في تمييز الصحابة (ج ٥ ص ٣) ان عمر عمرو بن العاص حين ولد عمر بن الخطاب كان سبع سنين وانه مات بعد عمر بعشرين سنه

وذكر ابن خلكان والواقدي واخرج ابن حجر عن يحيي بن بكير ان عمرو بن العاص عاش تسعين سنه . وقال العجلي انه عمر تسعا وتسعين سنه (الاصابه ج ٥ ص ٣) . وقال ابن قتيبه في كتاب (المعارف ص ٩٧) انه مات

---

(٣) ذكر بطلر في كتابه (ص ٥٦٤) خطأ خطأ أن ابن قتيبة ذكر ان عمرا مات وهو ابن احدى وخمسين سنة مع انه لم يذكر هذا العدد الا عند كلامه سنة وفاته فقال . وقد اختلف في موته فقيل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٥١

وهو ابن ثلاث وسبعين سنة. ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٣ أو ٥١ للهجرة (١) وان ابنه عبد الله مات سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنه . وانه كان أصغر من أبيه عمرو باثنتي عشرة سنة . اه

واذا صح ذلك فتكون ولادة عبد الله سنة ٧ ق. ﻫ (٦١٥م) وولادة عمرو سنة ١٩ ق . ﻫ (٦٠٢ م) . وتكون سن عمرو حين توفى (على ما ذكره ابن قتيبة) اثنتين وستين سنة .

وقال ابن قتيبة أيضاً : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مات وهو ابن خمس وخمسين سنة . وأخرج عن الواقدى ان سن عمر بن الخطاب كانت حين حضرته الوفاة ثلاثاً وستين سنة . وعلى هذا تكون ولادة عمر سنة ٤٠ ق . ﻫ (٥٨٢ م) وولادة عمرو سنة ٤٧ ق ﻫ (٥٧٥ م) : أى قبله بسبع سنين . فتكون سن عمرو حين توفى تسعين سنة

ولا يمكن مع ما قدمناه الاهتداء الى رأى قاطع لسببين :

(١) لان سن عمر بن الخطاب حين توفى مشكوك فيها . فمن قائل انه مات وله ٦٣ سنة ومن قائل ٥٥ سنة

(٢) وكذلك في عبد الله بن عمرو فقد ذكر ابن قتيبة انه توفي سنة ٦٤ . وذكر فى أسد الغابة (ﺣ ٣ ص ٢٣٣) سنة ٦٣ وقيل سنة ٦٥ بمصر وقيل سنة ٦٧ بمكة وسنة ٥٥ بالطائف وسنة ٦٨ وسنة ٦٣ مما يدل دلالة واضحة على التخبط البين فى روايات المؤرخين . بحيث لا نستطيع الجزم بان عمرو بن العاص توفي وله تسعون سنة أو تسع وتسعون أو أكثر أو أقل ولم يقتصر المؤرخون على هذا بل ذهبوا الى أبعد منه فذكر ابو

(١) أنظر ما كتب أمام رقم (٣) بهامش ص ١٦ من الرسالة

المحاسن ان عمرو بن العاص مات وله تسع وتسعون سنة وقيل مائة سنة وذكر النووى انه مات وسنه سبعون سنة

وقد رجح بطلر قول النووى على غيره من الاقوال :

(١) لانه لو مات وهو ابن تسعين سنة لكانت سنه حين فتح مصر ستا وستين سنة . اعنى انه قد طعن في السن بحيث ما كان يمكنه ان يقود الجيوش الى ساحات النصر . ويتحمل مشاق الحرب وهو في مثل هذه السن

(٢) ولانه لا يتصور أن يقوم بتمثيل أدوار الحرب والسياسة فى موقعة صفين وعند عقد التحكيم وقد ناهز الخمس وثمانين او الاثنتين وتسعين

وقد عزا هذا الترجيح الى احتمال خطأ المؤرخين المتأخرين فى نقل لفظ (سبعين) الى (تسعين) لما بين اللفظين من المشابهة (بطلر ص٥٤٨)

ولا ندرى لم يستبعد (بطلر) ان عمرو بن العاص فتح مصر وهو في السادسة والستين لان هذه السن تعوقه عن القيام بهذا الامر . وقد شاهدنا أسماء كثيرين من القواد العظام فى الحرب الاوربية العامة من أمثال (هندنبرج) و (مولتك) و (ترپتز)و(فوش)و (جوفر)و(فرنش) وغيرهم قد خاضوا معامع هذه الحرب الطاحنة وقادوا الجيوش الجرارة وقد ناهزت سنهم الستين ؟ وهذا هو (كليمانصو) رجل فرنسا قد تولى قيادة الامة الفرنسية كلها اثناء الحرب حتى ارسى سفينتها على ساحل السلامة . وهو شيخ تربو سنه على السبعين كثيراً وقد رايناه في السنة الماضية وقد عم بياض الشيب رأسه وشاربيه وهو الآن يسيح في بلاد

الشرق الاقصى ويخطب في النشء في المستعمرات الفرنسية وقد حفظ لنا التاريخ عن كثير من العرب انهم كانوا يحاربون وهم في اعظم من هذا السن . فان عمرو بن معد يكرب الزبيدى كان ممن ابلى البلاء الحسن في القادسية . وكان يحمل على الاعداء ويطعنهم بسيفه وقد ناهزت سنه المائة . ومع ذلك فقد بز الشباب حمية وبسالة واقداماً وقوة

وقول (بطلر) الذي يستبعد ان يفتح عمرو بن العاص مصر وهو في سن السادسة والستين مردود عليه . لانه اذا سلمنا بهذا القول جدلا فان عمراً قد فتح مصر الفتح الثانى وهو في سن السادسة والستين أيضاً !! أى قبل بلوغه السبعين باربع سنين .

ولهذا لا نستبعد موت عمرو بن العاص وله تسعون سنة تقريباً وهى السن التى نختارها وربما زادت أو قلت بسنة أو اثنتين .

أما قول ابن قتيبة ان عبد الله بن عمرو أصغر من أبيه باثنتى عشرة سنة مما يزيدنا ارتياباً في صحة هذه الرواية اذ لا يعقل مطلقاً ان تحمل أم أم عبد الله ولابيه احدى عشرة سنة تقريباً

(د) تربية عمرو

كان بيت العاص كما أسلفنا من البيوتات العالية الرفيعة العماد وكان عمرو ولا شك قد شب فى حجر أبيه ونشأ مع ابناء الاشراف فى مكة الذين يترفع أباؤهم عن الدنايا فيصبغون أبناءهم بآدابهم ويعلمونهم عالى الهمم وجميل الخصال لانهم فخرهم الدائم ومجدهم الخالد . وكانت بلدهم مكة

مركز حركة الحجاز التجارية والادبية فكان يفد اليها العرب من كل صوْب وحدَب أيام الحج والمواسم فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الاشعار الحماسية ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف محتدهم. فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والادبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة والعادات السامية وتدفع بهم الى جليل الاعمال واسمى الغايات.

وليس هناك سبيل الى البحث عن تربية عمرو العلمية فان هذا النوع من التربية لم يكن موجوداً اذ ذاك لان العرب فى هذا الوقت لم يكن لهم بالعلوم عهد. ومع ذلك فقد كان عمرو كاتباً قارئاً وكنا نود لو عرفنا متي وكيف تعلم ذلك ولكن المؤرخين لم يذكروا منه شيئاً. ويخيل الينا انه انما كتب وقرأ بعد ان شب وحين مارس التجارة. فما نظن ان مكة كانت فى هذا العصر تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة انما كان يشعر الرجل من أهلها بالحاجة الى ذلك فيتعلمه.

وقد ذكر لنا التاريخ ان عمرو بن العاص كان يجيد الشعر وقد روى عنه شعر كثير جيد. وان كان الرواة لم يكادوا يتركون واحداً من الصحابة من غير ان يرووا له شعرا. واشتهر بالفصاحة والابانة فى القول (١).

---

(١) هذه العبارة عن اليعقوبى (ج ٢ ص ٦٢) وابى المحاسن (ج ١ ص ٧٢) وهذا ما يخالف ما رواه ابن حجر ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه فيقول: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد. وتروى هذه العبارة عن معاوية بن أبي سفيان. ولا معنى لها الا أن الشخص الذى يراه فدماً عيياً هو وعمرو بن العاص ضدان لفصاحة عمرو وطلاقته وحسن بيانه مع ان خالقهما واحد.

يدلك على ذلك قوله حين شاوره معاوية في أمر عبد الله بن هاشم بن عتبة ابن مالك بن ابى وقاص . وكان ابوه أحد فرسان على فى صفين فاشار عليه عمرو ان يقتل عبد الله فرأى معاوية العفو عنه فخرج عمرو مغضباً وكتب اليه .

أمرتك أمراً حازماً فعصيتنى — وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذى — اعان علينا يوم حز الغلاصم
فقتلنا حتى جرى من دمائنا — بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يشبه عيصه — وتوشك ان تلقى به جد نادم (١)

ولا أدل على فصاحة عمرو من السبائك الذهبية التى نظمها فى خطابه وكتبه ـ تلك الاقوال التى ينبعث منها الاخلاص في العمل والسعى لترقية رعيته واستنهاض همم جنده قبيل المواقع الحربية . ولم يكن في الوصف باقل بلاغة منه فى الشعر فقد أقر احد علماء الفرنجة ان وصفه مصر لعمر بن الخطاب (كما سيأتي) من اكبر آيات البلاغه .

وان نفس عمرو لتبين أجلى بيان من خلال أقواله المأثورة وحكمه البليغة فهى البرهان الساطع والدليل القاطع على رجاحة عقله وسمو مداركه وسرعة خاطره واصابة رأيه وحسن حديثه . ولندل الآن بشئ يسير من هذه الاقوال لكى تكون شاهداً على صحة ما نقول .

من ذلك قوله : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ولكنه الذي

وممن سار على ذلك حضرة استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار والدكتور (بطلر)

(١) الكامل للمبرد (ص١٥٠)

يعرف خير الشرين • وروى ابن عساكر عن عمرو بن العاص انه قال يوماً لمعاوية : ان الكريم يصول اذا جاع واللئيم يصول اذا شبع • فسد خصاصة (حاجة) الكريم واقمع اللئيم

وروى عن هشام الكلبي قال ! قال معاوية لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال : من كان رأيه رادا لهواه . قال : فمن أسخى الناس ؟ قال : من بذل دنياه فى صلاح دينه . قال : فمن أشجع الناس ؟ فقال : من رد جهله بحلمه . اه .

ومن غرر أقواله ما رواه صاحب كتاب سراج الملوك وهو : موت الف من العليه أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة . وما رواه المبرد (ص ٢٨) ان عمرو بن العاص قال لمعاوية حين وصف عبدالملك بن مروان: آخذ بثلاث تارك لثلاث آخذ بقلوب الرجال اذا حدَّث وبحسن الاستماع اذا حُدّث وبايسر الامرين عليه اذا خولف تارك للمراء تارك لمقاربة اللئيم تا ك لما يعتذر منه كقوله:

فقلت له تجنب كل شئ يعاب عليك ان الحر حر

وقوله وقد نظر على بغلة قد شمط وجهها هرماً فقيل له : أتركب هذه وأنت أمير مصر ؟ فأجاب : لا ملل عندى لدابتى ما حملتنى ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى ولا لصديقي ما حفظ سري ان الملل من كواذب الاخلاق وقوله : اذا أنا أفشيت سري الى صديقي فاذاعه فهو في حل . فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : أنا كنت أحق بصيانته (١)

---

(١) الكامل للمبرد (ص ٢٨)

ومن أخبار عمرو التى تدل على علمه وتعقله وبعده عن الاوهام انه لما كان بالاسكندرية انكسف القمر فقال له رجل من القوم : لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة. فقال رجل من الصحابة : كذب عدو الله هذا هم علموا ما في الارض فاعلمهم ما فى السماء ! فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم قرأ الآية (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى ارض تموت ان الله عليم خبير)

فانظر كيف دحض عمرو حجة الرجل بهذا الدليل النقلى الذى يدل على المامه بأسرار كتاب الله العزيز فبزّ الصحابى وأقام الدليل على أن العقل اذا نما ونضج سهل عليه الاهتداء الى معرفة أسرار الطبيعة والوصول الى معرفة كثير من مكنونات الكون ؟

والظاهر أن ممارسة عمرو التجارة من صغره وكثرة أسفاره الى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخالطته لاقوام مختلفين قد أكسبته فوائد جمة من معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والادبية مما كان له تأثير كبير فى تثقيف عقله وسمو مداركه وافاده فائدة تذكر . وسيظهر من سيرته انه لم يكن تاجراً فحسب بل كان شاعراً وسياسياً محنكا وقائداً ماهراً حتى عدوه من دهاة العرب وأبطالهم وذوى الرأى فيهم

والخلاصة انه سوف يتجلى من استقصاء اخبار عمرو انه قد أوتي من الشجاعة والاقدام وحسن البلاء وكذا العلم والحكمة والحزم والوفاء وثبات

العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات مما لم يجتمع مثلها لمثله الا فى القليل النادر من مشاهير الرجال ممن أتم الله نعمته عليهم وهداهم الى التوفيق في أعمالهم والفوز فى جميع فعالهم . ولهذه جميعها كان عمرو فريداً في عصره ونابغة بين قومه وناباً من أنياب العرب وليثاً من ليوثهم ودعامة من أقوى دعائمهم صادق العزيمة قوى الحجة ثابت الجأش . ومن هذه صفاته وتلك أخلاقه فهو كفء للقيام بعظائم الامور .

(هـ) احتراف عمرو التجارة :

من المعلوم أن تربة مكة صخرية تبعد عنها المزارع . وقد ذاعت شهرة قريش وامتازوا على غيرهم من العرب بالنشاط وكان لهم احترام فى نفوس غيرهم من القبائل ومكانة لا تنكر لانهم ولاة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها . ولكن تربة بلدهم حالت دون اشتغالهم بالزراعة . الا أن مركز مكة الجغرافى قد ساعد قريشاً على ممارسة التجارة . فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة فامتازوا بالنقل بين هذه البلاد . وكانت ميناء جدة التى تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة . فكانت تحمل كنوزها (الحبشة) في جزيرة العرب الى القطيف في أقليم البحرين حيث تنقل فى القوارب مع واللؤلؤ الذى كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسى الى مصب الفرات وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن شرقا والشام غربا . وكانت ابل قريش تحمل الطيب من أسواق صنعاء ومن موانئ عمان واليمن ومن أسواق بصرى ودمشق كان يشترى القمح والمصنوعات . لذلك

كانت قريش حضرا أهل تجارة وتجارتهم قائمة بالحجاج الذين يفدون الى مكة من جميع الجهات فى المواسم . فكانت الكعبة مصدر أرزاق أهلها ولولاها ما استطاعوا الحياة فى ذلك الوادى وهو غير ذى زرع .. وقد اكسبتهم أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدين في أطراف العراق والشام وفي بلاد الحبشة واليمن خبرة وتجربة وذكا حتى صاروا أوسع العرب علماً واكثرهم خبرةً ودرايةً . لذلك بذلوا العناية القصوى في ادارة شؤون الكعبة وسهلوا على الناس القدوم اليها . وقد بلغ من اهتمامهم بالتجارة انهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام : رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام. وكانت بلاد العرب وعرة الا عليهم فلم يكن لاهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل لولوج هذه الفيافى والقفار الكثيرة الوعورة والاخطار فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واستقلوا بتبادل سلعها ، وقد كان من وراء تبادل تلك التجارة وانتشارها فى مكة ما عاد على أهلها بالارباح الطائلة . ولم يكن حب أبناء الاشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم (١)

كان عمرو بن العاص أحد أبناء هؤلاء الاشراف تاجراً في الجاهلية . والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة الى الشام وببضائع الشام الى اليمن كالجلد من اليمن يتجر به فى الحبشة . والطيب من هذه والزبيب والتين ونحوه من الشام . وقد ذكر الكندى أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته الى مصر وهى الادم والعطر (٢) والظاهر من قول الكندى

(١) جبون جـ ٩ ص ٩٤ (٢) كتاب القضاة والولاة (ص ٧)

ان أنواع السلع التى كان يتجر فيها عمرو ويختلف الى الشام والحبشة واليمن ومصر من أجلها كان أخصها الادم والعطر . وقد عادت ممارسة التجارة على عمرو باعظم الفوائد مادية كانت أو أدبية فقد اكتسب شيئاً كثيراً من أسفاره المتصلة واختلاطه باقوام على جانب عظيم من المدنية والارتقاء اذ ذاك . فتولدت فيه المواهب النادرة ونمت وازهرت فتجلت مظاهرها فى جميع أدواره وكل فعاله مما كان له أعظم الاثر في مواقفه السياسية والحربية. وهذه الاسفار قد اكسبت عمرا شيئا من الدهاء غير قليل وضرب به المثل واخترعت فيه الروايات : من ذلك ما رواه صاحب الاغانى قال :

بعد ان مشت قريش بعمارة بن الوليد المخزومى الى أبي طالب خرج هو وعمرو بن العاص وكان كلاهما تاجراً الى النجاشى مشركين وشاعرين فاتكين وهما فى جاهليتهما . وكان عمارة معجباً بالنساء ومحادثتهن فركبا سفينة فأصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبليني . فقال لها عمرو : قبلى ابن عمك . فقبلته . وحذر عمرو على زوجه فرصدها ورصدته فجعل عمرو اذا شرب معه أقل وارقّ لنفسه بالماء مخافة أن يسكر فيغلبه عمارة على أهله . وجعل عمارة يراودها عن نفسها فتمتنع. ثم أن عمراً جلس الى جانب السفينة فدفعه عمارة فى البحر فسبح حتى أخذ بالقلس فارتفع فظهر على السفينة فقال له عمارة : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة مافعلت . فاضطغنها عمرو وعلم أنه أراد قتله فمضيا على وجههما ذلك حتى قدما الى أرض الحبشة ونزلاها . فكتب عمرو الى أبيه العاص ان اخلعنى وتبرأ من جريرتى الى بنى المغيرة وجميع بنى مخزوم

وذلك أنه خشى على أبيه أن يتبع بجريرته وهو يرصد لعمارة ما يرصد . فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى في رجال من قومه الى بنى المغيرة وغيرهم من بنى مخزوم فقال ان هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر وهما غير مأمونين على أنفسهما ولا ندرى ما يكون من أمرهما واني ابرأ اليكم من عمرو ومن جريرته وقد خلعته فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم . أنت تخاف عمراً على عمارة وقد خلعنا نحن عمارة وتبرأنا اليك من جريرته نخل بين الرجلين فقال الاسود بن المطلب : بطل والله دم عمارة بن الوليد آخر الدهر .

فلما اطمأنا بارض الحبشة لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فادخلته فجعل اذا رجع يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره . فجعل عمرو يقول : ما أصدقك ان قدرت على هذا الشأن ان المرأة أرفع من ذلك . فلما اكثر على عمرو مما كان يخبره به أراد عمرو التثبت . وكان عمارة يغيب عنه حتى يأتيه فى السحر وكان فى منزل واحد معه . وجعل عمارة يدعوه الى الشرب فيأبى عمرو وكان يريد أن يأتيه بشىء لا يستطيع دفعه . فقال له عمرو في بعض ما يذكر له من أمرها : ان كنت صادقا فقل لها تدهنك من دهن النجاشي الذى لا يدهن به غيره فانى أعرفه . لو أتيتنى به لصدقتك فأتى عمارة بقارورة من دهنه فلما شمه عرفه فقال له عمرو : صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد مثله قط من العرب ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثل هذا ثم سكت .

بعد هذا دخل عمرو على النجاشي فقال : أيها الملك ان ابن عمى سفيه

وقد خشيت أن يعرنى عندك أمره وأردت ان أعلمك شأنه حتى استثبت وانه قد دخل على بعض نسائك فأكثر . هذا الدهن قد أُعطيه ودهننى منه . فلما شم النجاشى الدهن قال : صدقت هذا دهنى الذى لا يكون الا عند نسائي . ثم دعا بعمارة بالسواحر فنفخن فى إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا (فكان الجزاء من جنس العمل) قالوا فقال عمرو فى ذلك :

تعلم عماراً أن من شر شيمة لمثلك ان يدعى ابن عم له ابنما

وان كنت ذا بردين (١) أحوى مرجلاً فلست براء لابن عمك محرما

اذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمما

قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت اذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

فليس الفتى ولو أتمت عروقه بذى كرم الا بان يتكرما

صحبت من الامر الرفيق طريقه ووليت عنى الامر من قد تلوما

من الآن فانزع عن مطاعم جمة وعالج أمور الموت لا تتندما (٢). اه

(و) سفر عمرو الى مصر فى الجاهلية :

ذكر السيوطى في (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤١) ان عمرو بن العاص قدم الى بيت المقدس بتجارة فى نفر من قريش . وكان عمرو يرعى فى بعض جبالها إبله وإبل أصحابه . وكانت رعية الابل نوبا بينهم . فبينما عمرو يرعى

---

(١) قال الواقدى (عن الاغانى جـ ٨ ص ٥٠) : ان عمرا قال لعمارة : ان كنت تحب ان أصدقك بهذا أو أقبله فائتنى بثوبين أصفرين . فلما رأى النجاشي الثوبين عرفهما .

(٢) الاغانى (جـ ٨ ص ٥٠) بتصرف

إبله اذ مر عليه شماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فأسقاه عمرو من قربة له حتي روى . ثم نام الشماس في مكانه وكان الى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها. فلما استيقظ الشماس وعلم بذلك أقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال له : قد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية. فقال له الشماس : وكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيراً فتكون لي ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ فقال : مائة من الابل . فقال له الشماس : لسنا أصحاب ابل نحن أصحاب دنانير . قال : تكون الف دينار . فقال له الشماس : اني رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلي في بيت المقدس وأسيح فى هذه الجبال شهراً جعلت ذلك نذراً على نفسي وقد قضيت ذلك وانما أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعني الى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لان الله تعالى قد أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : واين بلادك ؟ قال : مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو . لا أعرفها ولم أدخلها قط (١) فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو : تفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق . فقال الشماس : نعم لك الله علىّ بالعهد والميثاق ان أفى لك وان أردك الى أصحابك . فقال له عمرو: كم

---

(١) وهذا يخالف ماذكره الكندى ان عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته الي مصر فى الجاهلية

يكون مكثي فى ذلك ؟ قال : شهراً تنطلق معى ذاهباً عشراً وتقيم عندنا عشراً وترجع فى عشر ولك علىّ ان أحفظك ذاهباً وان أبعث معك من يحفظك راجعاً. فقال له : أنظرني حتى أشاور أصحابى . فانطلق عمرو الى أصحابه وأخبرهم بخبر الشماس وما عاهده عليه وتعاهد معهم أن يقيموا ريثما يعود اليهم وان يشاطرهم ذلك المال على ان يصحبه رجل منهم يأنس به . فاتفقوا على ذلك وانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية فرأى من عمارتها وآثارها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال : ما رأيت مثل مصر وكثرة ما فيها من الاموال. ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الاموال فازداد تعجباً على تعجبه .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها باكمامهم وفيما اختبروه من تلك الاكرة ان كل من وقعت في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية اكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . وبينما هم يتلقونها باكمامهم رمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو . فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتناهذه الاكرة قط الاهذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا ؟ هذا لايكون أبداً . وان ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية وأعلمهم انه أحياه مرتين وانه قد ضمن له الفي دينار وسألهم أن يجمعوا له

ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما الاكرام كله حتى رجع هو وأصحابه الى أصحابهما . فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد واكثرها مالا . فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم الف دينار وأمسك لنفسه الفاً . قال عمرو : فكان هذا أول مال تأثلته . اه بتصرف

والذى نراه ان هذه القصة ملفقة والتلفيق فيها ظاهر ظهوراً بيناً سنكشف الستار عنه

ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عمرو بن العاص قد زار الاسكندرية (كما ذكر الكندى) فعرف مسالك البلاد وطرق القدوم اليها . على أن شهرة مصر وعاصمتها الاسكندرية لم تكن لتخفى على عمرو بن العاص بعد أن فتحت اكثر مدائن الشام على يديه ووقف بنفسه على أخبار مصر التي أخصها هجرة الالوف من المصريين الى بلاد الشام لاضطهاد الروم لهم وقتل اليعاقبة منهم . فانتهز هذه الفتن وانشغال الروم بقمع هذه الثورات فرصة سانحة لاستيلائه على مصر .

والذى يدعو الى العجب من هذه القصة ترامى الملوك بالاكرة ووقوعها في كم عمرو . وأن من وقعت فى كمه لم يمت حتي يملكهم . والتاريخ لم يذكر لنا رومانيا تعين حاكما لمصر ينطبق عليه قول السيوطى . ومن المعلوم ان حكام مصر كانوا يعينون من قبل امبراطور الروم مباشرة ومن طبقة الفرسان أو من أهالى الاسكندرية الذين يتمتعون بالحقوق الرومانية

المدنية وان امبراطرة الرومان حظروا على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ذوى الانساب الدخول فى وادى النيل من غير ترخيص منهم (١) . واذا كان كذلك فأين كان هؤلاء الملوك الذين ذكر السيوطي انهم كانوا يترامون بالكرة فى ذلك الاحتفال . ولم يتمكن أحد من الروم من دخول مصر اللهم الا اذا كان تاجراً غير مشهور أو سائحاً لا حيثية له لزيارة هذه البلاد ؟ ثم بأى لغة كان الحديث بين عمرو وبين الشماس أكان باليونانية أو القبطية وعمرو يجهلهما أم كان بالعربية وما كان أهل مصر يعلمونها ؟ ثم كيف يعده هذا الشماس بالفى دينار فاذا أتى الى الاسكندرية مشى فى أهلها ليجمع هذا المال ؟

---

(١) ملن (ص ٣)



الباب الثانى

عمرو منذ أسلم الى أن انتهت حروب الردة

(ا) اسلام عمرو :

وقد ذكر الطبرى سبب اسلام عمرو بن العاص قال : قال عمرو :
لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منى فقلت لهم : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً وانى قد رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فانا أن نكون تحت يديه أحبّ الينا من أن نكون تحت يدى محمد وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم إلا خير . فقال : ان هذا لرأى . قلتُ فاجمعوا له ما نهدى اليه وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدما كثيراً ثم خرجنا حتي قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه اليه فى شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه . قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشى سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فاذا فعلت ذلك رأت قريش انى اجزأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحبا

بصديق أهديت لى شيئاً من بلادك ؟ قلت: نعم أيها الملك قد أهديتُ لك أدما كثيراً ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه ثم قات له : أيها الملك اني قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مدّ يده فضرب به أنفه ضربة ظننتُ انه قد كسره : فقلت: والله أيها الملك لو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه . قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟ فقلت : أيها الملك: اكذاك هو ؟ قال: ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فانه والله لعلى الحق وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال : قلت فتبايعنى له على الاسلام ؟ قال : نعم فبسط يده فبايعته على الاسلام ثم خرجت الى أصحابي وقد حال رأيى عما كان عليه وكتمت أصحابى إسلامى ثم خرجت عامداً لرسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبل الفتح (بستة أشهر) وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم وان الرجل لنبىّ ، أذهبُ والله أسلم فحتى متى ؟ فقلت: والله ما جئت إلا لأسلم. فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدم خالد بن الوليد وأسلم وبايع . ثم دنوتُ فقلت : يا رسول الله انى أبايعك على ان تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو بايع فان الاسلام يَجُبُّ ماقبله وان الهجرة تجب ما قبلها ثم انصرفت. اه (الطبرى ج ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤)

وروى ابن عساكر في تاريخه عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن

العاص ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك ؟ فقال : إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فَجًّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلا فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم . فلما ذهبوا وصار الامر إلينا نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتدبرناه فاذا الامر بين فوقع في قلبي الاسلام فعرفت قريش ذلك في إبطائى عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا الىّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل الى محمد . فقلت له : يا ابن أخى إن كنت تحبُّ أن تعلم ما عندى فموعدك الظلُّ من حِراً . فالتقينا هناك فقلت : أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك . أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال : اللهم بك نحن . فقلت : أفنحن أوسع معاشاً وأوسع ملكا أم فارس والروم ؟ قال : بل فارس والروم . قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً قد وقع في نفسى ان ما يقول محمد من البعث حقٌّ ليجزى المحسن فى الآخرة باحسانه والمسيءُ باساءته . هذا يا ابن أخى الذى وقع فى نفسى ولا خير فى التمادى فى الباطل . اه

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضى الله عنهما لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاولين ؟ فقال له عمرو : وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده ! فقال عمر : صدقت . اه

ومن نظر في أمر قريش ومسلكها مع النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة فى جهاد الاسلام فى أول الامر وكان انتصار النبي لا يزيدهم إلا شدة وحماسة . ولكن هذا الانتصار قد تكرر وعظم أمره فى جميع البلاد العربية وقتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها فأخذ الشبان وأصحاب المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم . رأوا قوةً من جهة وضعفاً من جهة أخرى فكانوا يودون لو انضموا الى هذه القوة الناشئة فنفعوا وانتفعوا . ولكنهم كانوا يخشون سوء رأى قومهم فيهم وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية من جهة أخرى فمنهم من تغلب على هذه المخاوف فذهب الى المدينة وأسلم . ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً حتى إذا ثبت له من غير شك أن أمر محمد ظاهر على قريش أسرع فادرك الفرصة قبل ضياعها واسلم قبل الفتح . من الاولين خالد بن الوليد ومن الآخرين عمرو الذى اعتزل البلاد العربية وذهب الى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الامر فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة وبين النجاشي وأيقن أن أمر الاسلام سينتهى بالظفر وأن سقوط مكة قريب وانه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه الى الاسلام فليس له بدٌّ من أن يسلم طائعاً قبل أن يسلم كارهاً .

وقد قدمنا ما كان من اعتذار عمرو حين سئل عن سبب ابطائه عن الاسلام فزعم أنه كان يأتمُّ بسادة قريش . وليس من شك فى أن هذا الجواب انما كان يراد به التخلص من مسألة كانت تورط من تلقى عليه .

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده وانما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين . ولسنا نشك في أن عمرا حين أسلم كان وثق بأن أمر الاسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب بل هو متجاوزها الى غيرها وأنه قد تنبأ بما سيكون المسلمين من فتح . ولسنا نزعم أنه إنما أسلم طلباً لحسن المكانة فحسب وإنما كان يطلب الى ذلك أن ينفع المسلمين بما أوتى من قوة وحزم وليس من شك فى انه كان قد أعد لنفسه برنامج عمل هو الذى أنفذه حين بدأ المسلمون بالفتح . على أن الرجل لم يكد يبايع النبى صلى الله عليه وسلم حتى صحت عزيمته على أن يبذل ماملك من قوة لرفع شأن الاسلام . ولسنا نستطيع أن نصف مقدار ما كان لعمرو من الايمان الدينى ولكنا نستطيع أن نجزم بان ايمانه الوطنى وحرصه على اعلاء كلمة العرب وبسط أعلامهم على ما جاورهم من البلاد كانا عظيمين جداً . يدلك على ذلك قول الرسول عليه السلام :

اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص . وكل ما سنقوله منذ الآن يبين هذا الرأى .

(ب) احترام الرسول عليه السلام مقدرة عمرو وتنصيبه قائدا للامر الجيوشى

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفته شيء من ذلك ولم يردان يفرق بين هؤلاء الذين أسلموا بعد تردد وبين من سبقوا الى الاسلام وانما علم من كثير منهم صدق النية فقربهم ومن الآخرين الخوف والريبة فأمهم وأراد أن ينتفع الاسلام بهم جميعاً .

روى عن عمرو أنه قال: ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى حربه منذ أسلمت. وقد وثق بصدق عزيمة عمرو ونصحه للمسلمين منذ أسلم. وكان يعلم من دهائه وذكائه ما عرفه الناس فولاه قائداً على سرية (ذات السلاسل) وهى تلك السرية التى كانت تضم بين رجالها ثلاثة من عظماء الاسلام وأقطابه وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم. كذلك ولاه على سرية لهدم (سُواع) واستعمله على عُمان.

(ج) سرية عمرو الى ذات السلاسل:

كان النبى صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا الى القبائل يدعوهم الى الاسلام. وكان اخوال العاص بن وائل من بلى (١) وعذرة من أرض جذام. وقد بلغ رسول الله عليه السلام ان قضاعة أرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قضاعة كى يستألفهم بذلك سيره بثلثمائة من اشراف المهاجرين والانصار حتى إذا كانوا على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف عمرو على من كان معه لقلتهم فبعث الى النبى صلى الله عليه وسلم يستمده فأمده بابى عبيدة بن الجراح وبمائتين من سراة المهاجرين والانصار فيهم ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وزوده بالنصائح وحذره عاقبة الاختلاف فخرج حتى قدم على عمرو.

ومما يسترعى الأنظار أنه كاد يقع ما حذر النبى صلى الله عليه وسلم أبا

---

(١) بلىّ: قبيلة كبيرة ينسبون الى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. وعذرة قبيلة تنسب الى سعد بن قضاعة وبلادهم وراء وادى القرى بينها وبين المدينة عشرة ايام (السيرة النبوية ج ٢ ص٢٩٦)

عبيدة عاقبته وكادت تتطاير نيران الشقاق بين عمرو وأبي عبيدة لولا أن تلافى أبو عبيدة الشر . ذلك أن أبا عبيدة أراد أن يؤم الناس فقال عمرو : أنما قدمت عليّ مددا وأنا الأمير ولا امارة لك . فقال ابو عبيدة : لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما انت عليه . فتشبث عمرو برأيه واستمسك بكلمته فتذكر أبو عبيدة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطاع له وبذلك حسم النزاع وزال الخلاف . (١)

ثم سار الجيش الى العدو وحمل المسلمون عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم خلقا كثيرا فتشتت شملهم وتمزقت جنودهم فهربوا فى البلاد وتفرقوا

ولما هزم المسلمون الأعداء طمعوا فيهم وأرادوا أن يقتفوا أثرهم فحال عمرو بينهم وبين ما يشتهون . ثم أرادوا أن يوقدوا نارا يصطلون عليها من البرد فمنعهم أيضا وأمر بان من يفعل ذلك يقذف به فيها فشق على المسلمين ذلك ولم يحتملوا تلك الشدة التى عاملهم بها عمرو وهى تلك الشدة التى رآها ومن مستلزمات الخطط الحربية التى لا غنى للقائد المدبر عنها . فلما انصرفوا شكوا منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكلمه فى ذلك فقال له عمرو قولا يدل على كفاءته فى الحرب وبعد نظره في عواقب الأمور كرهت ان آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم مدد .

فأُعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما اعجاب وحمد رأيه (٢)

---

(١) السيرة النبويه (ج٢ ص٢٩٧) وتاريخ ابن الاثير (ج ٢ ص ١١١)

(٢) السيرة الحلبية (ج ٣ ص ٢٧٣)

(د) سرية عمرو الى سواع :

وسواع صنم لهذيل على ثلاثة اميال من مكة . وكان هذا الصنم على صورة امرأة يحجون اليه ويعبدونه على نحو ما كان بين العرب وبين سائر اصنامهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فى جماعة من اصحابه الى سواع ليكسروه . فلما وصل الى سواع قال السادن ماتريد ؟ فقال عمرو : امرنى رسول الله ان اهدمه . قال : لاتقدر على ذلك فقال عمرو : ولم ؟ قال تمنع فقال له عمرو حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ ودنا منه عمرو وكسره وامر أن يهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيها شيئاً ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ فقال أسلمت لله رب العالمين : (١) اهـ بايجاز

ولم يذكر المؤرخون عدد من كان مع عمرو . على اننا نرجح انه كان فى رجال لايتجاوزون عدد اصابع اليد لانه لم يكن على هـذا الصنم غير السادن . وانما نرجح أن وجود هذا العدد مع عمرو كان لهدم بيت خزانته

(هـ) تولية عمرو على الصدقة بعمان

لانرى من مؤرخ او باحث بيننا الا وهو متفق معنا على مقدرة عمرو الحربية وتصرفه في الامور بحكمة وروية نادرتين . فلا غرو اذا وضع النبى صلى الله عليه وسلم ثقته فيه لكفاءته ومهارته وأسند اليه تولية الاعمال السياسية والدينية الخطيرة . ففى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٧٩ و تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٧٣

صلى الله عليه وسلم الى ملكى عمان (١) جيفر (٢) وعباد ابنى الجلندى كتابا مع عمرو بن العاص يدعوهما الى الاسلام . وكان دين تلك البلدة المجوسية وهذا نصه : —

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى جيفر وعبّاد ابنى الجلندى : سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما . اه

لم يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم عمرا فى الحرب فحسب بل استخدمه فى السياسة أيضاً لعامه بدهائه وبعد نظره فبعث به سفيراً إلى جيفر وعباد ملكى عمان حتى إذا ما انتهت سفارته ونجحت دعوته وأسلم أهل عمان على يديه عينه والياً للصدقة عليها جزاء خدمته العظيمة فتقلد هذه الوظيفة السامية حتى وفاة الرسول عليه السلام . ولا بد أن يكون لعمرو سابق معرفة ببلاد عمان لتردده عليها قبل إسلامه ومعرفته بأحوال أهلها وعاداتهم . فتمكن بحسن سياسته من توطيد دعائم الاسلام فى أرجائها . وفضلا عما كان لهذه الخدمة من الاهمية الدينية فقد كانت لها أهمية سياسية كبيرة ليس لها إلا أمثال عمرو كما سترى .

فخرج عمرو حتي انتهى إلى عمان حيث قابل عبادا وكان أصغر من

(١) عمان (بضم العين وتخفيف الميم) بلدة باليمن سميت باسم عمان بن سبأ . واما عمّان (بفتح العين وشد الميم) بلدة بالشام

(٢) جيفر على وزن جعفر

أخيه جيفر وأحلم وأسهل خلقا منه فسأله عباد عن حاجته فأجابه عمرو : إني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال : أخي المقدَّم على بالسن والملك وأنا أوصلك اليه كى تقرأ كتابك عليه . ثم سأله عما يدعو اليه هذا الدين وهل أسلم أبوه أم مات على غير الأسلام ومتى أسلم عمرو وأين كان إسلامه وما الذى يأمر به هذا الدين وينهى عنه . فأجابه عمرو بما اشتهر عنه من الأبانة في القول وإقامة الحجة حتي أقنعه وأراه الحق عيانا فمال قلب عباد إلى الأسلام ورغب فيه . يدلك على ذلك قوله : ما أحسن هذا الذى يدعو اليه ولو كان أخي يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخي ضنٌ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا (تابعاً) بعد أن كان متبوعا . فقال له عمرو : ان أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقرائهم فأعجب عباد بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أعجاب لما فى ذلك من مواساة الفقراء واغاثة الملهوف وقضاء حاجة المعوزين.

أقام عمرو بباب جيفر أياما من غير أن يقابله وعباد يخبر أخاه بكل مايدور بينه وبين عمرو من اطراف الحديث حتى دعاه عباد يوما ليدخل على أخيه : ولما تم لعمرو ما أراد من مقابلة جيفر أذن له هذا بالحديث فدفع اليه الكتاب مختوما بختم النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه ثم دفعه إلى أخيه فقرأه كذلك. وحينذاك سأله عما صنعت قريش فقال عمرو : إما راغب في الدين واما مقهور بالسيف وان لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك (رجالك) فأسلم تسلم فيوليك على قومك وتبقي

على ملكك مع الاسلام ولا تدخل عليك الخيل والرجال وفي هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال

ودعاه جيفر أن يمهله يوما ريثما يعمل فكره ويرجع إليه في اليوم الثاني فلما كان الغد عاد عمرو إلى أخيه الذى استصحبه الى الملك فأجابه بالنفى وصمم على أن لا يسلم تراث ملك آبائه وأجداده لأحد وأظهر استهانته بما تضمنه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يتسنى للمسلمين التغلب على بلاده مع ماهو فيه من بعد الشقة وزوده بأنه سوف يقف فى سبيل المسلمين ويبعدهم عن بلاده فهمّ عمرو بالانصراف غير أن عبادا فطن لعواقب هذا العناد فنبه أخاه ونصح له بتلبية دعوة النبى صلى الله عليه وسلم واعتناق الأسلام فأرسل الى عمرو وأجاب للأسلام هو وأخوه وخليا بين عمرو والصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا عونا له على من خالفه وأسلم معهما خلق كثير.

ظل عمرو متوليا هذا المنصب الدينى السياسى الكبير زُهاء سنتين يهدى الناس الى الاسلام فيدخلون فى دين الله أفواجا وكان يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيما هناك حتى جاءه نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه كتاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه مختوما وفيه ان لا يحلّ عقالا عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقالا لم يعقله رسول الله. فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلا وحزن حزنًا شديدا ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه.

(و) عمرو وردة العرب

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الأمة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها. فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة وكان من وراء ذلك ماهو معلوم. ولو كان عمرو فى المدينة اذ ذاك لما ظل ساكنا هادئاً بل لابد أن يكون قد دخل فى هذا الخلاف ولعب فيه دورا مهما وان كان اليعقوبى قد ذكر انه كان له ضلع فيه فانه لاسبيل إلى تصديقه اذ ليس من شك في أنه كان لايزال بعمان حتى دعاه أبو بكر. ولكنه اشترك فيما كان بين الامة العربية فى كافة أنحاء الجزيرة عقب تولية أبى بكر . ذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب فى أن تخضع لسلطان قريش وقد أخضعوا اما طوعا أو كرها. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل اليهم أن هذا السلطان منحل لان بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبى فلما تحققه شك فى الدين وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد ممات زعيمهم ولأنهم كرهوا سيادة قريش التى ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ولكى تحافظ على هذه السلطة كان لابد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها فرفضت أكثر قبائل العرب أن تخضع لسلطان أبى بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة . وما زال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الاخرى حتى تزعزع مركز الأسلام وانكمش إلى مدن

مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس)

أما عمرو بن العاص فقد أرسل فى طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فأقبل حتى قدم إلى بلاد بنى عامر ونزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى عامر فأكرم قرة مثواه ولما أراد الرحيل خلا به قرة وقال : ياهذا إن العرب لاتطيب لكم نفساً بالأتاوة (الرشوة) فان أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم (١)

ولكن ماذا صنع عمرو ؟ أظهر لديه من الشهامة والشمم مالا يقوى عليه الاصناديد الرجال وليوثهم فأجابه على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب وينم عن الهول والثبور لكل من ناوأ الدين أو أراد به شراً أو أذى حين قال أكفرت ياقرة ؟ تخوفنا بردة العرب ! فوالله لأوطئنّ عليك الخيل فى حفش (٢) أمك . وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا الى المدينة . ولما قدم بقرة بن هبيرة أسيرا على أبى بكر استشهد قرة بعمرو على إسلامه فأحضر أبو بكر عمرا فسأله فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرة : مهلاً ياعمرو . فقال: كلا والله لأخبرنه بجميعه . فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه (٣)

---

(١) تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ١٠٧

(٢) الحفش بيت ينفرد فيه النفساء

(٣) تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١

أما نصيب عمرو في قتال أهل الردة فان أبا بكر (١) أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاعة وكان قد حاربهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة « ذات السلاسل » وأصلاهم نارا حامية وقتل منهم مقتلة عظيمة وعاد من بقي منهم إلى الاسلام.

وكانت قضاعة قد أنست في المسلمين الضعف بعد وفاة الرسول عليه السلام وهم لم يسلموا رغبة في الاسلام واهتداء بهديه بل دخلوا في في هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف أو طمعاً في مال أو جاه يصيبونه فلم يكن قد تمكن الأسلام من قلوبهم . فلما أنفذ اليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه في الطريق الذى سلكه من قبل حتى وصل الى بلاد قضاعة فأعمل السيف في رقابهم وغلبهم على أمرهم وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع الى الاسلام وعاد الى أمير المؤمنين حاملا لواء النصر والظفر

---

(١) عقد أبو بكر الألوية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية المخزومي القرشي وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وحذيفة بن محسن الغلفاني من حمير وعرفجة بن هرثمه البارقي من الازد وشرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة ومعن بن حاجز السلمي وسويد بن مقرن من أوس والعلاء بن الحضرمي حليف بني أمية .

فتح الشام وفلسطين

للدكتور حسن ابراهيم حسن

ورسمه وحققه الأستاذ الشيخ

محمد مختار يونس

١٣٤٠ سنة ١٩٢٢

طوروس
سلوقية
اسكندرونة
انطاكية
حلب
صفين
الفرات
اللاذقية
قبرص
طرطوس
حماة
حمص
طرابلس الشام
بيروت
بعلبك
البحر الأبيض المتوسط
صيداء
دمشق
صور
عكاء « عكة - بطليموسية »
حيفا
طبرية
فحل
قيسارية
بحر الروم
بصرى
اجنادين
يافا
الرملة
بيت المقدس
عسقلان « عسقلون »
غزة هاشم
بيت لحم
رفح
فلسطين
العريش
الفرما
بلبيس
منف « مانوف »
طور سيناء
بحر القلزم

الباب الثالث

عمرو في فتح الشام وفلسطين

(١) كتاب ابي بكر لعمرو وهو بعمان وانفاذه الجيوش لغزو سوريه وفلسطين

انتصرت قريش على العرب فكان همّ أبي بكر أن يشغل العرب والجيوش التى قهرتهم بالحروب الخارجية وكانت هذه الحروب تفى بما أمر الدين من نشر الاسلام من جهة وبما كان العرب فى حاجة اليه من الاشتغال بالأعمال الخارجية عن خلافاتهم الخاصة الداخلية . فانه ما كادت حروب الردة الطاحنة التي شنها العرب بعضهم على بعض تنصرم حتي وجدنا تلك الامة الفتية تتأهب لفتح البلاد وتمصير الأمصار ولم تكن همة عمرو الكبيرة وعزيمته الماضية لتقف به عند هذا الحد بل رأيناه يخوض غمارها تارة يقود الجيوش الجرارة وأخرى ينشر الاسلام فيدخل الناس فى دين الله ذرافات ووحدانا . فاشترك اشتراكا فعليا فى فتح الشام وفلسطين وعلى يديه فتح العرب مصر .

وقد كان حكام الروم في آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسومونهم العذاب فتأفف من جورهم أهالى البلاد التى كانت تحت سلطانهم ومالوا الى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد وتغيير الحال التى أصبحوا فيها على أى شكل كان . ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم

من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم ، نخامر نفوسهم شيء من اليأس فساعد هذا تلك الأمة الطموحة مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الأيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد .

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جرّاء الغارة التي شنها على بلادهم أسامة بن زيد . فجمع الامبراطور (هرقل) جيشاً جراراً عسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين .

فدعا أبو بكر الصديق رضى الله عنه المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين . وكتب أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص رضى الله عنه : انى كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك (الطبرى ج ٤ ص ٢٨)

فكتب اليه عمرو : اني سهم من سهام الأسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى

وسرعان ما أنفذ أبو بكر الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لأربعة من الأمراء هم :

(١) ابو عبيدة بن الجراح : ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية

(٢) عمرو بن العاص ووجهته فلسطين .

(٣) يزيد بن ابى سفيان : ووجهته دمشق .

(٤) شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن .

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضا وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبى عبيدة . وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين وعليه أن يمد الجيوش الأخرى اذا دعت الحاجة الى ذلك . (١)

(ب) وصية أبى بكر لعمرو بن العاص عند مسيره الى فلسطين :

وقد آثرنا ان نقتطف من هذه الوصية البليغة بضع شذرات علنا نقف على شىء من أخلاق عمرو وحرص أبى بكر على المسلمين وسلوك الامراء مع الامم التى فتحها العرب . قال الواقدى :

دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم اليه الراية وقال : قد وليتك هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب) فانصرف الى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده اذا ارادك ولا تقطع أمراً الا بمشورته . إتق الله فى سرك وعلانيتك واستحيه فى خلواتك فانه يراك فى عملك وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله . واسلك طريق إيلياء حتى تنتهى الى أرض فلسطين .

وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك اليه وإياك والوهن واياك أن تقول

---

(١) الطبرى (جـ ٤ ص ٨٢) ؛ وابن الاثير (جـ ٢ ص ١٩٥) والامير على (ص ٣٤ ـ ٣٦) ؛ وأيرفنج (ص ١٢) وموير (ص ٦٧)

جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم وأعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم . وإياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة اذّن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن انت بعد ذلك مطلعا عليهم . وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم واتق الله اذا لاقيت العدو وقدّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .

واذا وعظت فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك فخراً منك . وألزم أصحابك قراءة القرآن وأنههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتي تلتقى بمن مضى من سلفك . وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن اذ يقول الله تعالى (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)

ثم قال لعمرو : أمض بارك الله فيك وفيهم . فساروا فى تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين (١) . اه

ومن أنعم النظر فى هذه الوصية التى ترجمها كثير من مؤرخي الفرنج مثل جبون وأيرفنج الفيناها آية فى البلاغة لما لها من الأهمية في هذا

(١) فتوح الشام للواقدى (جـ ١ ص ٩ ـ ١٠)

الظرف . يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاولة على من معه. وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم فيقيم بينهم ويجلس معهم . وأن يكون مثالا حسناً لمن معه فينصاح أمرهم بصلاح أمره وأن لا يباشر عملا حربياً الا بعد أن يخبر عدوه ويبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح بهم فى مهاوى التهلكة . ويرغّبه فى الآخرة فانها أفضل من دار الفرار

ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما تفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدى إلى النصر المبين .

(ج) شروع عمرو فى قتال الروم بفلسطين :

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر فى وصيته التى كانت أشبه شيء بالخطة الحربية فسار في طريق إيلياء حتى وصل الى فلسطين ونزل « بغمر العربات » فلما علم (هرقل) بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوة المسلمين . وبلغ عمرو بن العاص أن مع الروم اكثر من مائة الف مقاتل مما أوقع الرعب فى قلوب المسلمين فعقد راية وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب وضم اليه الف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم وحمل بنفسه على كبيرهم وطعنه طعنةً نجلاء نخر ميتاً. فداخل الفزع والهلع قلوب الاعداء واقتتل الفريقان قتالا أسفر عن انهزام الروم فولوا الادبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الاسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير . وقتل من المسلمين على ما رواه الواقدى (ج ١ ص ١١ ــ ١٢) سبعة (١) اه باختصار

---

(١) ولم يرو الطبرى هذه الموقعة ولعل الطبرى اكثر احتياطا فى رواية الاخبار

عمرو بن العاص يقاتل مائة الف (١) من الروم

ولما لاح صباح اليوم التالى أشرفت على المسلمين عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف . فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل في الميمنة الضحاك وفى الميسرة سعيد بن خالد وعلى الساقه أبا الدرداء . وثبت هو في القلب ومعه أهل مكة وأمر الناس أن يقرءوا القرآن وجعل يحببهم فى القتال ويرغبهم فى ثواب الله وجنته وهم كالبنيان المرصوص . فلما شاهدهم (رويس) بطريق الروم انكسرت حميته وسُقط في يده .

ثم باشر الفريقان القتال وعمل المسلمون الحيلة فى الاعداء وبعجوا دوابهم بالاسنة وحملوا عليهم حملة منكرة ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل إذ أتى الله المسلمين بالنصر وولى الروم مهزمين والمسلمون في أعقابهم مسرعين . وبينما كان المسلمون يتعقبون الفالة إذ دهمتهم قوة من الروم فقتلوا سعيد بن خالد أخا عمرو بن العاص لأمه . وقد كانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر الفاً وخسارة المسلمين مائة وثلاثون . ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لأبى عبيدة : قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له (رويس) فى مائة الف فارس فمنّ الله علينا بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر الف فارس وفتح الله علىّ فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا فان احتجت الىّ سرت اليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (٢) اهـ

---

(١) و(٢) الواقدى (جـ ١ ص ١٣) . اما الطبرى فقد ذكر ان هذا الجيش كان سبعين الفا وذكر ابن الاثير انه كان تسعين الفا

لا ندرى من أى مصدر جاء الواقدى بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو انه تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة والروم مرابطون في جميع أرجائها وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم ولم يفتحوها إلا بعد اليرموك ودمشق . وكيف قوى المسلمون على مائة الف من الروم وزيادة ولم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف مقاتل؟ أضف الى ما تقدم أن خسارة المسلمين في اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانوا سبعة) وكذا خسارة الروم في هذه الموقعة قد أغفلت . فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم اكثر من خمسة عشر الف . وما ذكره (الواقدى) فى هذا الكتاب يناقض ما ذكره (الطبرى) و (ابن الاثير) و (الامير على الهندى) من أن عمرو بن العاص حين رأى (هرقل) قد سير اليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة مما أدخل الفزع والحيرة فى قلوب القواد كاتب أبا بكر وشاور قواد الشام عمراً فى أمرهم فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك ، فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو . (١)

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص وإن لم يكن أمير المسلمين فى حرب الشام فقد عرف له المسلمون اصالة الرأي وبعد النظر فاستشاروه في مهام

---

(١) الطبرى (ج ٤ ص ٣١) ؟ وابن الاثير (ج ٢ ص ١٦٨) ؟ وموير (ص ٦٨ ـ ٢٨) ؟ وايرفنج (ص ٣٧)

الامور . ويكفيه فخراً أن جاء جواب أبي بكر مطابقاً كل المطابقة لرأيه وكان من وراء رأيه ما جناه المسلمون من ثمار الانتصار فى موقعة اليرموك مما أضعف العدو وسهل عليهم اجتناء ثمار الفوز والظفر فى الوقائع المتوالية .

ولسنا نشك فى ان حزم عمرو وحسن رأيه هذين الى ما أظهره من الخدمة والمهارة من قبل ـ كل ذلك قد أهله لثقة عمر فيما بعد . فمع أن عمراً وخالد بن الوليد كانا يكادان أن ينزلا منزلة واحدة فى الأسلام، ومع أن خالداً قد أظهر من التفوق فى حرب الردة وفتح العراق والشام ما كان يعده لأحراز المكانة العليا فان عمر لم يرض عنه ولم يثق به ورضى عن عمرو ووثق به طول حياته .

(د) اشتراك عمرو فى وقائع اليرموك (١) ودمشق والاردن :

ومما يذكر لعمرو فى موقعة اليرموك التى كانت على حدود فلسطين وبلاد العرب أن الروم حملت على المسلمين حملة هائلة فانكشفوا فولى صاحب رايتهم منهزماً واللواء بيده . فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن

---

(١) اليرموك نهر معقد وهبته الطبيعة اسرارا والغازا ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الاردن جنوبى بحيرة طبرية باميال قليلة . وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالاردن يكون فى الطرف الشمالى فتحة على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة . وعنده ضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الارض المنبسطه التى فى الداخل وهذه البقعه تسمى (الواقوصة) ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الاسلامية (الامير على ص ٣٧)

الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون وانهزم جيش الروم .

ومما يذكر له أيضاً أنه كان له نصيب كبير في يوم التعوير الذى أصاب فيه رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ولم يثبت غير أصحاب الرايات وقاتلت الامراء بانفسها ومن بينهم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبى بكر . واشتركت النساء في القتال مع هذا النفر اليسير . وكان بعضهن يضمدن الجروح أو يسقين المـاء وكثير منهن يقوين المسلمين الفارين فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماس فى قلوب الرجال . فكروا على العدو كالجبال الراسيات حتى كان النصر . (١)

ومن هذه الحادثة تتجلى شجاعة عمرو وكأنه أراد أن يكون ارتداد العدو على يديه ، فسبق خالداً لأخذ الراية وقد أحاطت به جند الروم فنسى نفسه حباً للجهاد وما بالى بمن حوله من الروم حين جاهد مع غيره من الامراء وصبروا على قتالهم صبر الكرام وقاتلوهم قتال المستميت وهم نفر يسير .

مات أبو بكر وتولى عمر فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً إلى أبى عبيدة وأمر عمرا بمعونة جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها . وقد سار جيش المسلمين ينساب من بين الادغال

(١) جبون جـ ٩ ص ٢٢٦ وموير ص ٧٠ ـ ٧١ . وايرفنج ص ٦٨

والحدائق كتيبة عقب كتيبة وعلى المقدمة عمرو بن العاص فى تسعة آلاف ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم. فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب (الفراديس) وشرحبيل بن حسنة بباب (توما) وقيس بن هبيرة بباب (الفرج) وأبو عبيدة بباب (الجابية) وبقى خالد بالباب الشرقى . وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوما ولم تجدهم منعة حصونهم وما عليها من المنجيقات وغيرها من آلات الدفاع فتيلا . وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ونفدت المؤن من عندهم فجنحوا الى الصلح .

وبعد فتح دمشق سار المسلمون نحو فحل وعليهم شرحبيل بن حسنة ، فبعث خالدا على المقدمة وعمرو بن العاص على مجنّبتيه وعلى الخيل ضرار ابن الأزور وعلى الرجل عياض ، فاستولى المسلمون على فحل وبيسان وطبرية وقتلوا من الروم ثمانين الفاً كما ذكره الطبرى وياقوت (ج ١ ص ٣٤٠)

(هـ) عمرو وموقعة أجنادين (١)

اشترك عمرو بن العاص فى وقائع اليرموك ودمشق وفحل وبيسان بعد ان هزم للروم الجيوش الجرارة بفلسطين . فكأن أعماله الحربية لم تكن قاصرةً على فلسطين فحسب بل شملت الأردن وامتدت إلى سورية : أعنى أنه منذ وطئت قدمه هذه البلاد قضى وقته فى الطعن والنضال وقيادة

---

(١) ذكرها ياقوت فى معجمه فقال : اجنادين (بالفتح ثم السكون ونون والف) هو موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين وهى من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم .

الجيوش. ولما تم له ما أراد صرف همته الى القضاء على قوة الروم بفلسطين وفتح ما لم يفتح بعد من بلادها. فبينما كان ابو عبيدة يفتح المدن الواقعة شمالى الشام كحمص وحماه وقنسرين وحلب واللاذقية وغيرها لم تكن فتوح عمرو بفلسطين وانتصاراته الباهرة باقل نجاحاً منها.

وقد كان على فلسطين وال رومى يدعى (أرطبون) (١) كان عند الروم كعمرو بن العاص عند العرب في الدهاء وقد وضع جندا عظيما ببيت المقدس وغزة والرملة بينما خيم بجنده الكثيف بأجنادين. (٢)

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر. فقال عمر رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكتب أمير المؤمنين الى القواد أن يسيروا الى قيسارية والرملة وإيلياء (بيت المقدس) كى يشغلوا الروم عن عمرو.

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة وعالج كسر قوة (أرطبون) فلم يوفق ولم تشفه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. فحدث ارطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له فى الطريق من يقتله، وفطن له عمرو فاحتال بما عرف عنه من الدهاء ونجا من شره. وعلم

---

(١) ذكر بطلر (ص ٢١٥) ان لفظ (ارطبون) الذى يطلقه العرب على هذا القائد خطأ. والصحيح « أريطيون »

(٢) الطبرى (ج ٤ ص ١٥٧) ؟ وهورت (ج ١ ص ٢٨٤)

(ارطبون) بحيلته فقال: خدعني الرجل هذا أدهى الخلق ، وبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فقال : غلبه عمرو ولله عمرو . ووقف عمرو بنفسه على حالة الروم فزحف بجنده واقتتلوا قتالا شديداً لا يقل هولا عن قتال اليرموك فانهزم (ارطبون) في ثمانين الف من الروم وأوى بالفالة إلى ايلياء . وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)

وقد اضطربت كلمة المؤرخين في السنة التي هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين . فذكر بعضهم « كالواقدي وياقوت وايرفنج » ان ذلك كان سنة ١٣ هـ عقب فتح بُصرى حيث سار العرب لحصار دمشق ، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجنادين وقد علموا أن « هرقل » أنفذ إليهم مائة الف من الروم تحت قيادة « وردان » «١» وان موت أبي بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ أيضاً . وهو يخالف ما ذكره غيرهم « كالطبري والبلاذري واليعقوبي وابن الاثير » أن موقعة اليرموك لا اجنادين هي التي سبقت فتح دمشق : أعني سنة ١٣ هـ . وأن واقعة اجنادين كانت سنة ١٥ هـ . على أن المؤرخين الأفرنج ومعهم الواقدي قد ذكروا أن العرب اشتبكوا باجنادين مرتين: مرة قبل فتح دمشق أي سنة ١٣ هـ ، ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥ هـ . ونحن نميل الى أن اجنادين كان بها واقعتان ، احداهما سنة ١٣ ثم اشتغل الفريقان بغيرها من البلاد ، ثم عاد اليها المسلمون بعد ذلك .

---

(١) قال ياقوت (جـ ١ ص ١٢٦) ان قائد الروم كان (ارطبون) كما ذكرنا

على أن رواية الطبرى عن ابن اسحق « ج ٤ ص ٤٥ » توافق ماذكره الفرنج، وهو أن فتح اجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث جتمع المسلمون مدداً لعمرو بن العاص .

الا الفرنج والواقدى يقولون إن عمرو بن العاص أتى مدداً لخالد بن الوليد على أثر كتابته له و لغيره من الأمراء المتفرقين بالشام (الواقدى ج ١ ص ٢٤) .

فاذا أغفلنا واقعة أجنادين الاولى تيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة . وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع فليس هذا من شأننا .

وقد يكون التخبط فى ترتيبها راجعاً لوقوع بعضها فى أوقات واحدة، وإذ ثبت لدينا أن هذه الوقائع قد وقعت بالفعل فما علينا إلا أن نذكر منها ما عسى أن يكون له علاقة بعمرو بن العاص، لان التصدى للبحث فى الترتيب يخرج بلا ريب عن موضوع رسالتنا .

وكان من نتائج انتصار عمرو على « الارطبون » ان أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكاء وبيروت ولد والجبلة - فتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس

(و) عمرو وفتح بيت المقدس :

كان عمرو بن العاص المتولى فتح فلسطين وكانت حاضرتها بيت المقدس أو إيلياء حيث لجأ إليها الفالة من موقعة اجنادين فعسكروا فيها ونصبوا على أسوارها المنجنيقات .

وكان عمرو قد أخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها ، ففتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين .

فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخـذ يخابر (الأرطبون) مخابرةً حبية ويطلب إليـه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليـه وكتب الى عمرو بن العاص (وعمرو لا يزال باجنادين) كتابا يقول فيه

انك صديقي ونظيرى ،أنت فى قومك مثلى فى قومى ، والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد اجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقى الذين قبلك من الهزيمة .

فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فأرسله إلى (ارطبون) وأمره أن يغرب ويتنكر وقال :

استمع ما يقوله حتى تخبرني به إذا رجعت وكتب إليه :

جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتى وقد علمتَ أنى صاحب فتح هذه البلاد .

فخرج الرسول حتى أتي (ارطبون) فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فاقترأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على (ارطبون) فقال من اين علمت انه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمـه عمر ثلاثة أحرف . فرجع الرسول الى عمرو فعرف انه عمر . وكتب الى عمر يستمده ويقول: إنى أعالج حربا كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً أدخرت لك فرأيك . (١)

---

(١) الطبرى (ج ٤ ص ١٥٧) وقد قيل إن عمر أنفذ ابا عبيدة لفتح ايلياء

والذى نميل إليه أن عمرو بن العاص لما عالج الشدائد من قتال الروم وأشجوه وأشجاهم كتب بأمره الى عمر فرأى أنه الجد، فخرج الى الشام واستخلف على بن أبى طالب وكتب الى الأمراء الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال ولا يتخوفون أن يداهمهم عدو وان يوافوه بالجابية فوافوه.

فلما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة وأم الارطبون مصر ورق بقية جند الروم وأهل البلاد فطلبوا الصلح - وممن سار على هذا الرأى حضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار.

أنزلت المنجنيقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد أتاهم الشتاء. وقد ظل المسلمون على حصارهم أربعة أشهر لم يمض منها يوم واحد من غير قتال.

فشاهد أهل ايلياء من المسلمين الجد في الحرب والصبر في القتال وقد عدوا الاستيلاء عليها دينياً اكثر منه سياسياً لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها معبد الارض المقدسة ومقر وحى عيسى عليه السلام، وبها قبور كثير من الانبياء. وقد كتب أبو عبيدة الى أهالى ايلياء يدعوهم الى الأيمان بالله وبرسوله أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية وان أبوا فيحل جند المسلمين بأرضهم ويفتكون

فوجه يزيد بن أبى سفيان فى خمسة آلاف ثم لحقه هو ببقية جند المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص.

وبعيد جداً أن يفرق « ارطبون » بين لفظي عمرو وعمر.

برجالهم ويستحلون عيالهم . فارتاعوا من هول هذا التهديد وعقد رؤساؤهم الاجتماعات المتواصلة للنظر فى حالهم والعمل على تخفيف ما حل بهم. (١)

نظر أهل ايلياء الى حالتهم فوجدوا أنفسهم في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة ، وان دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء وما بذلوا في قتالهم من الدماء ، ولما تحقق عندهم أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لأنه محل الاسراء ومقر الانبياء . والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمي أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرمها منهم الفاتحون . فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه. ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريرقهم (سفرونيوس) على الاسوار طالباً التسليم على أن يكون المتولى للصلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكاتبه الامراء في ذلك فرضى عمر ورحل إلى الجابية وكتب لأهل ايلياء كتاباً أشهد فيه القواد من المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص . وقد وردت صورته في كثير من كتب التاريخ . وكان فتح ايلياء سنة ١٦ للهجرة أو أواخر سنة ١٥ ﻫ (٦٣٥ م) (١)

---

(١) جبون (ج ٩ ص ٢٤٩ — ٢٥٠)

(ر) عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل :

ظل عمرو مع جيشه بفلسطين ردحاً من الزمن للقضاء على القوة التي كانت لا تزال مع (قسطنطين بن هرقل) فسار الى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هـذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية في قبضة العرب وهروب والده من انطاكية ، وتوهم وقد تملكته الهواجس أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة فانسل من قصره هو واسرته خفية ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل . ولما أصبح الصباح وقد علم الأهلون بهرب أميرهم سلموا لعمرو فقبل منهم . وسرعان ما وافق على الشروط وقد تاقت نفسه للرحيل لغزو مصر . وكان ذلك سنة ١٧ هـ (٦٣٩ م)

اضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون في غضونها المشاق والاهوال وقاسوا طويلا من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد غير قليل سيما في وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب ، فكان عدد من قتل في حروب الشام كما ذكر (ايرفنج) يناهز خمسة وعشرين الفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء التي أهدرت عزيزة .

(١) راجع : الطبري (جـ ٤ ص ٢٤٩) ، اشهر مشاهير الاسلام (جـ ٢ ص ٢٠٦) وبطلر (ص ١٦٦) وهورت (جـ ١ ص ٢٣٥) وموير (ص ١٤٣ — ١٤٤)

وقد رأينا أن عمراً قد وقف في هذه الحروب موقف الذى لا يضن بحياته ولا بقوته على المسلمين ، وهو مع ذلك كان يبذل ما يستطيع من جهد لحقن دمائهم وبذل أقل ما يمكن منها في سبيل الحرب .

فهو في الوقت نفسه قائد شجاع ومدبر ناصح ، له من الحزم والأناة حظ قلما ظفر به غيره من قواد المسلمين إذ ذاك .



الكتاب الثانى

عمرو كزعيم من زعماء الدولة العربية

الباب الاول

﴿ حال مصر قبيل الفتح الأسلامى ﴾

ولنترك الآن عمراً فى فاسطين يتهيأ للزحف على مصر ونلقى نظرةً فى حالة هذا البلد الجديد فنرجع للوراء زهاء قرنين لنأتي بمجمل حال تلك الأمة الدينية والسياسية من أيام قسطنطين : أى منذ القرن الرابع الميلادى حتى الفتح الأسلامى . ليتبين كم قاسى أبناؤها من حمل النير الأجنبي ولنعرف كم كانت ترزح تحت أعباء تلك الفتن وتئن أنين الشكلي مما كان يفتك بأهلها من الظلم ويستنزف دماءهم من المكوس والضرائب وتستأصل زهرة شبابهم الأختلافات الدينية والحروب الاهلية حتى أصبح أهلها يفضلون الموت على حياة كلها تعاسة وشقاء وظلم وبلاء .

(ا) الحالة الدينية

كانت الأمة المصرية وثنية إلى عهد القيصر (أغسطوس) الرومانى حيث ولد المسيح عليه السلام .

فأصبحت تتوالى النقم من قياصرة الروم على النصاري قتلاً وتعذيباً

وتشريداً حتى جاء القيصر (دقلديانوس) فأغلق كنائسهم وأسرف فى قتلهم ولم يفتر عنهم يوما واحداً لاستئصال شأفتهم وابطال النصرانية .

وكان يرجع وقوع ثورة المصريين فى عهد(دقلديانوس) الى سببين : أحدهما سياسى ، والآخر دينى

ففى الشطر الاول من حكم (دقلديانوس) قامت الثورات فى الاسكندرية، فقد ثار أحد الضباط المدعو (لوسيوس دميتيوس دومتيانوس) وكان رومانيا لقبه المصريون أخيلوس ونادوا به إمبراطوراً ،لذلك اضطر دقلديانوس الى الحضور بنفسه الى مصر لاخماد هذه الثورة التى لم يفرغ منها الا سنة ٢٩٦ م. وحاصر مدينة الأسكندرية ثمانية شهور ثم استولى عليها عنوة ، وكانت نتيجة هذا الحصار الطويل أن دمر اكثر أبنية المدينة. وقد حلّ بالاسكندرية البؤس والشقاء من جراء الحصار الذى حصل في ثورة أمليانوس حتى أن دقلديانوس أصدر أمراً بأن جزءاً من الغلال التى كانت ترسل إلى رومة يوزع على الأهاين فيها .

أما الشطر الأخير من حكم دقلديانوس فكان عصر هياج واضطراب بسبب اضطهاد المسيحيين .

وكان يرمى نظام الحكومة الجديد الى التشدد فى تقديس الامبراطور وإكباره الدينى ، فبعد أن كان فيما مضى الرئيس الدينى الأعظم أصبح في فى عصر دقلديانوس وبواسطة التأثير الشرقى أشبه شبه باله يعبد تقدم له القرابين ويعبد كما تعبد الآلهة ، ليكون بذلك اكثر أمانا على نفسه من الاغتيال كما حصل لكثير من الأمبراطرة العسكريين الذين تقدموه فى

القرن الثالث كله .

فأثارت هذه السياسة سخط المسيحيين ودفعتهم إلى المقاومة . وكان الشجار الذى أثاره هذا العمل في مصر أشد منه في أى بلد آخر مع أن تقاليد المصريين القديمة هى التى سهلت الأمر على الحكومة وجعلتها تتوقع نجاح سياستها وتنتظر من الأمة العمل من أول الامر بأكثر من رغائبها فيتسابق المصريون إلى تأليه دقلديانوس كما ألهوا كليجولا من قبل، غير أن التعصب المصرى لديهم كان لا يزال شديداً ينفجر بركانه لأوهى الأسباب حتى عند الذين اعتنقوا الدين المسيحى ـ لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه الأمبراطور على الرغم من مجهوداتهم الكثيرة مقاومة عنيفة وعناداً كبيراً وصلا إلى حد الجنون . (ملن ص ٨٧)

والظاهر أن دقلديانوس وغيره من إمبراطرة الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين خارجين على الدولة والدين الرسمى ، فلم يكن بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم إلى الوثنية ـ وعلى ذلك فلم يكن قصدهم اضطهاد المسيحيين بل ردهم إلى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ،وإن كان بعضهم قد أسرفوا في قتلهم وتعذيبهم اسرافاً شنيعاً جرّ عليهم سخطهم وكراهيتهم كما أسرف بعض الأمبراطرة المسيحيين فى اضطهاد الوثنيين حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للامبراطرة .

ومن الصعب الجزم بعدد من قتلوا فى مصر في عهد دقلديانوس ،إلا أنه من المؤكد أن عددهم كان عظيما وأن الاضطهاد تناول جميع الطبقات وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية سنة ٣٠١ م . وأظهر فيه دقلديانوس

قسوةً لا مثيل لها جرّت عليه كراهة المصريين وحنقهم حتى ظلوا يرون فيه إلى اليوم مثالا للظلم والاستبداد ، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ ب . م) ويسمي هذا التاريخ عندهم « تاريخ الشهداء» كما هو معروف .

ولما جاء (قسطنطين) (٣١٣ - ٣٣٧ م) اعتنق المسيحية سنة اعتلائه العرش ، فأصبحت المسيحية الديانة الرسمية للأمبراطورية . ولكن المسيحيين في مصر ما كادوا يخلصون من اضطهاد الحكومة حتي وقعوا في اختلافات مذهبية دينية لم يصلوا بعد إلى التوفيق بين بعضها وبعض . وكان النزاع الذى قام بين « أثناسيوس » و«أريوس »على كنه العلاقة التى يمكن أن تكون بين الله وبين عيسى ، أو بين الأب والأبن ، فوق ما له من الأهمية الدينية سبباً لنتائج سياسية غيرت وجه تاريخ الديار المصرية تغييراً كلياً فان العلاقات بين الأمبراطور والشعب الاسكندرى لم تكن سامية يوماً من الأيام . فان هذا الشعب قد ساعد(مكسيمينوس) و(اسينوس) خصميه للدين، ربما كان هذا الحادث الذى دعا الامبراطور الى جعل عاصمته مدينة بيزنطية. ولم يكد تيودوسيس» (٣٧٨ - ٣٩٥) يقبض على زمام الاحكام حتى أصدر سنة ٣٨١ م قراراً يقضى بتنصير الأمبراطورية، فأغلقت الهياكل والمعابد ولاقى الوثنيون فى مصر أثناء ذلك ما لا يقل هولا عما لاقاه النصارى قبلهم . (١)

ولم تكن بين المصريين والروم ما يفرق بينهم من حيث معتقداتهم

---

(١) ملن ص ٩٦

الدينية ، ولكن حصل بعد ذلك ما فرق بينهم في المعتقد لاختلاف المذاهب وقسمهم الى قسمين متفاوتين : يعقوبية ، وملكية .

فاليعقوبية : هم الذين يعتقدون أن الطبيعة الألهية والبشرية في المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة. وعليه فلم يعد إنساناً كاملا ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة .

والملكية : هم الذين يعتقدون أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح .

فاتفق البابا مع القيصر « مرقيانوس » (٤٥٠ - ٤٥٧ م) على عقد مجمع عام في (خالقدونية) سنة ٤٥١ م . فانتهى الأمر بعزل (ديوسقوروس) بطريرق الاسكندرية ومؤسس اليعقوبية وبحطه من كل خدمة كهنوتية وكتب الى جميع مملكته ان كل من يقول بقول ديوسقوروس يُقتل .

وأنفذ مكانه أسقفاً أرثوذكسياً . غير أن الأهلين جاهروا بالثورة ضد البطريرق فاضطرت الفرق الأمبراطورية التي كانت ترافقه إلى الضرب على أيديهم وزج زعماء الثورة في هيكل (سيرابيس) الذى أحرق بمن فيه ، وأبيحت المدينة للسلب والنهب قبل أن يتمكن الأسقف الجديد من الجلوس على كرسي البطريرقية فى الاسكندرية - وعقب ذلك أصدر الحاكم الأوامر المشددة بابطال أيام الأعياد العمومية ، وإقفال الحمامات ، وإلغاء إعانة الغلال (١)

---

(١) ملن ص ١٠١ - ١٠٢

وما زالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لمصائب المصريين - إن قام قيصر ملكى أمر باضطهاد اليعاقبة وإذلالهم - وإن قام قيصر يعقوبي فعل العكس ، والرزايا على كلتا الحالتين تنتاب الرعية . وأشنع ما أصاب المصريين فى هذا السبيل كان في عهد القيصر « يوستينوس» (٥١٨ - ٥٢٧ م) الذى تساهل فى بادئ الأمر منتظراً سنوح الفرصة لحسم النزاع - وقد أنفذ بطريرقا ملكياً إلى الاسكندرية ، فجاهر الاهالى بالثورة ووقعت على أثر ذلك معركة دموية فامتلات الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند، وأحرقت عاصمة الامبراطورية الرومانية الثالثة .

وأقام الأهالى بطريرقاً يعقوبياً ، وانسحب البطريرق الرومانى أو الملكي، ولم تقو القوى الامبراطورية على شد أزره.

لما رأى (يوستنيانوس) أن بغض المصريين لبطارقة الروم قد بلغ أشده ، وأيقن أن التساهل لن يجديه نفعاً ، عول على مقابلة الشدة بمثلها، فأنفذ « أپوليناريس » الى الاسكندرية - فدخل المدينة فى زى العسكرية (٥٥١ ب م) ووزع الجنود المسلحين في الشوارع وأحاط بهم أسوار الكنيسة وأكثرمنهم في صدرها للمحافظة على شخصه . ولما طلع المنبر نزع ثياب الجند ، فظهر لهم مرتديا بثياب بطريرق الاسكندرية . فأخذت الدهشة من الأهلين كل مأخذ وهمّ أپوليناريس يقدّس فانهالت عليه اللعنات من جميع الحاضرين وأخذوا يرجمونه بالأفواه والحجارة . ولم تكن إلا اشارة واحدة من البطريرق حتى داهمت جنوده الأهلين وأعملوا السيف فيهم ، حتى خاض الجند فى الدماء . قال (جبون) : ويقال إنه قتل

بالسيف في هذا اليوم مائتا الف — وكانت نتيجة هذه الموقعة أن انتقلت جميع أملاك الكنيسة في مصر إلى يد حاكم الاسكندرية (١)

والظاهر أن قيصر الروم لما رأى أن يضع حداً لهذا الشجار منح البطريرق مركز الحاكم في مصر حتى يتسنى له تحصيل الجباية وتموين رومة بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام.

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفترون عن إيقاع الأذى بالمصريين. فرفض هؤلاء لغة اليونان وعاداتهم وأصبح كل ملكي فى نظرهم غريباً عنهم وكل يعقوبى منهم. وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم فى المناصب جريرة لا تغتفر.

ولم تكن طاعتهم للأمبراطور وتنفيذ أوامره إلا إرغاما تحت ضغط قوته الحربية.

وكان أقل مجهود يكفى لانقاذ الدين ورد حرية مصر المسلوبة. وقد كان من المتيسر أن تخرج الأديرة (وعددها زهاء ستمائة) عشرات الآلاف من المقاتلين الذين اصبح الموت أحب اليهم من الحياة المفعمة بالبؤس والشقاء، ولكن التجربة قد دلت على العكس، ذلك أن هؤلاء المتعصبين لدينهم الذين كانوا يتحملون آلام (الخازوق) وغيره من آلات التعذيب بلا تأوه سرعان ما كانوا يرتجفون ويولون الأدبار أمام عدو مسلح. فلم تكن لديهم من سبيل للخلاص مما هم فيه الا بقوة أجنبية كقوة خسرو ملك العجم (٦١٥ - ٦١٧ م.) التى أنقذت اليعاقبة من نير

(١) ملن ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ ولين پول ص ٢ ؛ وجبون ج ٨ ص ١٠٧ .

الروم ردحاً قصيراً من الزمن انتصر بعدها هرقل (٦٢٧ م .) على العجم وجدد الفظائع وزاد عليها ، ففر البطريرق بنيامين الى الصحراء .

الا أن صوتاً قوياً أمره عند فراره « انتظر » حتى اذا ماتم عقد عشر سنوات سارت نحو بلادهم قوة أجنبية لخلاصهم مما حل بهم من الظلم وما حاق ببلادهم من الفقر : وهذه القوة هى جند العرب . (١) اه بتصرف

هذا مجمل حال المصريين الدينية سيما فى القرن الذى كان قبل الهجرة ، فقد كان أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولا . أصابهم فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصبهم من القياصرة الوثنيين .

وكانت هذه الرزايا سببا لكراهة المصريين حكم الروم عليهم وتشوقهم الى الخلاص من هذه النكبات . وكان بنيامين هذا ممن يبغضون الروم بغضاً شديداً ، وذلك أن (هرقل) لما قدم الى مصر بعد هزيمته للفرس طلب (بنيامين) ليقتله فلم يظفر به لفراره ـ وظفر بأخيه «مينا» فأحرقه بالنار عداوةً لليعاقبة ، لذلك لما ورد المسلمون مصر كان (بنيامين) هذا يكتب الى من في طريقهم من الأقباط ألا يهتموا بدفع العرب ولا حربهم . فكان عمرو لا يدافع أثناء مسيره من الفرما إلى بابليون إلا بالشئ الخفيف .

يعلم مما تقدم ، كم عانى المصريون من المحن والاهوال فى سبيل معتقداتهم الدينية .

---

(١) جبون ج ٨ ص ٣٠٠

(ب) الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سـنة ٣٠ ق . م فأصبحت كملك خاص للامبراطرة ، وفى عهدهم تحولت العناية الى الزراعة فكانت كأنها مخزن غلال لرومة تفي بحاجتها من الحبوب ، فدرست آثارها وانحطت درجة العلم التى كانت بها .

وكانت الدولة الرومانية وثنية النزعة ، وفى عهدها دخل الدين المسيحى مصر كما ذكرنا فقاسى أتباعه الشدائد والمحن . وقد انتهت هـذه الدولة (وهي الدولة الرابعة والثلاثون) بقيام طيوروسيس (٣٧٨ — ٣٩٥ م) وتقسيمه المملكة الرومانية بين أولاده سنة ٣٩٥ م . (١)

ومن عهد هذه الدولة (وهي الخامسة والثلاثون) انتشرت الفتن الدينية . وكان أفظع الفتن التى حلت بمصر فى القرن الذى قبل الهجرة ، ففيه تفاقم النزاع بين الملكية واليعاقبة .

وكثيراً ما سببت هـذه الفتن النحس للأهالى فقد زاد القيصر (نيرون) المال المقرر على البلاد المصرية فأصاب الأهالى من جراء ذلك محن ثقيلة ، فكثرت الفتن وظهر العصيان وقام الأهالى فى الأزقة والحارات

---

(١) نقل قسطنطين عاصمة الدولة من رومة الى (بيزنطية) سنة ٣٣٠ م ، وسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إلى قسطنطين الاكبر . وبعد وفاة قسطنطين قسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ثم اتحدت ثم انقسمت مرة أخرى إلى ان تم تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥ م . إلى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتها رومة والشرقية وعاصمتها القسطنطينية

وكثرت الحرائق فى كثير من الجهات واضمحل الأمن فى القرى وكثر قطاع الطرق ، ولم يكن لكل هذه البلايا من سبب سوى الاختلافات الدينية .

كانت مصر محرومةً من الحقوق الرومانية ، وقد منع أغسطوس الأسكندريين من الوصول إلى هيئة مجلس الشيوخ فوقف ذلك المنع حجر عثرة أمام كل كفاءة تسمح لهم بتقلد الوظائف الرومانية العالية في إدارة المالية والنيابة عن العامة والقضاء والقنصلية ، إلا أنه فى عهد سبتيم سيفير (١٩٢ — ٢١١ م) منح الاسكندريون مجلساً للشيوخ وأنشأ الأمبراطور مجلساً بلدياً في بعض مدن أخرى . وبهذه المنحة خفف على المصريين ذلك الضغط فأصبح فى الاسكندرية نواب وتبوأ اسكندريون في رومة مقاعد أعضاء مجلس الشيوخ . وفتح تبعاً لذلك الوصول إلى الوظائف العالية التى كانت محرمة على الاسكندريين الحاصلين على الحقوق السياسية الرومانية .

وقد حدث انقلاب أشد خطورة من الانقلابات التى حصلت من قبل حين أعطي (كراكلا) جميع رعايا الدولة الحقوق الوطنية ، فشمل هذا المنح المصريين ، إلا أنهم لم يمنحوا سلطة عليا ولم يسند إليهم عمل مما يمهد لأعضاء مجلس الشيوخ .

فتحت أمام الأسكندريين أو بالحرى اليونانين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان أبواب المناصب العالية بينما حرم غيرهم من المصريين الوصول إلى هذه الوظائف ، مما قضى عليهم بالضعف والخمول

وزاد سخط المصريين على الحكم الروماني ، بينما رفعت عن عواتقهم (اليونان) بعض الضرائب مما كان يدفعه المصريون، وقدزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة فاحشة حتى لم يعد شئ من الاشياء يخلو من ضريبة مفروضة عليه .

وقد أثقلت هذه الضرائب كاهل الناس فقد شملت كما قال المؤرخ (ملن) الأشخاص والأشياء . فكانت على الرؤوس والصناعات على اختلاف أنواعها ، وعلى الماشية والأرضين ، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع بل كانت تجبى على المارة رجالا ونساء ـ تجارا وغير تجار ـ وما معهم من سائر الاشياء حتى الموتى. ومن صناع السفن، ومن العاهرات، ومن زوجات الجنود ، وعلى تذاكر المرور ، ولختم التذاكر ، وعن أثاث المنازل ، وعن شراعات السفن ، وعلى الصارى ، وعن كل جنازة تخرج إلى الصحراء. ولم يقتصر الأمر على هذه الضرائب التي كانت تدفعها الأهالى الذين أصبحوا في شر ما يكون من الفاقة بل كانت هنالك تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون ، وأخصها إيواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم فى الكور ، وتقديم ما يلزم لهم من الحاجيات وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك إتمام سفراتهم . ولقد أثقل هؤلاء الموظفون على الأهالى وحملوهم من الكلفة ما أنوا منه كثيراً . وفى السنين الأخيرة من الحكم البيزنطي كان على المصريين أن يقوموا بغذاء الجنود (١)

وكان للانقسامات الدينية التي حدثت فى الكنائس المسيحية في مصر

---

(١) ملن ص ١١٥ ـ ١٢٥ بتصرف واختصار

أهمية سياسية لا يستخف بها ، فقد كانت هذه الاختلافات الدينية فاتحة للاختلافات الكثيرة التي انتهت بفصل كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينية، وكان من نتائجها ضم السلطتين الروحية والزمانية في شخص (أپوليناريس) المتقدم ذكره . وكان من نتائج الاختلافات الدينية التي قامت بمصر دخول هذه البلاد تحت حكم الفرس فترة قصيرة من الزمن ثم تحت حكم العرب وضياعها من الروم إلى الأبد . (١)

حالة مصر ازاء ما كان بين الروم والفرس فيها

هدد الفرس الروم أثناء القرن السادس كله ، وظلوا يتقدمون نحو حدود الدولة الرومية في جموع كثيفة . وشعر الناس بخطورة هذا التقدم في البلاد المصرية في الوقت الذي آل فيه الملك لهرقل (٦١٠ـ ٦٤١ م) فان الجيوش الفارسية بينما كانت تتقدم نحو الغرب كان أهل سورية وفلسطين يغادرون أوطانهم زرافات ووحدانا فراراً من وجه المغيرين ملتجئين إلى مصر ، ولما وصل الاعتداء إلى الدلتا وأغاروا عليها آوى المهاجرون إلى الاسكندرية للاعتصام بها ، فلم تلبث تلك المدينة أن اكتظت بشعوب مختلفة لا مرزق لها إلا ما يجود به أهل الخير من الصدقات ، فكان من الصعب لكثرتهم تدبير أمر غذائهم في وقت قد تهددها فيها القحط عقب سنة قل فيها المحصول بحيث أصبح غير كاف لغذاء الوطنيين أنفسهم ، فلم ير القائد الرومي « نيكيتاس »

---

(١) على أن كل هذه الآلام لم تكن قاصرة على المصريين إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الأمبراطورية ، وهي من الأسباب التي سهلت سقوطها وفتح العرب إياها .

بدأ من ترك مصر للفرس سنة ٦١٥ م . (١)

استولى الفرس على مصر فرحب بهم المصريون ورضوا عن طيب خاطر بحكمهم ، ولم ير الفلاحون وهم السواد الاعظم من السكان فى ذلك إلا تغييراً في شخص الحاكم . ويقول « ملن » ص ١٤٤ انهم فضلوا حكومة شرقى على حكومة اغريقي . ولا وجه لهذا الاحتمال بالنسبة للمصريين إذا عرفنا أنهم قاسوا الامرين من حكومة الروم واشتدعليهم البلاء من فداحة الضرائب واستبداد الحكام ، فرأوا ان حكم الفرس قديكون أخف وطأة من حكم الروم .

وفى أثناء حكم الفرس لم يكن في مصر من الامور ما يكدر صفاء المصريين بعد أن أطلقت حرية معتقداتهم التى جرّت عليهم المحن والأهوال فى غضون حكم الروم ، فعين في عهدهم البطريرق (بنيامين) بطريرقا للديار المصرية فأذعن لسلطانه اهل البلاد قاصيها ودانيها فتمكن من ارجاع الكنيسة الى حالتها القديمة من حيث النظام والعظمة وعاش فى الاسكندرية آمنا مطمئناً أثناء حكم الفرس .

غير ان حكم الفرس لم يدم في مصر اكثر من عشر سنوات ، فان قيام العرب بعد أن جمع الاسلام كلمتهم ، حرم الدولة الفارسية من خيرة جنودها ، وهيأ الفرص للروم لاسترداد بعض اقاليمهم المفقودة في الشرق ، فقد سار « هرقل » مخترقا البلاد السورية الى مصر وطرد أعداءه الفرس فغادر البلاد معهم البطريرك بنيامين الذى كان قد جلس على كرسيه .

---

(١) ملن ص ١١٣-١١٤

فمكّر طمأنينة المصريين طردُ الفرس من مصر وعودة الروم اليها ، فعقد بنيامين مجمعاً عاماً للقسس والرهبان وأوصاهم بالصبر والجلد والاعتصام فى الجبال ، ثم هرب فى كنف الليل الى وادى النطرون (١) ومن ثم عادت مصر الى حكم الروم وتولدت الاختلافات الدينية من جديد ، فاتخذها هرقل وسيلةً لاضرام نيران الحقد والانتقام التى كانت تتأجج فى صدره من جراء ترحيبهم بالفرس ورضائهم حكمهم (٢) ، فاحلّ بهم هرقل كل صنوف الظلم والاضطهاد لقبول مذهب خلقدونيـة ، ومن أبى عُذب وضرب بالسياط حتى الموت

وانا ذاكرون حادثة « مينا » أخى « بنيامين » فقـد مثلوا به اشنع

---

(١) بطلر ص ١٨٤

(٢) يخالف بطلر (ص٨٣ ـ٨٧) بعض المؤرخين مثل « شارب » و « ملن » فى ذلك ويقول ان المصريين لم يرحّبوا بالفرس بل بالعكس لاقوا الأمرين من حكمهم لأنهم اجهزوا على الاسكندريين وقتلوا الآلاف من الأهلين في الوجهين القبلى والبحرى ـ وبرهن على صحة دعواه بالاشارة الى ان « الانبا شنوده » قد تنبأ بما سوف يحل بالاهلين من جراء غزوة الفرس . وان خلف « الانبا شنوده » قد أثبت هذا التنبؤ عندما كتب تاريخ حياة سلفه . وان الراهب « بيز نطيوس » فر من وجه المغيرين بالوجه القبلى وأعلن استياءه الشديد لماحل ببلاده من المصائب وماحاق بقومه من الظلم . ونحن نسـتبعد ذلك لأن الفرس لم يتعرضوا لديانة المصريين ، فأثبتوا بطريرقهم . وبعد وفاته عينوا (بنيامين) خلفا له . ولم يتعرضوا لشيء من المبانى بل زادوا عليها .

تمثيل حيث أوقدوا المشاعل واحرقوه بها حتي تساقط الدسم من جنبيه على الأرض ، ولما وصل به التعذيب الى هذا الحد لم يزدد إلا اعترافاً بمذهبه فاقتلعت أسنانه ، ثم وضع فى حقيبة ملأى بالرمل وحمل الى الشاطئ ، وعرضت عليه حياته ثلاث مرات اذا اعترف بمذهب خلقدونية فابى ثلاث مرات ، فاغرق فى البحر (١) . وهكذا أصبح قتل البطارقة علما يعرف به الروم .

وبعد هذه الشدة التى دامت عشر سنين أصبح كل أمل فى الصلح والسلام بين الفريقين محالا ، وقد علم المصريون بانتشار الاسلام وقيام العرب وفتحهم الشام فتمنوا الخلاص مما هم فيه على أيدى المسلمين ، وظنوا أن قدومهم مصر إن هو الاوباء أنزله الله لأعدائهم الروم الظالمين (٢) . والى هذا الحد المحزن ساء حكم الروم فى مصر ، فهيئوا بذلك للعرب الأسباب لفتح هذه الديار التى نقم أهلها على الحكم الرومي وودوا الخلاص منهم،وبهذا أتيح لعمرو بن العاص فتح مصر بجيشه القليل

من هذا يعلم أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية ، وأصبحت أبعد ما تكون من الاعتماد على نفسها أو محاولة التخلص من الأجنبي ، واقامة حكومة وطنية ، وانما كان كل ما ترجوه هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه . فسوء سيرة الروم ، وضعف المصريين كانا كما سنرى من أهم الأسباب التى سهلت على عمرو فتح مصر ولننظر كيف سلك عمرو سبيله الى هذا الفتح .

---

(١) بطلر ص ١٨٤ (٢) بطلر ص ٢٩١

الباب الثانى

عمرو وفتح مصر

(١) كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر وكيفية مسيره اليها

لما كانت سنة ثمان عشرة (١) من الهجرة (٦٣٩ م) وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص فخلا به فقال: يا أمير المؤمنين إئذن لى أن أسير الى مصر، وحرضه عليها إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن الى ذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك (٢) ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال عمر: سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتى كتابي اليك سريعاً ان شاء الله تعالى، فان أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره: فسار عمرو في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس،

---

(١) يقول ابن الاثير (جـ٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (جـ٢ ص ١١٤) ان عمرو بن العاص سار الى مصرعقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ أوسنة ٢٥ من الهجرة وهو خطأ، بدليل التخبط الظاهر فى ذكر السنين

(٢) عك بلد فى اليمن واسم قبيلة أيضاً

من العريش لتنيس
للدكتور حسن ابراهيم حسن
رسمه وحققه الاستاذ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢

البحر الأبيض المتوسط

« هي اسو ثلسة »

جبل كاسيوس
سبخة بردويل
سربونيس
بئر المساعيد
طريق الفتح
رءوس الأدراب
بئر العبد
عفين
قطية
فرما
الفرع التنيسي
الفرع الطيني البيلوزي
حصين محرب
رملة الغرابي
ابو الاصب
بور سعيد
العريش
ديرسان

واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك . فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح . اه (١)

ونحن نستبعد مسير عمرو في نفس اليوم الذى أذن له فيه عمر ، لأن عمرو بن العاص لم يسر إلى مصر إلا بعد فتح قيسارية وهزيمة قسطنطين ، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس بأكثر من سنة .

وقد أخرج ابن عبد الحكم والمقريزى أن عمرو بن العاص كان بفاسطين ، فتقدم عمرو وأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فلما فقده أمراء الاجناد واستنكروا الذى فعل ورأوا ان قد غرر رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب . ثم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر : كتبتُ إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام . فقال عثمان يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرؤ وفيه اقدام وحب للامارة . فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا . فندم عمر بن الخطاب على كتابه الى عمرو اشفاقاً مما قال عثمان . فكتب اليه : إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فأمض لوقتك . اه (٢)

ولا ريب أن مسير عمرو بن العاص كان بأذن أمير المؤمنين عمر بن

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص٥١ ؛ **الخطط للمقريزى** (ج١ ص٢٨٨) ؛ كتاب الولاة والقضاة للكندى ص٨٧ ؛ وحسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى (ج١ ص٤٦)

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٢ ؛ ايرفنج ص ١٠٧

الخطاب ، ونحن نؤيد الرواية القائلة بأن المسير كان عند أمر أمير المؤمنين . ونرى أن عمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص بالمسير لفتح مصر . فلما علم عمر بمسير عمرو ندم بعد أن أبان له عثمان حرج مركز عمرو لقلة من معه فيعرض المسلمين للهلكة ، وكان عمر أحرص الناس على حياة المسلمين كما هو معروف .

لم يكن عمرو بن العاص من البساطة والبله بالمكان الذى يدفعه إلى تخطي أمر الخليفة والافتيات عليه فيركب المركب الوعر باقتطاع فريق من جند المسلمين بلا عهد من الخليفة ، يزج بهم في بلاد مترامية الأطراف ويهجم بهم على بلاد مصر ـ وما كان جند المسلمين الذى يطيع أميراً لم يؤيده الخليفة ولا بالذى يتوجه إلى بلاد بغير أمر من الرئيس الأعظم ـ ولو فعل عمرو ذلك لوجد من عمر سلطاناً يحسن تأديبه ويرده الى الطاعة والجماعة . ولم يرد فى أى تاريخ عبارة أو اشارة إلى غضب عمر عليه فى افتيات كان منه .

أدرك الكتاب عمراً وهو برفح فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من أرض مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين . فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى . قال : فان أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى أن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتي دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه .(١)

---

(١) معجم البلدان لياقوت ما والخطط للمقريزى (ج١ ص٢٨٨)

والذى نراه أن عمر بن الخطاب لم يكشف لرجال شوراه نيته فى فتح مصر إلا بعد مسير عمرو ، فلما علم عثمان بذلك حذر عمر سوء عاقبة مسير عمرو بجيشه القليل ، فكتب اليه عمر كتابه الآنف الذكر ووعده بامداده إن كان قد دخل أرض مصر . وكان عمرو يوجس خيفة من أن يكون الكتاب يصرفه عن وجهه ، فدافع الرسول حتى يكون بأرض مصر ويوجد له العذر إذا مضى لطلبته

والذى يثير العجب أنه كيف جرأ عمرو بن العاص على المسير إلى أرض مصر بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يهزم بهم جند الروم؟ سؤال يسهل الجواب عليه اذا علم الانسان أن عمرو بن العاص كان محباً للأمارة ذا نفس عالية لا ترضى الا الجليل من الأعمال مهما قام فى سبيلها من العقبات ـ يدلك على ذلك ما قاله عثمان رضى الله عنه « ان عمراً لمجرّؤ وفيه اقدام وحب للأمارة »

وقد بلغ من حب عمرو للأمارة أنه حين أراد أن يعقد أبو بكر الألوية لحرب الشام كلم عمرو بن العاص عمر بن الخطاب أن يخاطب أبا بكر فى تأميره على جيوش المسلمين بدل أبى عبيدة ،وقد قدمنا أن عمراً كان أميراً على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وغيرهم أيام النبى صلى الله عليه وسلم .

قال رفيق بك العظم في كتابه « أشهر مشاهير الأسلام » :

ومن تصفح تاريخ حياة عمرو بن العاص ووقف على أعماله سواء في الفتح والأمارة أو فى دخول غمار الفتنة علم أنه رجل فذّ قلّ أن تنجب بمثله الأمهات لولا طمع فيه ربما أوخذ عليه أحياناً . على أنه لم يكن في

دنيات الأمور ، بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا. وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب فى تدويخ أرض الفراعنة بجيش يقلّ عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يقهر به أمة يربو عددها عن عشرة الملايين ! وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها . اهـ (جـ ٢ ص ٥٧٤)

والذى نراه أيضاً أن عمراً انما رغب في فتح مصر لأنه وقف بنفسه على أحوالها عند قدومه اليها في الجاهلية ، وعرف مقدار ثروتها وخيراتها وأيقن أن دولة الروم قد دالت ، وقد تولى جنودهم الضعف واستولى على نفوسهم اليأس ، وان قبط مصر قد ملوا حكم الروم لظلمهم وجورهم . كل هذه الأسباب لم تخف عمراً بل حببت اليه فتح مصر ، أضف إلى ذلك ما جبل عليه من الشجاعة والاقدام ، ودرايته بأساليب الحرب ، وحبه للقتال ، وعلمه أنه سوف ينال الجزاء الحسن من الله عز وجل لانفراده بهذه المأثرة العالية ، مأثرة فتح مصر .

ويرى حضرة أستاذنا « الشيخ عبد الوهاب النجار » أن عمرو بن العاص رأى ما كان من تزجية أبي بكر للجيوش التى وجه بها لفتح سورية على قلتها ، فلما صاروا مع جموع الروم وجهاً لوجه ، تابع عمر بن الخطاب الأمدادات اليهم حتى كثر سوادهم ونالوا الظفر ، فلم يرد أن يثقل على عمر بن الخطاب في أول الامر بطلب جيش كبير يغير به على مصر ، واثقاً بأنه متى صار مع الروم وجهاً لوجه فى أرض مصر واحتاج إلى الجنود بعث بها إليه عمر بن الخطاب على الصعب والذلول ، ولا يمكن أن يخذله . اهـ .

(ب) شروع عمرو فى الفتح واستيلاؤه على العريش :

سار عمرو بن العاص بجنده مخترقا رمال سيناء حتى دخل أرض مصر على نحو ما ذكرنا ، فوصل إلى العريش (١) حيث أدركه النحر فضحّى عن أصحابه يومئذ بكبش (١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ — ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) وفتحها بدون عناء . (٢)

والذى ساعد على استيلاء العرب على العريش أمور منها

(١) عدم منعة حصونها ، والظاهر أنه قد تطاول عليها العهد فوهنت.

(٢) عدم وجود حامية رومانية بدليل أن الحاميات الرومانية هي التى قاتلت العرب وصبرت على قتالها طويلا فى الامكنة الأخرى ، كما سيأتى عند الكلام على قتال العرب بالفرما وبلبيس وأم دنين وبابليون وغيرها .

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن بطريق القبط كان إذ ذاك بالاسكندرية واسمه (أبو ميامين) وهو يخالف ما ذكرناه من قبل أن (بنيامين) قد فرّ من وجه الروم إلى أحد الأديرة ، وأن الروم تعقبوه فلم يظفروا به ،

---

(١) يقول بطلر ص ١٩٧ (نقلا عن كتاب البلدان لليعقوبى) :

ان المسافر من فلسطين الى مصر يسير الى الشجرتين على حدود مصر ثم الى العريش وفى قسم الحدود ، ثم إلى قرية البقّارة ثم الى الورادة الواقعة وسط التلال المرملة ثم الى الفرما ، وهى اول مدينة مصرية يصل اليها ، ثم الى مدينة الجُرير ثم الى جيفة ثم الى الفسطاط

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٣) ؟ الخطط المقريزى (جـ ١ ص ٢٨٩) ؟ حسن المحاضرة (جـ١ ص ٤٦)

بل ظفروا بأخيه (مينا) فقتلوه عداوة لليعاقبة (١)

(ج) استيلاء عمرو على الفرما :

غادر عمرو العريش وما حواليها من حراج النخيل متجهاً نحو الغرب على بعـد من الشاطئ مجتازاً صحراء جرداء يكتنفها في بعض الامكنة قري ومواضع يجرى فيها الماء . وكان هذا الطريق الموصل إلى بلاد مصر منذ الاحقاب المتطاولة هو الطريق الذى سار فيه المهاجرون والفاتحون ، فهو طريق ابراهيم ويوسف وقمبيز والاسكندر ، كذلك كان طريق التجار والسائحين والحجاج فى كل العصور ، بل وطريق القوافل الذى يصل آسيا بأفريقية ـ ولم يشتبك مع جند الروم فى قتال ـ حتى وصل إلى الفرما (بيلوز) وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جـدول ماء من النيل ، وكانت الفرما بمثابة مفتاح مصر ذات أهمية كبرى .

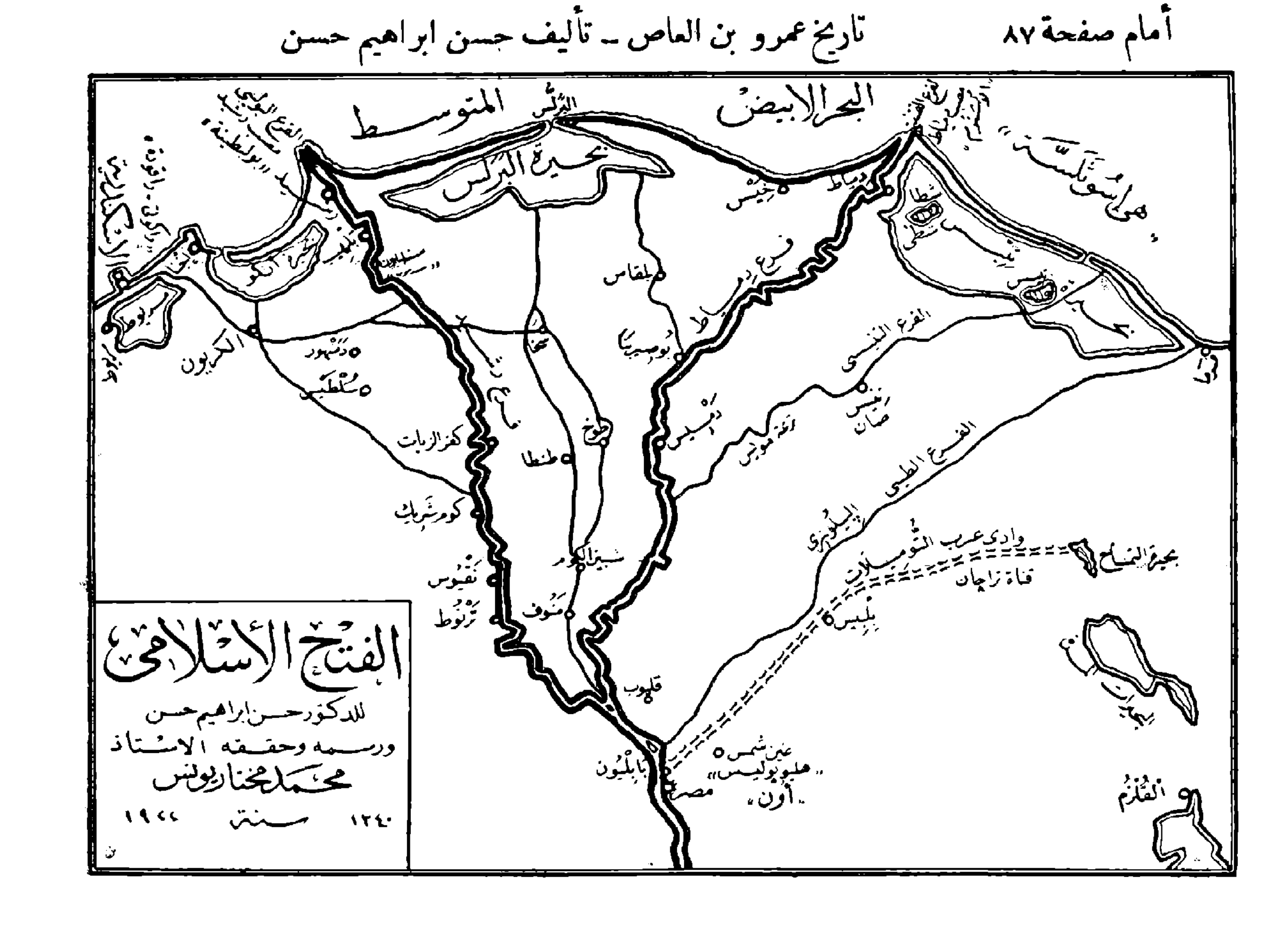
حاصر عمرو هذه المدينة نحواً من شهر(٢) وأخيراً استولى المسلمون على أحد أبواب المدينة ، بينما كان جند الروم مشتغلين برد حملة العرب ، فوقعت المدينة فى أيدى المسلمين.

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٣)

(٢) وقد ذكر ياقوت فى معجمة أن القتال ظل شهرين وهو يخالف ما ذكره المقريزى وابن عبد الحكم والسيوطي وابن الاثير وغيرهم من أن النضال دام نحوا من شهر

أمام صفحة ٨٧ تاريخ عمرو بن العاص ـ تأليف حسن ابراهيم حسن



وكان من المحتمل استيلاء عمرو عليهـا فى أقل من شهر ، لولا قلة جنده . ولم يدم جيش الفرس فى الزمن السابق على حصارها طويلا بعد أن صدّع جوانب أسوارها وخرب معظم كنائسها . ولا بد أن يكون قد رمم الروم ما دمره الفرس أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الاسوار منيعة على المغيرين . لذا نرى أن عمراً قد عمد إلى حصارها ، وبحسن صبر المسلمين وجلدهم تمكنوا من هزيمة الروم والاستيلاء على المدينة .

وكان استيلاء المسلمين على الفرما حوالى منتصف يناير سنة ٦٤ م على ما رواه (بطلر) وكان أول المحرم سنة١٩ ﻫ (يوافق ٢ يناير سنة٦٤٠ م)

وقد ذكر (بطلر) أن المقريزى وأبا المحاسن (الذى نقل من الأول) قرّرا أن القبط كانوا للعرب أعواناً وهم على حصار الفرما . وقد أجاب بأن هذا القول لا أساس له من الصحة . وبرهن على صحة مايقول بما ذكره «يوحنا أسقف نقيوس» من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين الا بعد استيلائهم على إقليم الفيوم ، على أن هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة.اﻫ

وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتي بلبيس ، وتبعد عن مصر بنحو ثلاثين ميلا ، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتي فتح الله عليه ونصره نصراً عزيزاً .

هذا ما ذكره لنا ابن عبد الحكم والمقريزى وغيرهما من المؤرخين المشهورين عن استئناف مسير عمرو من الفرما إلى بلبيس واستيلائه عليها . وهو كما لا يخفى قول مقتضب يحتاج الى كشف الطريق الذي اجتازه عمرو وهل هو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل ، أم هو غير هذا الطريق؟

وما هي المدن التى مر عليها عمرو واستولى عليها فى طريقه ؟

هذا ما أردنا ان نقف عليه ، وقد كفانا « بطلر » مؤونة البحث الكثير فنقول:

ومن هذه البقعة الريفية المغطاة بالملح التي تحيط بالفرما ، مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت إلى رمال حتى وصل الى مجدل (١) نحو الجنوب والغرب ، ومن ثم الى الجهة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس حيث يتغطي سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صاب ، وفي خلالها بقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب .

ثم أخذ في السير الى الصالحية أو القصاصين ، ومن ثم اتجه منحرفاً نحو الجنوب مجتازاً تلال وادى الطميلات (٢) (رأس الوادى) على مقربة من التل الكبير الآن وقريبا من بلبيس

وقد اتخذ معظم الفاتحين الاقدمين طريقا غير هذا مثل قمبيز الذى سار من الفرما متجها نحو الغرب الى سنهور وتنيس (صان) ، ومن ثم الى بلبيس ، ولكن فى هذا الوقت (أى حين الفتح الاسلامى) انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره إذ لم يكن لدي عمرو وجنده (وكانوا فرساناً) من الوسائل ما يكفل لهم

---

(١) مجدل مدينة قديمة تلى الفرما وواقعة فى الصحراء على مقربة من شاطئ البحر

(٢) وموقعه بقرب التل الكبير

إقامة القناطر والجسور .

ويرى أن عمرا لو اتخذ غير الطريق الذى اتخذه لنفدت قوته قبل أن يصل الى حصن نابليون وهو بيت القصيد ، لأن هذا مما يعيق سيره ويتطلب بذل مجهود كبير للاستيلاء على المدن واحدة فواحدة ، وترك قوة في كل منها حتى لا يقطع الروم عليه خط الرجعة لو أرغم على الارتداد .

وقد كان الارطبون (١) قائد الروم فى بيت المقدس بالامس قائدهم فى بلبيس اليوم . ولا بد أن يكون قد عول على الثبات والمقاومة ما استطاع الى ذلك سبيلاً . أراد أن يوقع داهية الروم بالعرب ويهزم داهيتهم عمراً ، فأخذ المسلمين على غرة وداهم معسكرهم فى جنح الليل ، ولكن أبى الله إلا هزيمة الأرطبون حيث قطع المسلمون قوته إرباً ، ولكن ما فتئت بلبيس ممتنعة على عمرو شهراً كاملاً لم ينقطع فيه القتال حتى استولى عليها بعد أن لحقت بجنده بعض الخسائر ، ولكن خسارة الروم كانت فادحة إذ قتل منهم ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف ، وكان ذلك سنة ٦٤٠م وسنة ١٩ هـ . وبهذا أصبح عمرو على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا .

(هـ) استيلاء عمرو على أم دنين (٢)

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس تقدم حتى أتى (أم دنين) شمال بابليون.

---

(١) وقد فر الأرطبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب .

(٢) أم دنين (بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون): موضع بمصر ذكر فى اخبار الفتوح — قيل هى قرية كانت بين القاهرة والنيل إختلطت بمنازل ربض القاهرة . وكان اسمها قبل الفتح « تندونياس » التى سماها العرب فيما بعد المقس، وقد ذكر هذا الاسم الرومانى « بطلر » نقلا عن «يوحنا اسقف نقيوس »

وقد ذكر هذا الموضع كل من ياقوت والمقريزى وابن عبد الحكم ، أن أم دنين هى المقس وكانت واقعة على النيل ، وتقع فيها حديقة الازبكية الآن تقريباً (عند جامع أولاد عنان) وفى هـذه الجهة نشب القتال بين المسلمين والروم . وكان هؤلاء قد أعدوا للقتال عدته وعولوا على الثبات في هـذا الموقع الحصين بما فيه من المرفأ والسفن مما جعل له الأهميـة الحربية العظمى .

وقد احتدم القتال بين الفريقين عدة أسابيع وأبطأ على عمرو الفتح ، فكتب الى أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده فأمده باربعة ألاف مقاتل ، وفيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقـداد بن الاسود ومسلمة بن مُخَلَّد (١)

وقد كان مركز عمرو حين حصاره لأم دنين من أحرج المراكز ، إذ استولى اليأس على قلوب المسلمين لمن كان يقتل منهم كل يوم . أجل كبّد المسلمون الروم الخسائر الفادحة ، ولكن كانت خسارة المسلمين كبيرة

---

(١) كان الاربعة القواد العظام الذين اعتبر عمر كلا منهم بألف رجل : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، من نخبة الصحابة رضى الله عنهم . وممن شهد فتح مصر من الصحابة أيضاً غير عمرو بن العاص ؛ خارجة بن حذافة ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب ؛ وقيس بن ابى العاص السهمى ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ؛ وشرحبيل بن حسنة . وابناه عبد الرحمن وربيعة ، ووردان مولى عمرو بن العاص ، ومحمد بن مسلمة الانصارى وأبو الدرداء ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغيرهم من مشاهير الصحابة وصناديد العرب .

لقلتهم ، وخسارة الروم قليلة بالنسبة لكثرتهم ، وإن كانت في نفسها عظيمة. لهذا بعث عمرو الى عمر يلح في ارسال المدد على جناح السرعة ، ولبث يتحين قدومه على غير جدوى .

قال « بطلر » : فرأى عمرو أن يحول وجهه شطر الفيوم فيستولى على هذا الاقليم اهـ

ولكن لم تكن همة عمرو العالية وعزيمته الماضية بالتى تتأثر الى هذا الحد ، فآلى على نفسه أن لا يجعل لليأس سبيلا الى قلبه ، فلا يطمع العدو فيه ، فقوى نفوس المسلمين ، ولم تكن الا عشيةً أو ضحاها حتى اقتحموا الحصن وغلبوا الروم على أمرهم واستولوا على سفنهم التى أفادتهم بعد فائدة تذكر .

(و) عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس

إضطربت كلمة المؤرخين في ترتيب وقائع الفتح الأسلامى لمصر اضطرابا لا يقل عنه في ترتيب وقائع الشام ، وأغفل بعضهم ذكر بعض الوقائع الهامة ، ومن ذكرها منهم فقد مرّ عليها مسرعاً بطريقة لا تشفى الغلة ولا تكشف اللثام عن كنه الحقيقة ، ولا يتيسر لنا بذلك الأقرار بصحة ما ذكروه أو دحض ما قالوه ، وللاسف لم يقتصر هذا الامر على مؤرخي العرب فحسب ، بل تعداهم الى غيرهم من الفرنجة . ولكنه عند هؤلاء أخف وطأةً منه عند العرب وقد رأينا أن نأتي بما ذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن ترتيب هذه الوقائع ، ثم نأتى برأينا ونؤيده بالاسباب التى حملتنا على هذا الأقرار . وليكن كلامنا على غزو الفيوم وواقعة عين شمس

اللتين هما جوهر الخلاف بين المؤرخين فنقول :

من المؤرخين من ذكر وقائع مصر على هـذا الترتيب : العريش. الفرما . بلبيس . أم دنين . بابليون . وهم ابن عبد الحكم والمقريزى والسيوطى. والظاهر أن هؤلاء استقوا تواريخهم من مصدر واحد وهو ابن عبـد الحكم (وهو أقدم مؤرخي مصر) إذ العبارة واحدة لا تختلف حتى فى اللفظ — وزاد عليهم (بطلر) أن غزو الفيوم وموقعة (هليوپوليس) كانتا قبل حصار بابليون أو قصر الشمع .

وقـد ذكر الواقدى ورفيق بك العظم هذه الوقائع على الترتيب السابق عدا واقعة أم دنين فقد أغفلت .وكذلك واقعة عين شمس .

وذكر الطبرى وعنه أخذ ابن خلدون الوقائع مرتبة على هـذا النمط : الفرما . بلبيس . عين شمس . قد زعما أن استيلاء عمرو على عين شمس حيث كان جمع الروم (والذى نراه انهما يقصدان بابليون) ومنها أرسل أبرهة بن الصباح الى الفرما ، وبعث عوف بن مالك الى الاسكندرية في آن واحد ، وهذا خطأ كما سيظهر من أن عمراً هو الذى توجه بنفسه الى الاسكندرية عقب حصار حصن بابليون ، ومع ذلك فلايبعد أن يكون قد أرسل بعض الجنود لمشاغلة الروم قرب الأسكندرية وليمنعهم من إرسال المدد الى بابليون . وان كنا لم نعثر فيما رأيناه من التواريخ على رأي يؤيد ذلك . ولم يذكر (ايرفنج) و (موير) غـير واقعتى الفرما وبابليون . وأطلق الاخير منهما على واقعة بابليون ـ (هليوبوليس) كما فعل الطبرى وابن خلدون .

يعلم من ذلك مبلغ اختلاف هؤلاء المؤرخين ومن سار على أسلوبهم، وإذا وفقنا بين ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه، وبين (بطلر) (عدا غزو الفيوم) أصبحت وقائع الفتح الاسلامى مرتبة على هذا الترتيب : —
العريش . الفرما . بلبيس . أم دنين . هليوبوليس . قصر الشمع .
والآن نتكلم بايجاز عما ذكره (بطلر) عن غزو الفيوم وواقعة عين شمس . ثم نؤيد رأينا بالبراهين الدالة على صحة ماذكره « بطلر » أو دحضه فنقول :

(١) غزو الفيوم (١)

لما استولى عمرو على أم دنين الواقعة على النيل أصبح تحت إمرته سفن كثيرة، ولما رأى أن مامعه من المقاتلة لايكفى لفتح حصن بابليون ولم يكن قد وصل اليه المدد بعد، أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج في القوارب الى الفيوم ماراً بمدينة « منف » الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل تجاه حصن بابليون فاستولى عليها، واستأنف مسيره حتى صار على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم على مقربة من مدينة اللاهون

---

(١) قال « بطلر » مؤيدا قوله بما نقله عن يوحنا اسقف نقيوس الذى يعتبره اكبر حجة فى سرد ووصف وقائع فتح مصر : ولاريب كما يلوح لى أن غزو الفيوم حدث فى الوقت وعلى الترتيب الذى ذكرته وأن هذا الترتيب لم يذكره أى مؤرخ من مؤرخى العرب اه . وهذا حقيقى كما يظهر مما ذكرناه عند كلامنا على اختلاف روايات المؤرخين فيما يتعلق بترتيب الوقائع ـ وهذا يخالف ماذكره السيوطى (حاص ٦٢) اذ عمرو بن العاص لم يتم له فتح الفيوم الا بعد سنة، وكذلك البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) فانه ذكر ان الفيوم والوجه القبلى عموما قد فتحت بعد استيلاء العرب على حصن بابليون

الواقعة على بحر يوسف حيث عسكر بها الروم .

فتقدم عمرو إلى البهنسا واستولى عليها فاقتفى « يوحنا » قائد الروم أثره بقوة صغيرة مؤلفة من خمسين مقاتلا من الروم لاستطلاع حركات المسلمين على أن هـذا القائد شعر بخطورة مركزه فعرج على معسكره فى « أبواط » (١) فأدركه عمرو وقتل الروم فى هذه الجهة عن آخرهم .

لا يمكننا أن نفهم ما يقوله « بطلر » من أن عمرو بن العاص يزاول موقعه ويترك البلاد التي افتتحها ورسخت أقـدامه فيها ويترك العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ويذهب الى الفيوم والبهنسا، وإذا كان فعل ذلك فأى مانع للروم من أخذ هذه البلاد وإعادتها إلى حكمهم وشحنها بالمقاتلة وقتال المدد الذى يأتى الى عمرو عن كل شبر من الارض، فيفت ذلك في عضدهم . على أن حـدوث وقائع البهنسا ونحوها من بلاد الصعيد لم نقف عليه فى كتاب يقام له وزن . والذى يغلب على ظننا أن « بطلر » وقف على بعض القصص الموضوعة على الخيال . فذكر البهنسا ووقائع المسلمين فيها ورأى العامة من المسلمين يعتقدون أن لهم شهداء، فلم يجد طريقاً للجمع بين الأخبار الصحيحة وبين ذلك إلا بأن يذكر ذهاب عمرو بجنـده الى الفيوم

والذى يكاد يكون اعتقاداً لنا أن الشهداء بالبهنسا إنما هم شهداء الاقباط الذين قتلوا فى عهد الاضطهاد . فلما غلب الاسلام وكان اسم الشهـداء غالباً دعوهم بغير سلطان أتاهم .

---

(١) يقول أمليتو : ان هذه المدينة بمديرية بني سويف قريبة من بوصير وواقعة شرقي حجر اللاهون تماماً .

ولما سمع « تيودور » قائد الروم بما حل بجنده في هذه الواقعة سقط فى يده واستدعى جميع جند الروم من كافة أرجاء الديار المصرية ليعزز بهم حصن بابليون، وفي هذا الوقت انسحب عمرو من البهنسا مركز قيادته من غير أن يتغلب على مدينة الفيوم (١) ولكنه تمكن من ضرب الروم فى عدة وقائع وأمن الاخطار التى قد تحدق بهلوبقى فى أم دنين حيث شغل جيشه فى مكان أبعد خطراً ريثما يأتى اليه المدد . وسار عمرو فى النيل على جناح السرعة ليلحق بالمدد الذى علم بدنوه من عين شمس حيث التقى بأربعة آلاف مقاتل (٢) مدداً من عمر بن الخطاب وعليهم الزبير بن العوام .

وقد ابتدأت غزوة الفيوم على ما ذكره « بطلر » فى نحو أوائل

---

(١) بطلر ص ٢٢١ ـ ٢٢٩ باختصار

(٢) اختلف المؤرخون فى هذا العدد . فذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا اربعة آلاف تمام ثمانية آلاف وعنه اخذ (جبون) وأخرج ابن عبد الحكم أيضا ان عمر بن الخطاب بعث الزبير بن العوام فى إثنى عشر ألفاً وذكر السيوطى والمقريزى أنهم كانوا أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بمقام ألف بحيث أصبح جيش عمرو على هذا الزعم إثنى عشر ألفاً . وذكر البلاذرى أنهم كانوا عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً . وقال ياقوت : وقيل إن المدد كان اثنى عشر ألفاً . وذكر الكندى والسير (وليم موير) أن جند عمرو أصبح بعد وصول المدد خمسة عشر ألفا وخمسمائة وذكر « يوحنا اسقف نقيوس » ان المدد كان أربعة الاف . ولا يمكننا الاهتداء الى رأي قاطع لاختلاف هذه الروايات ، انما نرجح أن المدد لم يزد عن أربعة آلاف ، اذ لا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر بأربعة آلاف مقاتل ثم يمده عمر بضعف هذا العدد . وربما بلغ المدد إثني عشر ألفاً بالتدريج .

مايو سنة ٦٤٠ م ، واستغرقت عـدة أسابيع كانت نتيجتها فى مصلحة المسلمين . وفى ٦ يونية وصل المدد الى (هليوبوليس) أو عين شمس التي اتخذها عمرو مركزاً لقيادته ، وشرع يعد للموقعة الدانية عدتها .

(٢) واقعة هليوبوليس :

أما «تيودور» قائد الروم فقد عوّل على أن يسير بعشرين ألفاً من جند الروم يريد أن يزحزح بهم جند المسلمين عن (هليوبوليس) ، على أن هذا الرأى كان ولا ريب فى مصلحة عمرو بن العاص الذى رغب في أن يشتبك مع الروم فى العراء حيث يسهل عليـه كسرهم أكثر مما لو تحصنوا فى فى حصن بابليون المنيع . فزحف « تيودور » على عين شمس فوضع عمرو كمينا فى موضع خفي من الجبل الاحمر(١) وآخر في النيل قريباً من أم دنين ولاقى (تيودور) بالفريق الاكبر من الجيش . ونشب القتال فى منتصف المسافة بين الجيشين تقريباً فى حى العباسية الآن . وقد أيقن الفريقان أن على النجاح في هذا الميدان يتوقف حظ مصر ، فحمي وطيس القتال بين الفريقين ، ولما بلغ أشـده خرجت قوة خارجة بن حذافة من الجبل وانقضت كالصاعقة على ساقة الروم . فاختل نظام جندهم وعرجوا الى الغرب نحو أم دنين . فقابلتهم قوة العرب وأصبحوا بذلك بين جيوش العرب الثلاثة التى سحقتهم سحقاً فلم يبق منهم سوى عدد قليل سار بعضهم فى النيل وفر البعض الآخر رجالا الى بابليون (٢)

---

(١) شرقي العباسية

(٢) ستانلى لين پول ص٥ ، بطلر ص ٣٢٠ ــ ٣٢٣

وقد ذكر « تاريخ مصر الى الفتح الاسلامى » المقرر تدريسه بالمدارس الثانوية أنه لم يبق من جند الروم عقب هزيمتهم فى واقعة عين شمس سوى ٣٠٠ مقاتل . وقد أخذ هذا من كتاب (بطلر) الذى يقول: إن العرب المنتصرة استولوا ثانية على أم دنين ، وقد قتل جميع حامية الروم في هـذا الحصن فى المعركة إلا ٣٠٠ مقاتل ، ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره « لين پول » : واحتل المسلمون تندونياس (أم دنين) التى هلكت حاميتها الا ٣٠٠ مقاتل .

لأنه لا يعقل أن يفقد الروم تسعة عشر ألفاً وسبعمائة مقاتل من جندهم ، وعدده لم يزد على عشرين ألف مقاتل .

إعتمد (بطلر) على تاريخ (يوحنا أسقف نقيوس) فيما يتعلق بغزو الفيوم وواقعة عين شمس مرجحاً ما ذكره هـذا المؤرخ على غيره من مؤرخى العرب الذين لم يرد في تواريخهم ذكر لغزو الفيوم ، اللهم إلا ماذكره بعضهم سيما « السيوطى » أن فتح الفيوم لم يتم إلا بعد سنة : أى بعـد حصن بابليون .

وقد استدل « بطلر » على ترجيح « غزو الفيوم » قبـل فتح حصن بابليون بأن عمراً تأكد أنه لا يتسنى له أن يقتحم الحصن بجنـده القليل ، فرأى أن يشغل جنده فى جهة بعيدة الخطر كالفيوم ، فيفت في عضد العدو بانتصاره عليه فى سلسلة وقائع جزئية . على أنه فات « بطلر » أن هذا مما كان يجعل جنـد عمرو فى أحرج المراكز ، إذ يتسنى بذلك للروم أن يستردوا ما استولى عليه عمرو من المدن ، فتضيع منه العريش

والفرما وبلبيس وأم دنين وغيرها ، فيقطعون عليه خط الرجعة . أضف الى ذلك أن مسير عمرو إلى الفيوم كان فى النيل الذى يشرف عليه حصن بابليون ، فيتسنى للروم أن يلحقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم فى النيل . وعلى هذا يضطر المدد لاسترداد هذه المدن من الروم أثناء مسيره إلى (هليوبوليس) فتلحق به خسارة كبيرة فى طريقه . ولم يثبت مما رأيناه من التواريخ أن هذا المدد قد لاقى أية مقاومة قبل وصوله إلى (هليوبوليس). والظاهر أن بطلر قد اعتمد على ما رآه فى بعض التواريخ عن شهداء البهنسا التى حدثت فيها موقعة بين الروم والمسلمين على ما رواه عن يوحنا أسقف نقيوس ، فتوهم أن هذا حدث عند غزو الفيوم التى استولى عليها العرب بعد حصن بابليون من غير حرب أو قتال . ولعل هذا الحادث يرجع إلى قتل الروم لليعاقبة ، فأطلق على القتلى الذين استشهدوا بالبهنسا « شهداء البهنسا » فتوهم البعض أن هذا كان وقت الفتح الاسلامى ، وليس ببعيد أن يكون عمرو قد وقف على حصار حصن بابليون حتى وصل إليه المدد ، فشرع يعمل لفتحه .

أما عين شمس فكان من السهل أن يستولى عمرو عليها قبل حصاره حصن بابليون ، لأنه لم تكن بها حامية كبيرة من جهة ، ولأنها كانت فى طريقه . وربما استولى عليها قبل أم دنين ثم نشب بينه وبين الروم القتال بعد وصول المدد إليه من عمر على أثر تقهقره إلى هذه المدينة حيث رأى من مصلحته الحربية أن يستدرج الروم إلى العراء فيضعف حامية الحصن فلا تقوى على المقاومة طويلا

(٢) حصار عمرو لحصن بابليون :

وقبل أن نطرق هذا الباب يحسن أن نعرف مَن المقوقس :

(ا) المقوقس :

إتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم وقت فتح مصر ، وأنه هو الذى صالح العرب عليها . ولكن اتفاقهم وقف عند هذا الحد ، فاختلفوا فى اسمه وجنسه ووظيفته والعمل الذى عمله ، ومعنى اللقب الذى عُرف به. وقد كثر الجدال في هذه المسائل الآن ، وللأسف لم تؤد هذه المناقشات إلى رأى قاطع يمكن أن نتخذه حجة دامغة بحيث يكفى الغير مؤونة البحث .

ومن المؤرخين الذين عُنوا باستطلاع خبر المقوقس عناية خاصة الدكتور (بطلر) في كتابه (فتح مصر والاسكندرية) (ص ٥٠٨ - ٥٢٦) حيث أفرد له باباً خاصاً ، والمسيو(أميلينو) الذى كتب مقالة شائقة فى المجلة الأسيوية في نوفمبر سنة ١٨٨٨ م تقع فى أكثر من عشرين صحيفة (ص ٣٨٩ — ٤١٠)

وقد اتفق هذان المؤرخان على أن المقوقس كان عاملا على مصر من قبل الروم ، وبطريقاً ملكياً ، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى . أما مؤرخو العرب فقد خبطوا في هذا الموضوع خبط عشواء . وقد رأينا أن ننقل بعض ما ذكره (بطلر)وغيره من أقوال كثيرين من المؤرخين الأوربيين المحدثين فنقول :

قال المؤرخ « فون رانكى » إن المقوقس كان والياً على مصر وأنه من القبط . و « دى غويه » الذى قال : يظهر أن مؤرخي العرب خلطوا أحياناً بين المقوقس وفيرس بطريرق الأسكندرية مع أنهما شخصان مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين. والمستر « ملن » الذى قال في كتابه «مصر في عهد الرومان » ان المقوقس هو « جُريج بن مينا » الذي ذكره «يوحنا أسقف نقيوس » وقال إنه كان والياً على أثريب ، وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب (ص ٢٢٤) و « ستانلى لين پول » (ص ٦) يميل إلى رأى المستر « ملن » فيما يتعلق باسمه بالرغم مما ذكره مؤرخو العرب وهو أنه كان والياً على ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ولكنه اتفق مع هؤلاء على أنه كان من القبط . . . . وقال الأستاذ « بُرى » فى كتابه (الأمبراطورية الرومانية في عهدها الأخير) انه كان والى مصر كلها وكان من القبط .

ونحن نزيد على ما نقلناه عن مؤرخى الأفرنج ما قاله « جبون » (ج ٩ ص ٢٦٨) وهو أن المقوقس كان مصرياً وثرياً نبيلا، وما قاله « أيرفنج » (ص ١٠٨) وهو أنه كان والى مصر ، وكان من عنصر مصرى (أعنى قبطياً) وفي مرتبة الأمراء أو النبلاء وأنه كان منافقاً عظيما وكان يعقوبى المذهب. ولننقل ما قاله بعض مؤرخى العرب المعدودين فى هذا الصدد فنقول:

(١) قال البلاذُرى في « فتوح البلدان » (ص ٢٢٢ – ٢٢٣ – ٢٢٨) ان المقوقس صالح عمراً ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه (هرقل) وأنه اعتزل أهل الأسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وذكر بعض الرواة أنه كان قد مات قبل مجيء (منويل)

لاسترداد الأسكندرية . ويظهر من هذا أن البلاذرى لم يسم لنا المقوقس.

(٢) وقال الطبرى (ص ٢٢٧) : فلقيهم هنالك (أمام حصن بابليون) أبو مريم جاثليق مصر ومعه الاسقف ، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، وقال في مكان آخر إنه (المقوقس) صاحب الأسكندرية.

(٣) وقال سعيد بن البطريق (١) : إن المقوقس كان ملكياً وكان عامل الخراج على مصر من قبل (هرقل) ،وكان يعقوبياً فى الباطن ملكياً فى الظاهر ، وكان أيضاً قد أقطع أموال مصر حين حاصر الفرس القسطنطينية .

(٤) وقال (ساويرس بن المقفع) (٢) أسقف الأشمونين فى كتابه

---

(١) هو سعيد بن البطريق بطريرق الأسكندرية. قال فى «عيون الأنباء» إنه من أهل فسطاط مصر وكان طبيباً نصرانياً مشهورا عارفاً بعلم صناعة الطب وعمله . ولد سنة ٢٦٣ هـ وجعل بطريرقاً على الأسكندرية وسمى « أوتيخوس » وعمره نحو ستين سنة ، وبقي فى الكرسى والرئاسة نحو سبع سنين وستة أشهر ومات سنة ٣٢٨ للهجرة . وله كتب كثيرة فى الطب والتاريخ .

(٢) قال (بطلر) إنه أسقف قبطى كتب تاريخ البطارقة . ويوجد من كتابه ثلاث نسخ معروفة ، واحدة فى المتحف البريطانى وهى من القرن الخامس عشر ، وواحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر ، والثالثة قدم منهما ، وهي عند مرقس سميكه بك (باشا) فى القاهرة . وكانت فى القرن العاشر للميلاد ، وفى نسخة باريس مقدمة لمحبوب بن منصور أحد شمامسة الأسكندرية كتبها فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر .

« سير البطارقة » : ولما ملك (هرقل) أقام الولاة في كل موضع ، وأنفذ إلى مصر (فيرس)ليكون والياً وبطريقاً . فلما وصل إلى الأسكندرية أعلم الابا بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب هو ومن معه ههنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم ...... ثم قال عن سنى الاضطهاد : وهي السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر ... وقال أيضاً : فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس ،وأيضاً: خاف(بنيامين) الكافرَ وهو كان والى الأسكندرية وبطريقها .وأخيراً يخاطب بنيامين نفسه عن سنى الاضطهاد « الذى نزل بي لما طردنى المقوقس » فيتبين مما يقوله ساويرس أن بنيامين قد ُطرد من كرسى البطريركية بمجرد وصول (فيرس) ، فبناء على ماذكره ساويرس هذا يكون فيرس هو المقوقس .

وبعد موت ساويرس مرت حقبة من الدهر لا تقل عن قرنين حتي جاء :

(٥) إبن الأثير فقال : فأخذ المسلمون (باب إليون)وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم .... ثم قال : فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا ، وسار عمرو إلى الأسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه إلى ذلك . وقال : لقد لقينا ملككم الاكبر (هرقل) فكان منه ما بلغكم ، فقال المقوقس لأصحابه

صدق . . . (١) إلى غير ذلك من الخبط الكثير ولا سيما فيما رواه عن تنسيق الحوادث التى وقعت فى أوائل الفتح .

(٦) وقال أبو صالح الارمنى (٢) . وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد سير حاطب بن أبى بلتبة من لخم الى المقوقس صاحب الاسكندرية (فى السنة السادسة للهجرة أى سنة ٦٢٧ م) . وقال فى الكلام عن دير في الصعيد : وكان يأوى بنيامين مختفياً فى ملك هرقل الخلقدونى المذهب وجُريج بن مينا المقوقس بمصر الى انقضاء مدة عشر سنين خوفاً منهما كما أوحى إليه الملاك . ثم استرسل أبو صالح في الكلام فقال : وهذه كانت مدة عشر سنى الاضطهاد وهى المدة التى قاسى منهما الارثوذكسيون (القبط) صعوبات جمة . وقال أبو صالح : انه وجد فى كتاب الجناح : وكان الاسقف من الروم بمصر والاسكندرية يسمي فيرس.

(٧) وقال ياقوت فى معجمه : ان أمير الحصن كان وقت الفتح المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني الذى كان ينزل الاسكندرية.

(٨) وقال المكين (٣) ان المقوقس كان والى مصر من قبل هرقل

---

(١) الكامل لابن الأثير (جـ٢ ص٢٧٨ ـ ٢٧٩)

(٢) كان معاصرا لابن الأثير أو سابقا له فقد قال فى أول كتابه : نبتدئ بعون الله وارشاده أن فى عصرنا هذا فى ابتداء سنة أربع وستين وخمسمائة كان بناء الكنيسة التي على اسم مارى يعقوب بناحيه البساتين

(٣) هو جرجس المكين بن العميد النصرانى بن أبى المكارم ، إختصر تاريخ الطبرى ثم كمله ، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢ هـ الموافقة لسنة ١٢٧٣ م

وانه صالح عمراً هو وكبار القبط .

(٩) وقال ابن خلدون : ان المقوقس كان من القبط .

(١٠) وقال ابن دقماق : ان المقوقس كان نائب هرقل وكان رومانياً.

(١١) وروى المقريزى : ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ المندفور الذى يقال له الاعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني . وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . وتابع المقريزى ابن عبد الحكم فى ابقاء المقوقس الى زمن فتنة « مانويل » وتابع ياقوت فى وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليونانى . وقال أنه كان للقبط بطرق فى الاسكندرية اسمه « أبو ميامين » ، وان المقوقس صالح العرب ، لكن هرقل أرسل اليه يقبح رأيه .

(١٢) وقال الواقدى : ان ملك القبط كان يومئذ المقوقس بن راعيل.

(١٣) وذكر أبو المحاسن أن بنيامين كان بطرق القبط بالاسكندرية وأن أمير الحصن يومئذ « المندفور » الذي يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليوناني .

وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل ، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . ونقل عن « ابن كثير » أن جاثليق مصر كان أبا مريامين .

(١٤) أما السيوطي فلم يخالف أبا المحاسن فيما قاله .

ويظهر للمتأمل لما ذكره مؤرخو العرب مبلغ الخلط الذى وقعوا فيه من حيث تعدد الاسماء التى أطلقت على المقوقس والاختلاف الكثير في معرفة وظيفته ومذهبه وغير ذلك . ولكن يستخلص من التواريخ العربية أن هناك ثلاثة رجال وهم : المقوقس ، وأبو مريم ، والأعرج .

١ — الاعرج والاعيرج :

لقبه ياقوت « بالمندفور » ولعل النساخ حرفوها عن « المندطور » : أى الأمير . وتابعه أبو المحاسن والسيوطي وزاد الأخير في تحريف هذه الكلمة فجعلها « المندفول » . وقد رأى (بطلر) أن (الأعرج) تحريف كلمة (جُريج)وأن اسم أمير الحصن كان « جُريج »و « جورج». ويرى « لين پول » أن الأعرج أو الأعيرج ربما يشبه (أرطبون)

٢ — أبو مريم :

قال « لين پول » إنه جاثليق مصر ، ومعنى جاثليق بطريرك . وقد ذكره أولا بهذا اللقب الطبرى لأنه لقب لبطارقة الكنائس النسطورية والأرمنية ، وكان مألوفاً عنده لاتصاله ببلاد الفرس . وقال الطبرى إنه كبير بطارقة النصاري ، وكناه بأبي مريم . ومعلوم أنه كان فى مصر في زمن الفتح بطرقان(قيرس) و (بنيامين): فابن مريم لا يصح أن يكون محرفاً من قيرس ولكن يصح أن يكون محرفاً من بنيامين ، وزاد تحريف الاسم فى زمن ابن الأثير فصار « أبو مريم » وسماه السيوطي « أبا ميامين » وواضح أن بنيامين حرّف فصار أبا ميامين ثم أبا مريم.

٣ — المقوقس :

إن المؤرخين الأقدمين الذين أشرنا إليهم كالبلاذرى والطبرى وساويرس أسقف الأشمونين وابن الاثير لم يكنّوا المقوقس . وأول من قال إنه ابن مينا ، أبو صالح الارمنى . وقال ياقوت : إنه ابن قرقب اليونانى.

وقد خطّأ (بطلر) الطبرى لقوله إن المقوقس كان عظيم القبط وإنه كان في الحصن عند استيلاء العرب عليه ، أعنى أنه لم يكن يعقوبياً ولم يكن حاضراً فى الحصن عند اقتحام العرب له ، وكذلك خطأ « أوطيخا » (وكان ملكياً) لقوله إن المقوقس كان يعقوبياً ، لكي لا تقع على الملكيين تبعة ما فعله .

ثم قال (بطلر) : ولا يكشف ما غمُض من أمر المقوقس إلا ساويرس أسقف الاشمونين وقد ألف كتابه من كتب كثيرة كانت محفوظة فى المكتبة فى دير مقاريوس في مجاميع خاصة . ولا شك في أنه تصعب قراءة مؤلفه لعدم ضبطه وإتقانه . ومع ذلك فالمعلومات التى وجدتها في كتابه جمة لا توجد فى المؤلفات القديمة التى اطلعت عليها . وهذا ما يقوله (ساويرس): أقام هرقل قيرس والياً على مصر بعد أن استردها الروم من الفرس ليكون بطريرقاً للأسكندرية وأنه أقام عشر سنين إضطهد الكنيسة القبطية فيها اضطهاداً شنيعاً . وهذه المدة بيّنها بنيامين « بالعشر سنين التى أقام فيها هرقل والمقوقس مسلّطين على ديار مصر » ويلقب قيرس بالكافر الذى كان والياً وبطريرقاً للأسكندرية من قبل الروم . ويقول عن سنى الاضطهاد « الاضطهاد التى نزل بى لما طردني المقوقس » . . . ولم يبق إذذاك

أدنى شك في أن ساويرس جعل المقوقس هو « قيرس » وميزه من « بنيامين »
ثم أقام بطلر الأدلة على أن الأسقف ساويرس مصيب فيما ذكره وأن ما ذكره مؤرخو العرب خطأ محض .

والذى يظهر لنا مما ذكرناه أن مؤرخى العرب متفقون على المركز الذى كان يشغله المقوقس ، وهو أنه كان والياً على مصر من قبل هرقل ، وبطريرقاً للاسكندرية ، وأنه هو الذى صالح العرب . ولكن لم يتفقوا على حقيقة اسمه ، بل شاع الخلط بينهم وكذلك بين الأفرنج ومنهم أميلينو الذى قال إن (قيرس) لا بد أن يكون قد ترك مصر فى سنة ٦٣٩ م ، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل (قيرس) حتي يغلب على الظن أنه (المقوقس) كان عدو (قيرس) . وبعد أن رجح « أميلينو » كون المقوقس ملكياً في مقاله الذى نشره فى المجلة الاسيوية عارض نفسه فقال إذا كان هذا صحيحاً (كون المقوقس ملكياً) فكيف يتأتى لمؤرخى القبط الذين أرخوا تواريخهم بالعربية مثل أوطيخا والمكين وأبى الفرج أن لا يقولوا شيئاً عنها؟ (١)

أما خلاصة ما ذكره أميلينو عن المقوقس فهي كما يأتى :

(١) ان المقوقس كان يسمي جورج بن مينا وابن قرقب، وينبغى أن يكتب ابن فرقب

(٢) ان المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة إن لم يكن من

---

(١) رد (بطلر) على هذا بقوله إن أبا الفرج لم يكن قبطياً البتة ولا مصرياً وكذلك أوطيخا ، أما المكين فقد قال إنه **مؤرخ** وليس من وراء تاريخه فائدة كبيرة

جهتين ، وكان في خدمة الامبراطور (هرقل) وكان في الاصل ملكي المذهب .

(٣) وأنه كان بطريرقاً ملكياً ، ولا يمكن أن يُعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين .

(٤) إن لفظ المقوقس كان كنيةً مشتقةً من (كوكيون باليونانية) ، اسم نوع من النقود . وكذلك قال (پيريرا) ولم يصوب (بطلر) هذا الرأي ، بل قال إن اللفظ الحبشى لهذه الكلمة هو المقوقَس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل (قيرس) إلى مصر من بلاد القوقاز ، فلايبعد أن يكون لقب في مصر بالقوقاسى وهى (أوقوقاسيوس) باليونانية ،و(بكوخيس) بالقبطية ، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حرفت فى نقلها إلى العربية فصارت (مقوقس) أو قدمت عليها الميم للنسبة (كالمصّر لمن أقام في مصر)

أما الامر الذى يهمنا بحثه وإبداء رأينا فيه بنوع خاص ،فهو مذهبه ، وهل كان المقوقس ملكياً أو يعقوبياً فنقول :

قد أورد أصحاب المقتطف (الجزء الثامن والعشرين سنة ٣ ١٩ من ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦) خلاصة ما ذكره (بطلر) عن المقوقس . وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم : ويظهر لنا أنه (بطلر) حل عقدةً غامضة من عقد التاريخ ، وأبان أن البحث الدقيق يجلو أغمض المسائل . اهـ

أما نحن فنعترف للدكتور بدقة البحث وإصابة الرأى ، ولكن ليته حل حقيقة هذه العقدة أو تلك العقد المرتبطة باسمه وجنسه ومذهبه . فأنها لا تزال مستعصية عليه كما شاهدنا .

ونحن نذكر ما عسى أن يكون له مساس بما ذكره (بطلر) خاصاً بمذهب المقوقس ، أيعقوبياً كان أو ملكياً ، وإذا كان ملكياً فلم صالح العرب وساعدهم ؟

مما تقدم يعلم أن « بطلر » اعتمد على ما رواه ساويرس أسقف الاشمونين من أن المقوقس كان ملكياً ، فجزم بصحة ماذكره ساويرس وأنه طرح كلام مؤرخي العرب والافرنج جميعاً ، بعد بحث طويل ومجهود كبير ، وأن ما ذكره سواه خطأ محض ، فبنى حكمه على ما قرأه فى كتاب هذا الاسقف . ولكن للاسف قرر بطلر فى سياق مدحه له أنه يستحيل على القارىء قراءة كتاب ساويرس لنقص فى الاتقان ، وكيف يجزم بطلر بصحة ماذكره ساويرس وكتابه مهمل عديم التنسيق ؟

فاذا سلم بطلر بأن (أوطيخا) الملكي المذهب قد جعل المقوقس يعقوبياً لكي لا تقع على الملكيين تبعة عمله ، فلم لا يظن أيضاً أن (ساويرس) اليعقوبي المذهب قد جعله ملكياً لانه خان البلاد وصالح العرب عليها كما عدّ غيره من المؤرخين عمل المقوقس خيانة عظمى ومن بينهم بطلر ؟

واذا كان المقوقس رومانياً ملكياً محبباً للروم لا يخشى سوءاً إذا احتفظ بمصر فلم التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكي ؟ وقد قدمنا أن اليعاقبة كانوا يعتبرون مجرد الاشتراك مع الملكيين فى أى عمل خيانة عظمى لا تغفر .

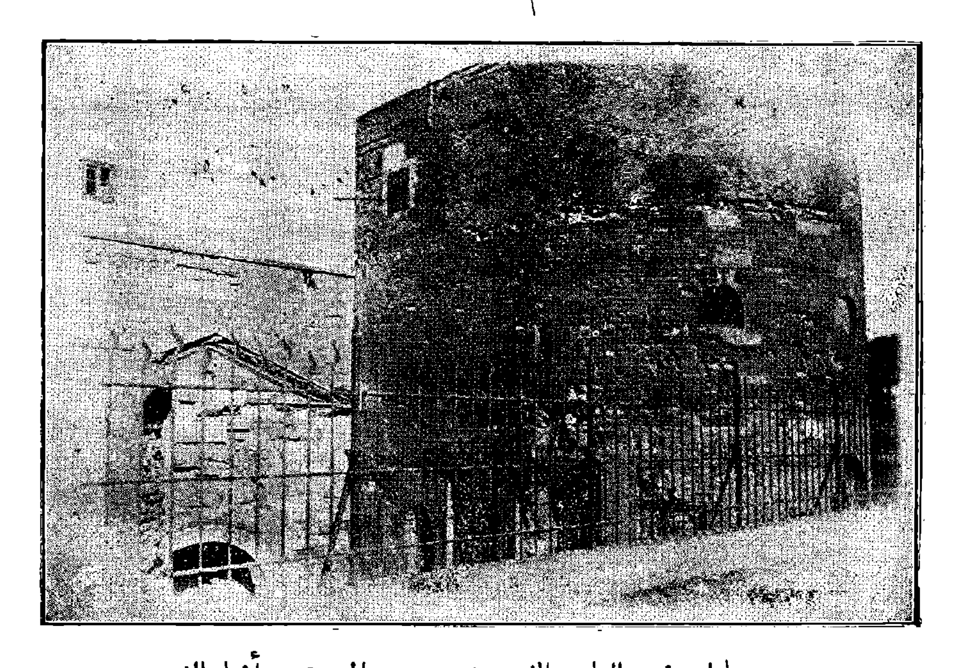
وإذا كان المقوقس ملكي المذهب وأنه هو الذى نكل بالقبط عشر سنين فكيف يعقل أن يكون القبط فى صفه وأن تتركه الروم وشأنه

ولم ينقض الصلح مع القبط ، بينما استمر الروم في الدفاع عن البلاد الى النهاية ؟

لهذا لا نوافق (بطلر) ولا غيره من المؤرخين الذين رأوا أن المقوقس كان ملكياً ، ونميل الى القول بأن المقوقس كان قبطياً يعقوبي المذهب من أصل يوناني ، عينه (هرقل) لما رأي فيه من الحزم والنبل واحترام القبط له وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الافعال . واذا كان ملكياً فى الظاهر ولكنه اعتنق المذهب اليعقوبي سرا كى لا يعلم بذلك (هرقل) فينقم عليه ويصب عليه هام غضبه، وإذا قيل إن البطريرق (بنيامين) فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته الى مصر قبيل الاضطهاد الذي دام عشر سنين ، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على (بنيامين) بالالتجاء إلى أحد الاديرة كى ينجو من ظلم الروم .

والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التى قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره فيمثل به (هرقل) رواية الغدر ، لان الروم كانوا يقتفون أثر من اشتهر بمخالفة مذهب خلقدونية أو عرف بالميل الى اليعاقبة أعداء هذا المذهب ولا يبعد أن يكون (قيرس) والمقوقس شخصين مختلفين كما رأى أيضاً دى غويه ، فكان للاول السلطة العسكرية ، وللثاني السلطة المدنية . وكان (قيرس) ملكياً متعصباً لمذهبه فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاء الديار المصرية ، ولم يكن للمقوقس وهو الحاكم الملكى للبلاد من النفوذ والقوة بحيث يتمكن من إيقاف تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة . فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر ، وأن البلاد واقعة

أمام صفحة ١١١



حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح

رسم حضرة محمد أفندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

لامحالة فى أيديهم ، وأن سلطان الروم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، سُرعان ما اتجه بقلبه وقالبه الى العرب ، وعمد الى ممالأتهم هو والقبط ، لانه كان له نفس طموحة .

هذه كلها فروض نفرضها ، ولكننا لا نستطيع أن نزعم صحتها لنقص الأدلة التاريخية .

حصار عمرو لحصن بابليون

ومراسلة المقوقس عمرا بشأن الصلح

لما تم للمسلمين النصر على الروم فى واقعة عين شمس (هليوبوليس) سار لحصار حصن بابليون أو قصر الشمع فى أوائل سبتمبر سنة ٦٤٠ م وسنة ٢٠ ﻫ : أى زمن فيضان النيل . وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشامخة يحيط بها النيل ، وقد ارتفع ماؤه فامتلأ الخندق الذى حوله . وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار بل وغير قادرين على استعمالها استعمالا يكفل لهم أن يلحقوا بالروم خسارة كبيرة . كل ذلك أطال أمد الحصار حتى بلغ سبعة أشهر كما اتفق المؤرخون على ذلك .

ولما حاصر المسلمون (بابليون) أو (باب إليون) كان بالحصن حاكم مصر المقوقس وكان قائد الحامية رجل يقال له الاعرج . ولم تكن قوته بأكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف مقاتل على مارواه (بطلر) ولكننا نشك في صحة هذا العدد ونرجح أن يكون أكبر من هذا بكثير لورود الفالة اليه بكثرة عقب الوقائع المتقدمة .

صفّ عمرو جند المسلمين حول الخندق ووضع عليه المنجنيق . وهو أعظم آلات الحصار إذ ذاك ، وقد جعل الروم للخندق أبواباً وجعلوا حسك الحديد (الأهرام الفارغة) موتدة بأفنية الابواب ، وظل القتال بين الفريقين شهراً كاملا . ولما رأى المقوقس الجد من العرب ، وصبرهم على القتال ، وأنهم سوف يقتحمون الحصن ، خرج هو ونفر من قومه من الباب القبلي حتى لحقوا بالجزيرة حيث أرسل المقوقس الى عمرو ابن العاص :

إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصبة يسيرة. وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن وهم به من شيء اه .

وقد أخطأ المقوقس فى فهم عمرو بن العاص ، فخفى عليه أنه لا يؤتي بالتهديد والتخويف فأرسل إليه مع رسله هذه العبارة التى تشتم منها رائحة الارهاب والتهديد إذ توهم أن جموع الروم وما معهم من العدة والسلاح تحول دون تنفيذ إرادة عمرو أو تؤثر فيما أوتيه من صدق الأيمان وحسن اليقين وعدم المبالاة بالموت إبتغاء مرضاة الله ونصرة الأسلام .

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لقومه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم ؟ ولم يدر المقوقس أن عمراً انما أبقاهم ليروا حال المسلمين . وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلا إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال :

(١) أما إن دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .

(٢) وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون .

(٣) واما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

سر المقوقس بقدوم رسله وسألهم عن حال العرب فأجابوا :

رأينا قوماً الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ـ ليس لأحد في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

فأرهب المقوقس هذا الكلام وعلم أن قوماً هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن وينتصرون عليهم . وأشار على قومه باغتنام فرصة الصلح قبل فواتها . فأجيب إلى طلبه ، فأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلا منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح للفريقين .

فبعث عمرو بن العاص إليهم عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ـ وأن لا يجيبهم إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث ـ فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس ، هاب هذا عبادة لسواده وفرط طوله ، وأراد أن يتقدم إليه غيره ايكلمه فقال المسلمون : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به . اهـ

ونحن نرى أن المقوقس قد توهم أن عمراً أمر عبادة ـ هذا الأسود ـ أن يكون متكلم القوم تصغيراً لشأن المقوقس ، وإلا فان المقوقس لم يعدم أن يكون فى قصره العشرات من العبيد .

فلم ير المقوقس بداً من محادثة ومفاوضة عبادة . وابتدأ هذا الحديث وقال : إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب الاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحلّ لنا ذلك ، وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالا . وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أو كان لا يملك إلا درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده . انما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه . اهـ باختصار .

فأمَّن المقوقس على كلام عبادة وأراد أن يسلك طريق الأرهاب المصوغ في قالب النصيحة فقال : أيها الرجل قد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ،فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به . اه

فقال عبادة : يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . . . ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك . وإن الله عز وجل قال في كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، فانظر الذى تريد فبيّنه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل .اه

فألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه الى خصلة غير هذه الثلاث

الخصال . فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فقال المقوقس لمن حوله أجيبوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين (١) . اه

رجع المقوقس وأصحابه الى الحصن حيث عقد اجتماعا يعرض عليه حالهم وحال المسلمين إزاءهم ، فأبوا أن يذعنوا لسلطان العرب وخالفوا المقوقس وقبحوا رأيه وعولوا على مواصلة القتال .

ومن هنا ظهر الخلاف بين روايات المؤرخين ظهوراً بيناً بحيث يصعب أن نقف على ما كان بين المسلمين والروم قبل أن يعقد المقوقس مع عمرو الصلح ويكتب بذلك الى هرقل .

(١) ذكر ابن عبد الحكم والمقريزي : أن شروط عمرو قد رفضت فألح المسلمون عند ذلك بالقتال حتي ظفروا بمن في القصر وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولما رأى المحاصرون ذلك قبلوا ما كان قدحملهم عليه المقوقس وأذعنوا بالجزية . (٢)

---

(١) راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٩ — ٦٣) ، والخطط للمقريزي (ج ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣)

(٢) ذكر مؤرخو العرب أن الحصار انتهي إلى هذا الحد وأن المسلمين استولوا على الحصن ، وأن المقوقس أبرم شروط الصلح مع عمرو نفسه عن القبط ، وهو يخالف ما ذكره بطلر (ص ٢٦٤) أن هرقل استدعى المقوقس إلى القسطنطينية حيث أنبه واتهمه بالخيانة ونفاه وهدده بالقتل .

(٢) وقد ذكر السيوطي : أنه بعد انصراف عبادة بن الصامت نصح المقوقس لأصحابه أن يعملوا برأيه فيؤدوا الجزية للعرب فرضوا بذلك وطلب المقوقس الاجتماع بعمرو وببعض أصحابه فاجتمعوا واصطلحوا على أن يكتب بذلك لملك الروم فان قبل ذلك ورضيه أجازوه ، وإلا رجعوا الى ما كانوا عليه ولما رفض هرقل الصلح لم ينقض المقوقس عهده .

(٣) واتفق أبو المحاسن مع ابن عبد الحكم والمقريزى ، ولكنه زاد على أن المقوقس أذعن للصلح عن نفسه وعن القبط معه، ولكنهم رفضوا ذلك فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى هزموهم واستولوا على الحصن وأرغموهم على دفع الجزية .

(٤) وذكر ياقوت في معجمه ما ذكره السيوطى وزاد عليه : أن اجتماع المقوقس وعبادة كان بعد استيلاء العرب على الحصن .

وبالرغم من تناقض هذه الأقوال فاننا نقف منها على أربعة أمور

(١) أن الاجتماع حصل بالفعل وقت فيضان النيل فى شهر اكتوبر :

(٢) وأنه أدّى الى الرفض واستئناف القتال :

(٣) وأن القتال كان وبالا على الروم فغيروا رأيهم :

(٤) وأن معاهدة الصلح دونت بالفعل وأن تنفيذها أرجئ الى ما بعد موافقة الامبراطور .

يستنتج مما تقدم أن ما ذكره ابن عبد الحكم والمقريزى وأبو المحاسن ان فتح حصن بابليون كان عقب رفض الروم شروط الصلح مباشرة خطأ

محض . لانه لم يكن قد انقضى على الحصار الا شهر واحد (أعنى زمن ارتفاع النيل) وقد اتفق المؤرخون على أن الحصار دام سبعة أشهر ، فلا يعقل أن يكون استيلاء العرب على الحصن إلا وقت انخفاض النيل

(ج) معاهدة الصلح بين عمرو المقوقس:

وإنا ذا كرون ما ورد في معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس نقلا عن الخطط للمقريزى (جـ١ ص ٢٩٢):

إصطلح عمرو والمقوقس على أن يفرض لهم (للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران دينارا ن على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض لهم فى شئ منها . اهـ .

وأحصوا عدد القبط يومئذ ممن بلغ الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس (ستة ملايين) فكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار (إثنى عشر مليونا) (١) .

---

(١) أما قول أبى المحاسن (جـ ١ ص ١٩) أن عدد من فرضت عليهم الجزية من القبط بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف نفس فكانت فريضتهم إثني عشر ألف دينار فقول مردود ، لان القبط كانوا كما لا يخفى يكونون السواد الاعظم من السكان .

أمام صفحة ١١٩



الباب العمومى لحصن بابليون وهو الباب الذى خرج منه المقوقس

رسم حضرة محمد افندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

ولا يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين . ولو كان عدد من بلغ الحلم ربع سكان المصريين ، للزم أن يكون عددهم أربعة وعشرين مليوناً من الأنفس — وهو بعيد عن الحقيقة. يدلك على ذلك ما رواه البلاذري في « فتوح البلدان »: جبي عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفي ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح (في خلافة عثمان) أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : ان اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها . فقال عمرو ذلك لأنكم أعجفتموها .

والذي يمكن أن يفهم أن الاثني عشر مليوناً انما كانت مجموع الخراج والجزية ، لا الجزية خاصة .

(د) رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم :

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه ، شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضى بما رضي به القبط وبين اللحاق ببلاد الروم ، وكتب الى (هرقل) بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتاباً يوبخه فيه على التسليم ويحتقر قوة المسلمين . وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فلم يعبأ بقول هرقل بل أقبل على عمرو وأعلمه أنه لم يخرج عما عاقده عليه ، وأن القبط متمون له على ما صالحهم عليه . فطلب منه عمرو أن يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور بين الفسطاط والأسكندرية ، وصارت لهم القبط أعواناً (ابن عبد الحكم ص ٦٤) وقد عد مؤرخو الفرنج أن هذا العمل خيانة من المقوقس ، ولكن اذا ثبت

لنا أن جند الروم قد بلغوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من رد العرب وهم عصبة قليلة ، فلم يمكنهم التغلب عليهم ، وقد دوخوا الفرس وقهروا هرقل ، وقد سئم المصريون حكم الروم لظلمهم وعسفهم ، وبلغهم أن المسلمين لم يتعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها فأطلقوا لهم حرية الفكر والدين . إذا ثبت كل ذلك جاز أن نلتمس له عذراً فيما فعل .

والمتأمل لعهد الصلح بين عمرو والمقوقس يرى أنه شمل قبط مصر كلهم ، مع أن عمراً لم يفتتح بعد بقية البلاد التى استعصت عليه فى القتال . فهل نقض القبط عهد الصلح ؟ أم حامية الروم فى البلاد هى التى ناوأت عمراً العداء ووقفت في وجهه مدة طويلة ؟ والذي يلوح لنا ترجيح الأمر الثانى ، وإذا كان بعض القبط قد اشتركوا مع الروم فلم يشتركوا إلا مرغمين

(هـ) اقتحام الحصن

حال ارتفاع مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل له اقتحامه سوى الاعتصام بالصبر ريثما تغيض مياهه . ولم يرد لحامية الحصن من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة ، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلا وثابروا على الدفاع بصبر وجلد . وفى شهر مارس سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) سمعوا فى معسكر المسلمين صياحاً عالياً علموا منه بموت هرقل . (١)

---

(١) ذكر السيوطى (جـ ١ ص ٥٢) وابن عبد الحكم (ص ٩٦) أن هرقل مات سنة ١٦ هـ ، وأخرج كل منهما عن الليث بن سعد أنه مات سنة ٢٠ هـ ، فكسر الله بموته شوكة الروم . وهذا بعيد لأن موت هرقل كان فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) ولم يكن العرب فى هذا الوقت قد شرعوا فى حصار الأسكندرية .

فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحميتهم وهيأ للعرب سبيل الانتصار عليهم . أما اقتحام الحصن فقد كان على يد الزبير بن العوام . ذلك أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير بن العوام (على ما رواه ابن عبد الحكم) : إنى أهب نفسى لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام (١) ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر ، وكبّر الزبير تكبيره فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن ، فلما خاف قائد الروم على

---

(١) أجمع المؤرخون كابن عبد الحكم والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى وياقوت على أن الزبير اقتحم الحصن من الموضع الذى كان يعرف بسوق الحمام بعد ذلك . ولكن ليس من السهل أن ندل بالضبط على الموضع الذى وضع الزبير فيه السلم فقال (بطلر) نقلا عن « أوتيخوس » ان سوق الحمام كان جنوبى الحصن . وممن سار على هذا الرأى أيضاً البلاذرى ، وأضاف اليه أن الزبير أتى من الشمال الى الجانب المقابل أعنى الجنوب ويرى (بطلر) ان هجوم العرب كان من الجنوب الشرقى للحصن حيث لا يزال السور قائما إلى الآن وذكر ياقوت أن هذا السلم كان بسوق وردان وظل باقيا فى منزل من المنازل فاختفى عقب احتراق هذا المنزل سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) وروى ابن عبد الحكم ان شرّحبيل بن جحّية المرادى نصب سلما آخر من ناحية الزمامرة اليوم

نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح فأجابه عمرو إلى ذلك ، وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر (١) اهـ

وكان انتهاء أمد الحصار واستيلاء المسلمين على حصن بابليون فى شهر إبريل سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) على ما رواه «بطلر» ، أما كون المقوقس هو الذى عقد الصلح مع عمرو بعد سقوط الحصن وتسليم الحامية بعد سبعة أشهر على ما ذكره مؤرخو العرب فلا يمكن تصديقه، لأن المقوقس كان إذ ذاك خارج الديار المصرية . وإنما يحتمل أن عمرا صالح حامية الروم بعد تسليمها إليه . هكذا قال بطلر وهو بعيد ، اذ صار المقوقس بالصلح مع العرب بعيد عن أن تناله يد (هرقل) . وكان يجب على عمرو بمقتضى شروط الصلح أن يحميه من كل سوء ،لانه لم يعتزل الروم إلا بعد أن تحقق لديه أن العرب لا محالة منتصرون عليهم

وقد روى بطلر عن المقريزي (جـ١ ص ٢٩٤) أن المسلمين قتلوا من الروم إثنى عشر ألفاً وثلثمائة عقب استيلائهم على الحصن . وهو خطأ، لأن المقريزي تناول الكلام على عدد جيش عمرو بن العاص وأنه كان خمسة عشر ألفاً عند حصاره لهذا الحصن (أخرج هذا عن يزيد بن أبى حبيب) ، وأخرج عن عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين إثنى عشر ألفا وثلثمائة بعد من أصيب

---

(١) أصبح المقوقس مع العرب بعد شهر واحد من حصار حصن بابليون ولا بد أن تكون الحامية الرومية هي التى صالحت عمرا بخلاف ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره

منهم في الحصار بالقتل والموت ، اه

مسير عمرو الى الاسكندرية واستيلاؤه عليها :

(ا) استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس والكريون :

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الامبراطوريه الرومانية الشرقية . وقد أيقن امبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة في أيدي العرب يؤدى حتما الى زوال سلطانه من مصر زوالا لا رجوع بعده ، فبعث اليها بالجيوش الجرارة ، واستجاشت الروم وأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا فيها.

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على حصن بابليون سار بجيشه الى الاسكندرية، وخرج معه رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، فلم يلق عمرو أحداً حتى بلغ (طرنوط) (١) فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفاً فغلبهم على أمرهم.

روى « بطلر ص ٢٨٢ ٢٨٤ » أنه بعد أن ترك عمرو مدينة (طرنوط) وقعت بين الروم والعرب موقعة هائلة فى مدينة نقيوس التي قامت على أطلالها قرية شبشير الواقعة الى الشمال والغرب من منوف ،

---

(١) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : الطرانة مدينة تذكر كثيراً فى كتب القبط وتعرف فى الكتب القديمة : باسم (طرنوطيس) وسماها ابن حوقل والادريسي ومؤرخو بطارقة الاسكندرية (طرنوط) وهى واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ومنها الى القاهرة نحو ٤٠ ميلا والي الاسكندرية نحو خمسة أيام ، وكان يجرى النيل فى وسطها

إنتصر فيها عمرو على الروم انتصارا مبيناً . وقد عزا « يوحنا » أن انكسار الروم كان من جراء ما أصاب قائدهم من الفزع والهلع حين علم بدنو جند المسلمين ففر مسرعاً الى الأسكندرية وطرح من تحت إمرته من الجند سلاحهم وقذفوا بأنفسهم في الماء فلم يعثروا على قواربهم وقد ولى فيها الملاحون الأدبار حين شعروا بدنو الخطر منهم لينجوا بأنفسهم حتى لحقوا بقرائهم . وفي هذه الأثناء انقض المسلمون على الروم العزل فى الماء ووضعوا السيف في رقابهم ، وعلى أثر ذلك دخل العرب المدينة بلا مقاومة ، حيث لم يبق من جند الروم على قيد الحياة أحد ، وان العرب قتلوا كل من لجأ الى الكنائس أو صادفوه في شوارع المدينة رجالا ونساء وأطفالا (١)

وهذا محض افتراء لأن العرب لم يعلم عنهم أنهم تعرضوا الأهالى البلاد التى افتتحوها وهم عزل من السلاح غير قادرين على القتال . بل بالعكس كانوا يؤمّنونهم على أموالهم وعيالهم فى حين خلودهم الى السكينة وجنوحهم الى السلام ورغبتهم فى استتباب الأمن والنظام.

وقد ذكر المقريزى (جـ ١ ص ١٦٧) أن أول موضع قوتل فيه عمرو هو (مريوط) مع أن المسافة بين مريوط وطرنوط بعيدة جداً ، ولعلّ هذا الخلط ناشئ من عدم دراية النساخ بالمواقع الجغرافية.

أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمي لتعقّب جيش الروم المرتد على

---

(١) وقد ذكر (بطلر) ان مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر هذه الموقعة وأن المصدر الوحيد الذى استقى منه هذه الواقعة مفصلة هو (يوحنا أسقف نقيوس) . وقد بحثنا كثيرا عن كتابه فى المكتبة السلطانية ، وفى مكتبة الجامعة المصرية وفى غيرهما من المكاتب الشهيرة فلم نعثر عليه

أعقابه فأخذ يطاردهم حتي أدركهم عند كوم شريك (١) فأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سمي أمر أباناعمة مالك بن ناعمة الصدفى فجدّ في السير فلم تدركه الروم حتي أتى عمراً فأخبره، فأقبل بجنده وسمعت به الروم فانصرفت بعد قتال دام بينهم وبين شريك ثلاثة أيام على ما رواه ابن عبد الحكم، ثم التقى عمرو بالروم بسُلطيس (٢) فهزمهم وبعد مسيرة عشرين ميلاً التقى بالروم فى الكريون (٣) وكانت آخر حلقة فى سلسلة الحصون التي بين بابليون والاسكندرية.

تحصّن «تيودور» فى حصنها المنيع وقاتل المسلمين قتالا شديداً دام بضعة عشر يوماً، فأيد الله المسلمين بالنصر وولى الفالة الأدبار حتى وصلوا الى الأسكندرية.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على المقدمة، وحامل اللواء وردان مولى عمرو، فأصابت عبدالله جراحات كثيرة فقال: يا وودان لو تقهقرت

(١) هذه المدينة واقعة على بعد ستة عشر ميلا شمالى طرنوط بمديرية البحيرة بمركز النجيلة.

(٢) هذه المدينة واقعة على ستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون.

(٣) ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: كانت هى المحطة الاولى التي ينزل فيها السياحون بعد السفر من الاسكندرية. وقدر بعضهم تلك المسافة بمسيرة مرحلة. وقال «كترمير» إن هذه المدينة موجودة الآن وتعرف باسم (كريون)

قليلا نصيب الروح . فقال وردان : الروح تريد الروح أمامك وليس خلفك.
فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال :

أقول لها اذا جشأت وجاشت   رويدك تحمدى أو تستريحى

فرجع الرسول الى عمرو وأخبره بما قاله عبد الله . فقال عمرو : هو ابنى حقاً .

وقد استغرق عمرو فى مسيره إلى الأسكندرية وانتصاره على الروم فى الوقائع التى ذكرناها اثنين وعشرين يوماً على ما رواه « جبون » ج ٨ ص ١٧٠

(ب) عمرو وفتح الاسكندرية :

كانت مدينة الأسكندرية ثانية عواصم الامبراطورية الرومانية الشرقية كما قدمنا، وأول مدينة تجارية فى العالم . لذا عنى الرومان والبطالسة من قبلهم بتحصينها لتقوى على رد غارات المغيرين وصد هجمات الفاتحين ، ولوقوعها على بحر الروم كان يتدفق عليها المدد من امبراطور الروم . ولم يكن لدى عمرو من السفن ما يمنع المدد من أن يصل إلى المدينة وكانت حامية الروم لا تقل عن خمسين ألف جندى ، مزودين بالمؤن الوفيرة . ولم تكن دربة العرب كافية فى استعمال آلات الحصار (وقد استولوا علي كثير منها عقب انتصاراتهم على الروم في الوقائع السابقة ولم يتمكنوا من نقلها) . لذلك عولوا على الاستمساك بالصبر وعمل الحيلة فى الأعداء حتي يختم الله لهم بالنصر ، كما فعلوا في حصارهم لدمشق وحلب وقيصرية من مدن الشام . وكانت قوة عمرو ضئيلة اذا قورنت

بحامية الروم ، لانه لا بد أن يكون قد فُقد من جنـده أثناء الوقائع السابقة عدد غير قليل . واذا كانت قوة عمرو قد بلغت خمسة عشر ألفاً وخمسمائة أثناء حصاره لحصن بابليون ، فلم يزد عددهم عن اثنى عشر ألفاً وهو على حصار الأسكندرية . وعندنا أن هذا العدد لا يكفى مطلقاً لاقتحام حصون المدينة التى لا ترام ، فلا بد أن يكون جيش عمرو أكثر من هذا العدد بكثير ، سيما إذا ذكرنا أن القبط كانوا للعرب أعوانا ، وأن عدداً كبيراً منهم انضم تحت لوائه ومهد له بعضهم سبيل الاستيلاء على المدينة . نزل المسلمون (١) ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين (وكان ذلك فى أوائل يونيه تقريباً) يردون غارات الأعداء .

وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن هرقلا مات سنة ٢٠ هـ ، وعن يحي بن أيوب وخالد بن حميد أن العرب أستأسدت عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية وقاتلوهم قتالا شديداً ، وكذلك ذكر المقريزى والسيوطى ، وهذا يخالف ما قدمناه من أن موت هرقل كان والمسلمون على حصار بابليون ، لأن العرب لم تكن حين موته

---

(١) لايمكن بالضبط تعيين الموضع الذى نزل فيه المسلمون . وقد زعم (بطلر) أنه كان بالشرق أو الجنوب الشرقى ، لأن المدنية محاطة بالبحر من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب وبقناة دراغون من الغرب . وكان نزول عمرو بعيدا عن أسوار المدينة تفاديا مما تلحقه بالمسلمين مقذوفات آلات الروم وسهامهم . وقال السيوطى أن نزولهم كان ما بين حلوة إلى قصر فارس .

(١١ فبراير سنة ٦٤١) قد استولت بعد على الحصن . إذ لم يتم لهم ذلك إلا حوالى أواخر مارس أو أوائل إبريل من تلك السنة . وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أنه خرجت من باب الحصن شرذمة من الروم وحملوا على المسلمين فقتلوا رجلا من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به . فأبى المهريون أن يدفنوه إلا برأسه ، فقال لهم عمرو بن العاص : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم ! أحملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم . فخرج الروم إليهم فاقتتلوا فقتلوا من الروم رجلا من بطارقتهم فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهرى صاحبهم إليهم . فقال عمرو دونكم الآن فادفنوا صاحبكم . اه

هذه الحادثة على سذاجتها تبين لنا بداهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما عسى أن يؤثر فى جنده أو يشغلهم عن الجهاد من جراء مثل هذه الحادثة التى تشبث فيها المهريون بضرورة دفن صاحبهم مع رأسه . فلهذا عمد عمرو بدهائه وحسن سياسته على تهدئة خواطر أصحابه بهذا الرأى الصائب والنظر الثاقب . ولا غرو فعمرو بن العاص رجل فذ لا يبالى بما يصادفه من العقبات فيعمل على تذليلها وتمهيد السبيل للقضاء عليها

قال « جبون ج ٩ ص ٢٧١ » : إن نفوس الاهاين كانت تتوق لهلاك هؤلاء الظالمين وطردهم من بلادهم ، فلم يألوا جهداً فى مد يد المعونة إلى عمرو ، مادية كانت تلك المعونة أو عسكرية. وقد لاحظ البطريرق « أو تيخوس » أن شجاعة العرب في القتال كانت كشجاعة الأسود ، (ورد

هذا الوصف في تاريخ ابن عبد الحكم) فردوا هجمات الروم المتواصلة وكانوا يقابلون هـذه الهجمات بالمثل ، فيحملون على أسوار المدينة وأبراجها . وفى كل هذه الحملات كنت ترى سيف عمرو ولواءه يتلألآن في مقدمة المسلمين . اه

بلغ القتال ذات يوم أشده بين الفريقين حتى اقتحم المسلمون الحصن وقاتلوا الروم فيه الا أن هؤلاء حملوا عليهم (على المسلمين) حملة منكرة فأخرجوهم من الحصن الا أربعة بينهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد ، فالتجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فأمر الروم رجلا منهم يكلمهم بالعربية فقال لهم : قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم ثم قال لهم : إن في ايدى أصحابكم منا رجالا أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم ، فلما رأى الرومى ذلك منهم قال لهم : هل لكم الى خصلة وهى نَصَفٌ ، إن غلب صاحبُنا صاحبكم إستأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلّينا سبيلكم إلى أصحابكم .

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وتداعوا إلى البراز ، فبرز رجل من الروم وقد وثقوا بنجدته وشدته ، وأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال : ما هذا تخطئ مرتين ، تشذ من أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل ؟ فأن قتلت كان ذلك بلاءاً على أصحابك ، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله . فقال عمرو : دونك فربما فرّجها الله بك فبرز مسلمة للرومى فأعانه الله عليه

فقتله ، فوفيَّ لهم الروم بما عاهدوهم عليه فخرجوا ولا يدرى الروم أن عمراً فيهم حتى بلغهم ذلك فأسفوا كل الأسف على ما فاتهم (١) اﻫ بتصرف

هكذا ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى ، ونحن نشك فى صحة هذه الحادثة ، بل نقول إنه يستحيل أن تكون صحيحة ، وإنما هى أساطير نشأت بعد الفتح تمجيداً للفاتحين وقائدهم .

ظل عمرو على حصار الأسكندرية أربعة عشر شهراً (٢) فأقلق هذا

---

(١) وقد ذكر « أيرفنج » أن عمرو بن العاص لما وقع أسيرا فى الاسكندرية وقف بين يدى حاكمها فنسى عمرو الحالة التى كان فيها وتكلم كلاما يدل على الشجاعة وسمو المركز ، فاشتبه فيه الحاكم وأمر بقتله وكان وردان بجانبه فصفعه على وجنته وقال له : صه أيها الكلب لا تتكلم امام رؤسائك ، وهمّ مسلمة بالكلام وقال للحاكم : ان الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار ومصالحة الروم ، وطلب من الحاكم أن يتوسط بينه و بين عمرو فخلى سبيله

(٢) روى الكندى (ص ٩) أن الحصار دام ثلاثة أشهر ، وعن الليث أنه دام ستة أشهر ، وقال المقريزى (ح ١ ص ١٦٥) وابن عبد الحكم (ص ٧٢) والسيوطى (ح١ ص ٥٣) وجبون (م ٩ ص ٢٧٢) وايرفنج (ص ١١١) أن حصار المسلمين دام أربعة عشر شهرا وقال البلاذرى (ص ٢٨٨) إنه دام ثلاثة أشهر . ونحن نرجح أن الحصار دام أربعة عشر شهرا ، لانه لا يعقل أن يظل حصار المسلمين لهذه المدينة ذات الحصون المنيعة والمؤن الوفيرة والمواصلات مع الخارج ثلاثة أشهر أو ستة ، مع أن المؤرخين أجمعوا أن قتال الروم بالاسكندرية كان أشد قتال

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساورته الريب في سبب هذا الأبطاء ، فبعث لعمرو بن العاص كتاباً يلومه فيه ويأمره أن يقرأه على المسلمين ليستنهض بذلك هممهم ويحضهم على القتال ويرغبهم في الصبر وأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً . فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة ابن الصامت وولاه قتال الروم، ففتح الله على يديه الأسكندرية وهزم الروم براً وبحراً .

وكان فتح الأسكندرية عنوة فجعلهم عمرو ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم .

وقد أخرج المقريزى عن ابن لهيعة أن عمراً جبي جزية الأسكندرية ستمائة ألف دينار (٦٠٠,٠٠٠) لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة فقدر عليهم دينارين ، فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل . (١)

قال بطلر) والذى عقد صلح الأسكندرية هو المقوقس فقد عاد إلى مصر من منفاه بعد موت هرقل واليك هذه الشروط على ما رواه « بطلر » عن « يوحنا أسقف نقيوس »

(١) دفع من فرضت عليهم الجزية دينارين كل سنة .

---

(١) ذكر المقريزى أن عمرا لما فتح الاسكندرية كتب الى عمر بن الخطاب أن فيها أربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى للملوك واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر وسبعين ألف يهودى ، وكان بالاسكندرية مائتا ألف من الروم

(٢) المهادنة أحد عشر شهراً تنتهي في ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م . (١)

(٣) وعلى العرب الاحتفاظ بمراكزهم أثناء أمد الهدنة وأن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الأسكندرية . وعلى الجنود الرومية أن تكف عن الاعمال العدائية .

(٤) وأن تبحر حامية الأسكندرية وكل الجيوش التى بها وأن يحملوا معهم كل ما يملكون من أموال وأمتعة ، وعلى الجنود الذين يرحلون عن مصر براً أن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم .

(٥) وأن لا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى.

(٦) وأن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وأن لا يتداخلوا بأى حال فى أمور المسيحيين .

(٧) وأن يبقى اليهود فى الأسكندرية .

(٨) وأن تكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ من العسكريين و٥٠ من الملكيين بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة .

والفقرة الأولى مؤداها إعطاء الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وأن تطلق لهم حرية الدين :

وهؤلاء هم أهل الذمة (٢) ء اهـ

---

(١) والظاهر أن هـذه الهدنة كما قال ابن الأثير كانت إلى أن يرد كتاب عمر باقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس

(٢) وكانت هناك قرى ناصرت الروم على العرب وهي بلهيب وسلطيس وسخا وقرطيا ، فسبوا أهلها وفرقت سباياهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب إلى

ومن الغريب أن ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المعدودين قد ذكروا أنه قتل من المسلمين وهم على حصار الأسكندرية إلى أن فتحت ، إثنان وعشرون مقاتلا، وهو يخالف ما ذكره «جبون» أنه فقد من المسلمين ثلاثة وعشرون ألفاً . وعندنا أن كلا العددين مبالغ فيه . لأنه لا يعقل أن يفقد المسلمون اثنين وعشرين مقاتلا وهم على حصار الأسكندرية ذات الحصون المنيعة والأبراج العديدة التي كانت تصليهم ناراً(١) حامية مع طول أمد الحصار ، وهو شيء قليل جداً يزيد عليه عدد من يموت حتف أنفه من الجيش أضعافاً كثيرة .

ولا يمكن أن نستسلم للرأى القائل بأن المسلمين قد فقدوا ثلاثة وعشرين ألفاً، لأن جند عمرو عند شروعه فى حصار المدينة لم يبلغ هذا العدد

هكذا تم لعمرو بن العاص فتح الأسكندرية أغنى مدن العالم وأوفرها ثروة وأوسعها تجارة ،وأخرج الروم منها أذلة وردهم على أعقابهم حين حدثتهم أنفسهم باستردادها .

ولا يسعنا إلا الأقرار له بالفضل والترنم بالثناء عليه لما حازه من الانتصار المبين ، فزال سلطان الروم فى هذه الديار على يديه، فأذعن أهلها بالطاعة ودان السواد الأعظم منهم بالأسلام على مر السنين وتوالى الأجيال .

قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة .

(١) هذه العبارة كناية عن شدة الحرب .

(ح) عمرو ونسبة حريق مكتبة الاسكندرية اليه :

لغط بعض المتأخرين من المؤرخين فى مسألة إحراق مكتبة الأسكندرية الشهيرة . وناقش هذا الخبر كثير من علماء الافرنج مثل « جبون » و « بطلر » و « سديو » و « چوستاف ليبون » وغيرهم فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو بن العاص هو الذى أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب كما زعم بعضهم ، بل ارتابوا في صحة هذه الدعوى التى تنافى التقاليد الأسلامية ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الأسلامى ، مثل « أوتيخوس » الذى وصف فتح الأسكندرية باسهاب ، فلم يرد لهذا الخبر ذكر البتة فى تواريخهم . والذى يدل على اختلاق هذا الخبر أيضاً أنه لم يرد فى تواريخ المتقدمين كالطبرى والكندى واليعقوبى والبلاذُرى وابن عبد الحكم ، ولا عمن أخذ عنهم من المتأخرين كالمقريزي والسيوطى . لذلك طُرحت هذه الاقوال الآن جانباً لانها ليست قائمة على أساس متين .

وأول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص عبد اللطيف البغدادى الذي توفي سنة ١٢٣١ م ، بخلاف ماذكره المؤرخون المحدثون أن أبا الفرج الملطي (١) كان أول من ذكر هذه الحادثة ، لأنه عاش

---

(١) هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى ؛ ولد سنة ١٢٢٦ م . وكانت ولادته فى مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصغرى . جدّ من صغره فى الحفظ وأقبل على ارتشاف العلم فدرس أولا اليونانية والسريانية والعربية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . فرّ به والده إلى انطاكية سنة ١٢٤٣ م

من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٨٦ ب. م : أى بعد عبـد اللطيف البغدادى ، أما أبو الفرج فقد نسب هذا الحريق إلى عمرو فى كتابه « مختصر الدول» وتناقل هذه المسألة عنه كتاب الافرنج إلى هذه الغاية .

وإليك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو ابن العاص . قال:

فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والنسك وانفرد فى مغارة بالبرية . ولم يلبث غريغوريوس برهة فى المغارة حتى شخص إلى طراباس الشام وأكمل قراءة البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبا وفى تلك الأثنـاء إستدعاه البطريرق أغناطيوس سابا إلى انطاقية ورقاه فى العشرين من سنه إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية ، ونصّب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء . وما زال يرتقي في المناصب الـكبرى حتى كانت سـنة ١٢٦٤ م فانتخبه البطريرق أغناطيوس الثالث مغريانا (مغريان كلمة سريانية معناها المثمر . وكان منصب المغريان عند اليعاقبة من أكبر المناصب بعد البطريركية وهو بمقام كبير رؤساء الاسافقة) على جهات الشرق أي نواحي ما بين النهرين الشرقية والعراق العجمى ، فقام بمهام منصبه وأتى فى مغريانيته أعمالا خطيرة وآثارا مشكورة . وعمر أبو الفرج ستين سنة وتوفى سنة ١٢٨٦ م وكان ابن العبرى رجل كـد وعمل ولم تنقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف ، فأنه ألف ما يزيد علي الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعـلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها . أما تأليفه لـكتاب « تاريخ الدول » فأنه نقله من السريانية إلى العربية فى أواخر حياته وضمنه أمورا كثيرة لا توجد فى المطول السريانى ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة الاسلام والمغول وتراجم العلماء والأطباء اهـ بايجـاز عن كتاب مختصر الدول ص : ح . د . هـ . و . (موجود بالمـكتبة السلطانية نمرة ١٢٢٤ قسم التاريخ)

كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمي « يوحنا النحوى » كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية ، وفى هذا الزمان إشتهر بين الاسلاميين بيحيي المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أى النحوى . وكان اسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى) . ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث .

فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الأسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ماهاله ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه ، وكان لا يفارقه ثم قال له يحيي يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الأسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو وما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية فقال له عمرو : لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فأن كان فيها مايوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بأعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الأسكندرية وإحراقها في مواقدها . فاستنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ماجرى واعجب . اهـ

وإذا حللنا حكاية أبى الفرج تحليلاً دقيقاً وجدناها عبارة عن محض اختلاق وافتراء لا أساس لهما .

وقد فنّدها كل من « جبون » و « بطلر » و « سديو » وكذلك شبلى افندى النعمانى و « چوستاف ليبون » وغيرهم فقال « جبون » فى تاريخه :

بعد ما نُقل كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتابُ تأسفوا كلهم لضياع كثير من العلم والأدب . وأما أنا (يعنى نفسه) فأنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج . والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلادمادى (الفرس) بعد فتح الأسكندرية بستمائة سنة ، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما البطريرق «أوتيخوس» الذي أسهب فى فتح الأسكندرية ، على أن تعاليم الأسلام تخالف هذه الرواية ، إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب فلايجوز إحراقها . وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها . ولا أرى داعياً لتكرار ما حلّ بمكتبة الأسكندرية وما أصابها من الحريق عند ما كان « يوليوس قيصر » محاصَراً بالأسكندرية (سنة ٤٧ ق . م) وما أضمره النصارى من الكراهية للوثنيين فلم تأل (النصارى) جهداً فى استئصال الوثنية من ديار مصر . ولكن إذا تدرجنا من زمن أنطونين إلى عهد طيودوس علمنا من سلسلة الشواهد العديدة أن القصر الملكى وهيكل (سيرابيس) لم يكونا يحويان

بعد ذلك الأربعمائة ألف مجلد أو السبعمائة ألف التي عُني بجمعها اللاجوسيون، وإذا كان ما أحرق من هذه الكتب في الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة (أي اتباع مذهب خلقدونية)، فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر. اهـ (جبون ج ٩ ص ٢٧٤ - ٢٧٦)

ولا داعي لاستغراب جبون ذكر أبي الفرج لهذه الرواية لبعده عن مصر، وقد ذكرها قبله عبد اللطيف البغدادي الذي توفي سنة ١٢٣١ م. ولا يبعد أن يكون هذا قد رواها أيضاً عن غيره: أعني أن هذه الحادثة كان لها ذكر من قبله. وغاية ما يقال في رواية أبي الفرج أنه يظهر فيها شيء من المبالغة والتهويل. أما احتمال إحراق كتب المجادلات الدينية وأنه حصل لخدمة البشر فانه يناقض ما يريد جبون إثباته وهو انكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج.

قال حضرة أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادي الذي كان قبل أبي الفرج الملطي بزمن قليل قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية كانت التبعة عليه دون أبي الفرج، لاحتمال أن يكون أبو الفرج أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه، ولم يقل لنا من أي تاريخ أخذ ولا من أي مصدر استقى. والظاهر أنه حين علم بأنه كان في هذا المكان مكتبة عفى الزمان على أثرها، افترض أن الذي دمرها انما هو عمرو بن العاص قائد المسلمين، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو

نحو ذلك فظن الأمر حقيقة واقعة ـ وعلى الجملة فالحظ الاكبر في نسبة الأحراق إلى عمرو بأمر عمر واقع على عبد اللطيف لا على أبي الفرج . اهـ

وقال العلامة « سديو » : ذكر أبو الفرج (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ ب . م) وأبو الفداء (١٢٧٣ ـ ١٣٣١ ب . م) أن مكتبة السيرابيوم الشهيرة إحترقت عقب استيلاء العرب على الاسكندرية . وقد ناقش هذه الرواية كثير من الكتاب ، ويظهر بادئ ذي بدء أن هذه الرواية أخذت فراغاً كبيراً من التاريخ . والمعلوم أن عمراً هو الذى استشار الخليفة في موضوع تلك المكتبة فأمره بأحراقها . ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الأسلامي . وإن صح هذا الامر لاقتصر أثره على عدد قليل من الكتب ، لان المكتبة كان قد احترق بعضها في عهد القيصر « طيودوس » سنة ٣٩١ م ، ولم يكن فى الاسكندرية من هذه الدار الا حوائط لم يأمر عمرو بهدمها إلا على أثر هياج السكان (جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦)

وقد طرحت هذه المسألة على بساط البحث فى المجلة العامية الفرنساوية فقال مسيو « لكلرك » : نأسف اذا خالفنا مسيو سديو اذ من المحقق ان هذه المكتبة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت (أى وقت الفتح الأسلامي)

وقال الدكتور « جوستاف ليبون » نقلا عن « لودفيك لالان » الذي ناقش مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية مناقشة عامية مختصرة : إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربى البغدادي الذى توفي سنة ١٢٣١ م . أي بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك الحادثة.

اما من خصوص حريق مكتبة الأسكندرية المزعوم فانه همجية وعداوة للمدنية منا ية لأخلاق العرب على خط مستقيم ، حتى إنه يمكن أن يسأل الأنسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتد بعلمهم ؟ وقد كذب العلماء هذه القصة في زمننا مرات كثيرة فلا نرى حاجة في العودة إليها لتكذيبها . ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بايراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التي بالأسكندرية قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً ، ويفهم من ذلك أنه لم يكن بعد بالاسكندرية ما يُحرق. (ص٢٠٨)

وروى المقريزي في خططه (ج١ص ١٥٩) : ويذكر أن هذا العمود (عمود السوارى) من جملة أعمدة كانت تحمل رواق (أرسطوطاليس) الذي كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو ابن العاص بأشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . اه

أما عبد اللطيف البغدادى الذى كان فى الحقيقة أول من ذكر حريق العرب لمكتبة الأسكندرية فقد قال فى كتاب «الأفادة والاعتبار» : ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الأسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها

عمرو بن العاص بأذن عمر رضى الله عنه.(١)

وقال «أرفانيتا كى» : وهـذه الحقيقة (أى حقيقة إحراق مكتبة الأسكندرية) مختلف فيها الآن . فقد قرر الكثيرون أن المكتبة الملكية وكذلك مكتبة السيرابيوم كلاهما ما كانتا تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها . وفرض هؤلاء أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد نقل إلى بوزنطية حين حاصر عمرو الاسكندرية .

وذكرت دائرة المعارف الفرنساوية (ج ٣ ص ٦٤٨) أن مجموعة المؤلفات التى كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى في القرن الرابع الميلادى ، أما الكتب التى كانت بالمتحف فقد أهملت وعبثت بها أيدى الترك حين جاءوا الأسكندرية سنة ٨٣٨ م فخربوا كل الآثار وتطاولت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهملة . اهـ

وهو كلام لم يقم عليه دليل ولا يؤيده نقل ، ولعله يقصد القائمين بأمر الدولة الطولونية .

ومما ذكرنا يعلم أن عمراً وعمر بريئان مما نسب إليهما وأن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف البغدادي الذى مات ولابى الفرج خمس سنين ، ولكننا إذا ألقينا التبعة على أبي الفرج فمن قبيل التساهل لقصد تفنيد روايته التى تحتوي على شئ كثير من التهويل والمبالغة ، لأنها فى اعتقادنا

---

(١) كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ص (٢٨)

عبارة عن أكاذيب وأضاليل) الذى عاش بعد فتح مصر بنحو ستة قرون ولم يسبقه إليها أحد من المؤرخين المعاصرين لهذا الفتح ولا ممن أتى بعده إن هى إلا محض افتراء ليس لها أساس من الصحة على الأطلاق .

يدلك على ذلك ما نقلناه عن المؤرخين المتقدمين وما ننقله أيضاً عما ذكره شبلى افندى النعماني في رسالته فى الرد على من قال بأحراق عمرو لمكتبة الأسكندرية ، وهى تلك الرسالة التى ألفت باللغة الأوردية وترجمت إلى الانجليزية ، وكان بودنا لو ظفرنا بالترجمة الانجليزية إلا أننا عثرنا على ما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية : قالت الهلال :

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى المؤلف) أن أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى إسمه قارون(أهرون)ولد سنة ١٢٢٦م في ملاطية وهوأول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق مكتبة الاسكندريةوتناقلهاعنه كتاب الافرنج حتى قام المؤرخ (جبون) الانجليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه فى صحته لعدم وجود الادلة عليه لانه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد من قبل(وهو يناقض ما قدمناه) فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول .

غير أن المجتهدين منهم فى خلع هذه التهم عن الأفرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا : إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وإنما ذكرها

المقريزى.(وقد قدمنا تأييداً لرأينا أن المقريزى مات بعد أبي الفرج بمدة طويلة) وعبد اللطيف البغدادى وحاجى خليفة من مؤرخى الأسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون ذكرها أيضاً.

قالت الهلال : ثم أخذ صديقنا (أي المؤلف) فى تفنيد هذه الأسانيد فقال : أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثه على الاطلاق .

أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولا أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة ، لأن المقريزي ذكر المكتبة عن عبد اللطيف حرفاً حرفاً،فيبقى عبد اللطيف وحاجى خليفة .

أما عبارة حاجى خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وإنما أشار إلى أن العرب في صدر الأسلام لتعلقهم بالوحى وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (كما قيل) يحرقون الكتب التى يعثرون عليها فى البلاد التي يفتتحونها : فيظهر من ذلك أن عبارة حاجى خليفة لا تفيد ما أراوده : لأنه إنما يريد الاشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم . ولكى يؤيد قوله ألمع إلى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة .

أما عبد اللطيف البغدادى فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى ، وهذا نص عبارته (وقد سبق ان قدمناها) فيظهر من نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاتها. على أن عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث .

ثم أعقب المؤلف هذا التفنيد بالأدلة على عدم إمكان احتراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمر بن الخطاب أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين وأثبت أنها إنما احترقت قبل الاسلام ، أحرق نصفها (يوليوس) قيصر الرومان ، وأتم على باقيها بطارقه الاسكندرية قبل الاسلام . اهـ

ومما يدلك على اختلاق رواية أبي الفرج (ومن تقدمه) ما ذكره (بطلر) إذ حلل هذه الرواية تحليلا لا يسع القارىء الا أن يحكم ببراءة عمرو العاص مما نسب اليه والاعتراف بان مكتبة الاسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الاسلامى بمدة طويلة ، فذكر نقلا عن «أميانوس مارسلينوس» أن السبعمائة ألف مجلد التي كانت تحتوى عليها مكتبة الاسكندرية قد أتلفت إتلافاً تاماً حين حوصر «يوليوس» قيصر الروم بالاسكندرية كما تقدم ، وممن أيد هذا الرأى أورازيوس (١) حيث اعتقد أيضاً أن هذه المكتبة قد دمرت فى حريق يوليوس المذكور ، والأستاذ إسماعيل رأفت بك حيث قال : وقلنا أيضاً انه في هذا الوقت (أي وقت فتح الاسكندرية) لم تكن دار كتب الاسكندرية موجودة وان قسما كبيراً من قسميها أحرقته جنود «يوليوس قيصر» من غير قصد سنة ٤٧ ق . م (كما تقدم أيضاً) وان قسمها الثاني تلاشى كذلك بعد الزمن المذكور بنحو أربعة قرون أى فى سنة ٣٩١ ب . م بأمر

---

(١) هو الذى زار الاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى ووجد جميع رفوف المكتبة خالية من الكتب كما قدمنا .

الأسقف « تيوفيل » ولا ندهش لهذا الأمر لأسباب أخصها أن الآداب والفلسفة الوثنية كلها كانت منعت وقضى عليها قضاء تاماً طول تلك المدة في كل مكان حتى أن « چوتنيانوس » أمر بأغلاق مدارس أثينا . اه

وأضاف « بطلر » : ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص احراق الكتب فى فارس . وقد علق الاستاذ « برى » بقوله : إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس قد يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصارى إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله اه

وإذا سلمنا جدلاً بأن إحراق مكتبة الأسكندرية قد حصل فعلا كما رواه أبو الفرج الذي ذكر أن الكتب قد وضعت في سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور فأن هذا الخبر على ما يظهر لنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلا . إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر بأحراقها فى الحال ، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذى يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات ، فلا يصعب بذلك على « يوحنا » أو أى انسان سواه أن يستولى على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس ، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفى لتحقيق هذه الأمنية وهى انتشال عدد كبير منها من مخالب النيران. على أن ما جاء برواية أبي الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات سبعة شهور ، مما يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا ، لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم (وهو قليل بصرف النظر عن أن حجم هذه المؤلفات كان صغيرا جداً) لبلغ هذا العدد الذى أحرق فى ذلك الوقت ٧٢٫٠٠٠٫٠٠٠

مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة بنحو ١٠٣ مرة تقريباً . ويستدل مما ذكرنا أن السبعمائة ألف مجلد لم تكن لتكفى الأربعة آلاف حمام ساعة واحدة لا ستة شهور.

وزاد على ذلك حضرة أستاذنا اسماعيل رأفت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله : مع أن الكاغد بقطع النظر عن الرق وإن كان يصلح لأيقاد النار ، الا أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلا(١) ! !

وقد برهن (بطلر) على أن يوحنا النحوى الذى ذكره أبو الفرج فى روايته لم يكن حياً يرزق وقت فتح الأسكندرية سنة ٦٤٢ م ، لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع « ديوسقوروس » و « جايوس » و « ساويرس أسقف انطاكية » فى الكتابة ضد مجمع خلقدونية وظلوا حتى تولى جوستنيان (٥٢٧ ب . م) ، ويكون قد عاش بضع سنين فى أوائل القرن السابع الميلادى : أى قبل سنة ٦٤٢ م . ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وذكر أيضاً أن السيرابيوم كانت دمرت سنة ٣٩١ م . (كما قدمنا) وبُنى على أنقاضها كنيسة

---

(١) وافق بطلر حضرة الاستاذ فقال : ان معظم الكتب التى كانت بالسيرابيوم كانت من الكاغد الذى كان يفضله القبط كثيرا ، وختم كلامه بقوله: إذا كانت أوامر الخليفة قد حالت دون احراق هذه الكتب ، فماذا حدث إذاً لكل الكتب المنسوخة بخط اليد ؟ واستدل من ذلك على أن هذا الخبر خرافة مضحكة ولا يسع الانسان إلا أن يصغى ويعجب .

أو جملة كنائس مسيحية ولم يبق منها الا حوائط كما ذكر « سديو » . فلا يبعد أن تكون أيدى النصارى قد تطاولت الى الكتب الوثنية فأتلفوها كلها ، وحملوا الكتب العلمية الى القسطنطينية . ولا نستبعد هذا الأمر إذا علمنا أن النصارى قد هشموا هيكل « سرابيس » وأحرقوه فى الحال ولم يتركوا أي حجر من أحجار أشهر وأفخم معبود فى العالم قائماً اهـ

ومن هذا نرجح أن الكتب قد التهمتها النيران التي أضرمت لأحراق هذا الهيكل لا أن تكون قد حملت الى القسطنطينية . يؤيد ذلك ما ذكره « اورازيوس » من أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب ، وذلك قبل سنة ٤١٤ م ، وهى السنة التى كتب فيها عن زيارته لهذا المكان لا عن إحراق مكتبة الاسكندرية.

وختم (بطلر) كلامه عن حريق مكتبة الأسكندرية فقال : لا أزال أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً لهذا السبب ، لأن العرب لم تدخل الأسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً ، وقد ذكر في عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم ، وفى غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم . وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الأسكندرية نهائياً فى أيدى العرب.

لقد أوردنا كثيراً من أقوال المؤرخين بشأن إحراق مكتبة الأسكندرية لكى نثبت بعد فحص هذه الأقوال والآراء إن كان عمرو ابن العاص هو الذى أحرقها بأمر الخليفة عمر أو أن هذه المكتبة لم تكن

موجودة حين الفتح الأسلامى ، فنرى بعد هذه الأقوال الجلية الكثيرة أنه لم يكن بالأسكندرية ما يحرق وقت الفتح . وعلى هـذا لا يسعنا إلا تكذيب رواية أبي الفرج الذى نسب هذه التهمة إلى كل من عمرو وعمر وهما منها بريئان . يشـهد بذلك ما نذكره من الأدلة القاطعة على دحض رواية أبى الفرج . وإليك هذه الأدلة التى نستنتجها مما مر من الأقوال لنعزز بذلك رأينا بإيجاز فنقول :

١ عند تحليل رواية أبى الفرج ظهر لنا لأول وهلة أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل وأنها أشبه شيء بخرافة طالما نعثر على أمثالها فى أسفار المتقدمين . من ذلك ان كتب هذه المكتبة قد كفت أربعة الآلاف حمام ستة شهور ، وقد أثبتنا أنها لم تكن تكفيها ساعة واحدة

٢ أما يوحنا الذى ذكره أبو الفرج فقد دل « بطلر » بأجلى بيان على أنه لم يكن على قيد الحياة وقت فتح الاسكندرية ، وأنه توفي قبل استيلاء العرب عليها بثلاثين أو أربعين سنة على الأقل

٣ إن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف) ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ، ولو سلمنا جدلا بصحة هذه الرواية لما مر عليها مؤرخان شهيران معاصران للفتح الاسلامى وهما « أوتيخوس » الذى فصل خبر فتح الاسكندرية تفصيلاً مسهباً ، وكذلك « يوحنا أسقف نقيوس » وهو مؤرخ عاش أيضاً في القرن السابع الميلادي وتاريخه عن فتح مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ويركن إليها . ولم يذكر هذا الخبر البتة أحد من المؤرخين المتقدمين كالطبرى واليعقوبى والكندى

وابن عبد الحكم والبلاذرى ، حتى جاء أبو الفرج (وكذا عبد اللطيف) فذكرها في القرن الثالث عشر بعد الميلاد : أى بعد ستة قرون

٤ إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين مرة فى عهد يوليوس القيصر فأتلف كثيراً مما كان بها من الكتب ، ثم أحرقت اخيراً بتمامها في حكم ققيصر (طيودوس) بأمر الأسقف (تيوفيل) سنة ٣٩١ م بواسطة جماعة من المتعصبين للنصرانية ، ولم يبقوا على هيكل (سيرابيس) وأحرقوا الكتب التى كانت بالسيرابيوم أو نقلوها إلى القسطنطينية

٥ إن زيارة « أورازيوس » المتقدم الذكر للأسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى تثبت أنه لم يكن لهذه المكتبة وجود قبل دخول العرب فى الأسكندرية بنحو قرن ونصف قرن ، ولا أدل على هذا من قوله إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب — وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى

٦ إن التعاليم الاسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف) إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والنصرانيه وأنه لا يجوز إحراقها . أما غيرها من الكتب العلمية فيجوز أن ينتفع بها المسلمون . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب الذين ما كانوا يتعرضون لما فيه ذكر الله .

٧ وإذ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس ، فمن المعقول أن النيران تلتهم ما فيه من الكتب فلا تبقى عليها ولا تذر

٨ وفي غضون القرون الخامس والسادس والسابع : أى بعد حريق

هذه المكتبة لم يرد لها ذكر في الآداب إذ ذاك .

٩ ولو كانت مكتبة الأسكندرية لم تزل باقية عند الفتح الأسلامى لما أحجم الروم عن نقلها إلى القسطنطينية ، وقد أجازلهم عمرو حسب عقد الصلح والهدنة حمل ما يقدرون عليه من رخيص وغال، ولديهم من الوقت ما يكفى لتحقيق هذا الغرض .

فنرى أن القول بأن إحراق مكتبة الأسكندرية كان بأمر عمرو بن العاص محض افتراء ، فأنه حصل إحراقها مراراً قبل دخول العرب مصر ، والمكتبة القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى . ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه يد عمرو بالحرق .

(٤) (ا) عمرو وتتمة الفتح فى مصر :

إستولى عمرو بن العاص على العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ، واستولى على هليوپوليس وقصر الشمع وما والاهما ، وصالح المقوقس وفرض على المصريين الجزية ثم سار إلى الأسكندرية ، وأخضع فى طريقه كلا من نقيوس وطرنوط وكوم شريك وسلطيس والكريون ، وأقام على حصار الاسكندرية حتى فتحها الله على يديه وفرض على أهلها الجزية كباقى مدن مصر ، وضرب عليهم الضرائب ، فانطفأ سراج الروم من هذه الديار .

ومما ذكرنا يعلم أنه لم تخضع لسلطان عمرو جميع البلاد قاصيها ودانيها ، وأن شروط الصلح قد شملت جميع المصريين وأصبحوا بحكم هذه المعاهدة

فى حوزة العرب ، إلا أنه كانت لا تزال أمامه مدن لا مندوحة له من الاستيلاء عليها ليتم له بذلك فتح مصر كلها .

أما كون هذه البلاد قد فتحت قبل استيلاء عمرو على بابليون أو بعده ، أو بعد حصاره للاسكندرية ، فأمر قد لغط المؤرخون فيه . وكان بودنا أن نتعمق فى البحث حتى نقف على جلية الأمر ، وأى الرأيين أحق أن يتبع ، إلا أننا لم نؤبه لذلك لان هـذه الوقائع ثانوية محضة ، أعنى أنه لم تتوقف عليها أهمية كبرى ، أو أعقبتها نتائج خطيرة . ولنذكر بعض هذه الوقائع بايجاز حتى لا نركب الشطط ، إذ لا تزال هنـاك أمور أحق بالاسهاب وأولى بالتفصيل وأجدر بالتعمق فى البحث ، نرجئها حتى يأتى حينها فنقول :

روى البلاذرى في فتوح البلدان (ص٢٢٤) أن عمرو بن العـاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ، ووجه خارجة بن حذافة العدوى إلى الفيوم والاشمونين وأخميم والبشرودات (١) وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك .

ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونة (٢) ودميرة (٣) وشطا ودقهلة (٤) وبنا (٥) وبوصير (٦) ففعل مثل ذلك ووجـه عقبة

---

(١) لعلها البشرود (بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والدال مهملة) التى ذكرها ياقوت فى معجمة فقال : كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض .

(٢) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : تونة : هي جزيرة من نواحى مصر

ابن عامر الجهنى (ويقال وردان مولاه) إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك . فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج . اهـ

من فتوح عمير بن وهب . وبها جزيرة قرب دميرة .

(٣) قال ياقوت في معجمه : دميرة (بفتح اوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحته) قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وهما دميرتان : احداهما تقابل الأخرى على شاطىء النيل فى طريق من يريد دمياط

(٣) ذكرها ياقوت في معجمه فقال: دقهلة : بلد بمصر على شعبة من النيل بينها وبين دمياط أربع فراسخ وبينهـا وبين دميرة ست فراسخ ، ذات سوق وعمارة ويضاف اليها كورة فيقال كورة الدقهلية . وذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال : هي قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركزفارسكور وسميت المديرية باسمها

(٥) ذكرها ياقوت فى معجمه فقال : بلدة قديمة بمصر وتضاف اليها كورة من فتوح عمير بن وهب ، قال أبو الحسن المهلبى : من الفسطاط الي بنها ثمانية عشر ميلا والي صنهشت ثمانية أميال والي مدينة بنها وهى مدينة جاهلية لها ارتفاع جليل ومنها الي سمنود ميلان

(٦) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : بوصير (بكسر الصاد وياء ساكنة وراء) اسم يشترك فيه أربعة بلاد بالديار المصرية فمنها بليدة بكورة السمنودية من الوجه البحرى ومنها (بوصير) الفيوم و(بوصير) الجيزة و(بوصير) البهنسا أما (بوصير) التى بالوجه البحرى فتسمى بنا لقربها من قرية بنا الراقمة على شاطىء النيل الغربى ، وبين بوصير هذه وبنا نحو فرسخين ، وهذه هي التي توجه اليها عمير بن وهب وفتحها

الفيوم:

قال السيوطي (جـ ١ ص ٦٢) : أقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بها ولا مكانها حتى أتاهم آت فذكرها لهم ، فأرسل عمرو ومعه ربيعة بن حبيش ابن عرفطة الصدفي فألقى أهل الفيوم بأيديهم من غير قتال .

دمياط :

ذكر المقريزى (جـ ١ ص ٢١٣ – ٢١٤) أن الذى وجهه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود ، وكان عليها رجل من أخوال المقوقس يقال له (الهاموك) فامتنع بدمياط واستعد للحرب وحارب المسلمين وقتل ابنه فى الحرب فعاد إلى دمياط وجمع أصحابه فاستشارهم فى أمره ، وكان عنده حكيم قد حضر الشوري فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد إلا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم تردَّ لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع ، وأن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر ، والرأي أن تعقد معهم صلحاً ننال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت أكثر رجالا من المقوقس ، فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب عليه فقتله . وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور ، فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلّهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ، وبرز الهاموك للحرب فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور المدينة وقد ملكوها .

فلما رأي « شطا » بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه

عدة من أصحابه ففتّ ذلك في عضد أبيه واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط، واستخلف المقداد عليها وسيّر بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص. اهـ

البرلس (١) والدميرة (٢) وأشموم طناح (٣) وتنيس (٤) وشطا (٥)

---

(١) ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: البرلس (بضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعد سين مهملة) ثغر عظيم من ثغور مصر، ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة واقعة فى الرمال التى بين البرلس وشاطئ البحر والبرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط، وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية

(٢) دميرة واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس، ذكرها ابن دقماق (ج ٥ ص ٧٩) عند كلامه على تنيس ودمياط فقال: قال الحافظ جمال الدين: وبتنيس ودمياط يعمل القماش الرفيع وان كانت شطا ودبيق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع من القماش، ولا بد أن يكون العرب قد استولوا على هذه المدينة مع تنيس ودمياط.

(٣) ذكرها ابن دقماق فقال. اشموم طناح وهى (بضم الالف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى آخرها ميم وقيل نون) تعرف بأشموم طناح، وأشموم الرمان، وهى قصبة كورة الدقهلية وهي مدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق، وهي على خليج النيل الشرقى وهو البحر الذى حفره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى

(٤) وقد أطنب كل من المقريزى وابن دقماق بذكر تنيس فقال المقريزى: كانت تنيس مدينة كبيرة وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وكان يعمل بها الرفيع من القماش. وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمه غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج الى تفصيل أو خياطة وقيمته الف دينار (٥) مدينة عند تنيس

ذكر المقريزي فى خططه (ج ١ ص ٢١٤) : وخرج شطا وقد أسلم إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح ، فحشد أهـل تلك النواحى وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم ، وسار بهم لفتح تنيس ، فبرزلأهلها وقاتلهم قتالا شديداً حتى قتل رحمه الله فى المعركة شهيداً بعدما أنكى فيهم وقتل منهم ، فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط . وكان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان ، فلذلك صارت تلك الليلة من كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحى عند شطا ويحيّونها وهم على ذلك إلى اليوم

وكان على تنيس رجل يقال له « أبو ثور » من العرب المتنصّرة ، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز لهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور فى أيدى المسلمين ، وانهزم أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعاً وقسموا الغنائم . اه

أما أبو ثور الذى ذكره المقريزى وابن دقماق وغيرهما فيظهر لنا أنه اسم مختلق . والذى يؤيد ملاحظتنا إدعاؤهم أنه كان من العرب المتنصرة ، مع أننا لم نسمع بأن هؤلاء العرب قد اشتركوا مع الروم في مصر حين الفتح الاسلامي .

ودمياط واليها تنسب الثياب الشطوية ويقال إنها عرفت بشطا بن الهاموك ، وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا

ومن الخطل أن نوافق هؤلاء المؤرخين فيما يختص بعدد الجند الذين جمعهم حاكم تنيس . ونرى أنهم ربما بلغوا ألفين لا عشرين ألفاً ، وذلك لسببين :

(١) : لأن تاريخ فتح مصر لم يدوّن إلا بعده (الفتح) بقرنين على الأقل .

(٢) : لا ننا لم نعثر في كتب مؤرخي القبط المعاصرين للفتح على ذكر « لا بى نور » ولا للعشرين ألفاً ، وممن أيد هذا الرأي أيضاً الدكتور « بطلر »

أما « شطا » الذى سميت المدينة باسمه فقد نقل « بطلر » عن « يوحنا أسقف نقيوس » أن مدينة شطا كانت معروفة قبل الفتح الاسلامى بزمن طويل ، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون من قواد القبط إعتنق الأسلام وحارب فى صف العرب بحمية وبسالة .

هل فتحت مصر صلحاً أو عنوةً

إختلف المؤرخون في فتح مصر فقال قوم إنها فتحت صلحاً وقال آخرون إنما فتحت عنوة . ولم تؤد أقوالهم إلى نتيجة ما ، سوى سرد بعض الروايات وعدم تمحيصها لكى يهتدوا بذلك إلى رأى قاطع في هذا الموضوع

وقد قدّمنا شروط الصلح التى كانت بين عمرو والمقوقس . ولنذكر الآن بعض هذه الروايات المتباينة المتناقضة بأيجاز ليتسنى لنا بذلك ترجيح أحد القولين : أعنى كونها فتحت صلحاً أو عنوة .

والظاهر أن اضطراب المؤرخين راجع إلى أمور يعلم منها أن بعض مدن مصر فتح صلحاً والبعض الآخر فتح عنوة .

وإليك هذه الأمور :

١ — من الشروط التى كانت بين عمرو والمقوقس أثناء فيضان النيل (أى حين جنح المقوقس للصلح ودفع الجزية) يتضح أن عمراً عامل أهل مصر معاملة من فتحت بلادهم صلحاً . ولكن نظراً لرفض « هرقل » هذه الشروط واستمرار الروم في الدفاع عن الحصن حتى فتحه العرب عنوة ، يتضح أن هذا الفتح كان عنوة . ولكن إذا لاحظنا أن الحامية الرومية سلمت بشروط الصلح السابقة الذكر ، وأن عمراً أجابهم إلى ذلك يتبين أن الحصن فتح صلحاً وأن هذا العهد شمل جميع المصريين ممن فرضت عليهم الجزية .

٢ — وأما ما يتعلق بمدينة الأسكندرية فيتضح أنها سلمت قبل أن يتم لعمرو الاستيلاء على المدينة ، وأبى عمرو أن يقسم الغنائم أو يسبى أهلها فضرب عليهم الجزية . ولما نقض الروم الصلح عاد عمرو من بابليون واستردها ، وبذلك فتحها عنوة وأراد أن يجعل أموالهم فيئاً للمسلمين فأبي عليه عمر وأمره أن تكون كسائر بلاد مصر ، فأحصى من دخلوا فى عهد الصلح من الأهالى فكانوا ثلثمائة ألف فضربت عليهم الجزية وأمروا بدفع الخراج .

٣ — على أن عمراً قد استولى بالفعل على قرى بلهيب (١) وسلطيس

(١) قال ياقوت فى معجمه . بلهيب من قرى مصر كان عمرو بن العاص حين قدم مصر صالح أهل بلهيب على الخراج والجزية . إلا أن بلهيب وخيس وسلطيس وقرطيا وسخا فانها أعانت الروم على المسلمين

وقرطيا وغيرها وسبى أهلها لأنهم ظاهروا الروم على العرب وفرقت سباياهم حتى وصلت المدينة ، فردهم عمر وصيّرهم أهل ذمة .

وإذا أنعمنا النظر في هذه النتائج الغريبة لفتح مصر ومبلغ الاختلاف في روايات المؤرخين ، جاز لنا أن نؤكد أن هؤلاء المؤرخين كانوا معذورين في اعتقاداتهم وما وصلت إليه أفكارهم من الاضطراب والتشويش والتعقيد .

ولعلّ ذلك راجع لبقاء العربي مدة قرنين مكتفياً بسرد روايات الفتوح الأسلامية شفوياً وعدم تدوين ما وقع من الحوادث كتابةً ليكون أدعى للبقاء ، وما كنا نقرأ أن زيداً الراوية روى عن خالد مثلا أن مصر فتحت صلحاً أو عنوة .

فمن هنا جاء التناقض وتولد الاختلاف ، وضاعت أكثر حقائق التاريخ وأصبح البحث عن هذه الحقائق شاقاً على النفس غير محتمل الوصول اليها إلا في القليل النادر . من ذلك أن بعض المؤرخين روى أن حصن بابليون فتح صلحاً ، وذكر بعضهم أنه فتح عنوة . وكذلك الحال فيما يتعلق بفتح الأسكندرية .

ومن المؤرخين الذين اتفقوا على أن مصر فتحت صلحاً : البلاذرى (ص ٢٢٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وابن عبد الحكم (ص٧٦) عن الليث فقال ان مصر فتحت كلها صلحاً ما عدا الاسكندرية فأنها فتحت عنوة ، وعن هشام بن اسحق العامرى أن شروط الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر ستة وهى :

(١) لا يخرجون من ديارهم

(٢) ولا تُنتزع نساؤهم

(٣) ولا كنوزهم

(٤) ولا أراضيهم

(٥) ولا يزاد عليهم

(٦) ويُدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم (١)

فصارت الأرض بذلك أرض خراج، على أن يكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين، ولا يجعل المسلمون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا. (ابن عبد الحكم ص ٧٦ — ٧٩ والمقريزي ج١ ص ٢٩٤)

ومن المؤرخين الذين ذكروا أن مصر فتحت عنوة، المقريزى عن ابن لهيعة، وعن زيد بن أسلم أنه كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين من عاهدوه. فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد؛ وابن عبد الحكم عن يحيى بن عبد الله بن بكير أنه خرج أبو مسلمة ابن عبد الرحمن يريد الأسكندرية في سفينة فاحتاج الى رجل يجذف فتسخر رجلا من القبط فكلم فى ذلك فقال: انما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم.

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص قال: لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد. وعن يحيى بن بكير

---

(١) والشرط السادس لم يذكره ابن عبد الحكم ولكنه ورد فى كتاب معاوية لعقبة بن أبى سفيان حين سأله هذا أرضاً يسترفق فيها عند قرية عقبة

أن مصر كان فتح بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة .

ولكن إذا عرفنا أن مصر فتحت بالسيف واستولى عليها العرب بعد ان طردوا الروم منها وهم المساطون عليها ، فلا نحجم عن القول بأنها فتحت عنوة ، وان المؤرخين الذين ساروا على هذا الرأى قد نظرو الى الفتح من الوجهة العسكرية وهو صحيح ، بدليل قول عمرو بن العاص « لقد قعدت متعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد » والظاهر أن الذين يميلون الى القول بأن مصر فتحت عنوة يستدلون بما كان من الحرب بالفرما وبلبيس وأم دنين والاسكندرية ، وكون هذه البلاد لم تفتح إلا بعد جهاد ونضال .

ولكن لا نغفل نص الصلح الذى كان بين عمرو والمقوقس وهو متداول معروف رواه أكثر المؤرخين المعدودين كالطبرى وابن عبدالحكم والبلاذرى والمقريزي والمسعودى ، ومنه يعلم أن عمراً أبى أن يقسم الغنائم قبل أن يكتب لعمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر يأمره بأجابة المصريين إلى دفع الجزية والخراج .

وهذا يدل على سياسة رشيدة من جانب كل من عمر وعمرو ، الذي لا بد أن يكون قد اقترح على أمير المؤمنين أن يعامل المصريون معاملة من فتحت بلادهم صلحاً لكي يتألف بذلك قلوبهم . وهذا يحدث كثيرا عقب فتوح البلاد فيتجاوز الفاتحون عن بعض أمور فى مصلحة البلاد المحكومة لكي يستقر بذلك ملكهم على أهون سبيل .

يدلك على ذلك قول عمر لعمرو « واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وإنما هى أرض صلح وما فيها للمسلمين فيء »

أما كون أبى مسلمة بن عبد الرحمن قد تسخّر رجلا من القبط يجذف له وأنه اعتبر القبط كالعبيد ، فأن هذه الحادثة الفردية لا تدل بأى حال على أن مصر فتحت عنوة .

ولا يمكننا أن نسلّم بذلك من أجل حادثة كهذه ، إذ قد يكون هذا القبطي قد تطوع للقيام بما طلب منه عن طيبة خاطر ، وأن عمل هذا الرجل لا يصلح أن يكون حجة على أمـة بأسرها ، ولا ناقضاً لأقوال الآخرين الذين ذكروا أن أهل مصر إنما هم أهل صلح .

أما قول يحي بن خالد أن مصر فُتح بعضها صلحاً وبعضها عنوة وأن عمر جعلها كلها ذمة ، فهو القول الذي نميل إليه ونرغب فى ترجيحه ، وهذا ما يمكن أن نستنبطه بعد بحث وتمحيص أقوال المؤرخين المتباينة . ومادام عمر رضى الله عنه قد أمر أن تعامل البلاد جميعها معاملة الصلح فيدفع أهلها الجزية والخراج ، لا أن تكون ملكا للفاتحين يتصرفون فيها كيف شاءوا فيستولون على أراضيها وأموالها ويسبون نساءها ، فأننا نرجح أن مصر فتحت عنوة ، ولكن عمر عاملها معاملة البلاد التى فتحت صلحاً ليتألف بذلك قلوب المصريين .

(٥) عمرو وتثبيت الفتح :

(ا) عمرو وفتح برقة وطرابلس :

لم تقف همة عمرو العالية وعزيمته الماضية عند حد القناعة بفتح مملكة

الفراعنة وإخراج الروم منها وضياع سلطانهم على يديه ، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية وهى بلاد المغرب . ومما دعاه إلى القيام بهذا العمل شغفه بالفتح ورغبته فى نشر لواء الاسلام ، وميله إلى القضاء على سلطان الروم من البلاد الواقعة غربى الديار المصرية ، ليأمن على مصر من هجماتهم إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها .

فلما فتح عمرو الاسكندرية سار فى جنده يخترق الصحراء حتى بلغ برقة (١) . وإقليمها هو حد مصر من الغرب ، وتسمى أنطابلس كما قال ابن دقماق والسيوطى . إفتتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية وقدرها ثلاثة عشر ألف (١٣٠٠٠) دينار يؤدونها إليه . ومن هنا يستدل على أنها فتحت صلحاً لا عنوة .

وقد أيد رأينا السيوطي (جـ ١ ص ٦٣) وابن دقماق (جـ ١ ص ١٤) وغيرهما .

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس (٢) فى سنة ٢٢ للهجرة

---

(١) قال المرحوم على مبارك باشا في خططه : إن برقه تسمى فى لغة الروم (بنطابوليس) يعنى الخمس مدن . لأن (بنطا) معناها خمسة و(بوليس) : معناها مدينة ، وبرقة واقعة في صحراء حمراء هي دائمة الرخاء كثيرة الخير ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ، ويحمل الى مصر منها العسل والقطران .

(٢) ذكرها البلاذرى وابن دقماق (أطرابلس) وذكرها على مبارك باشا (طرابلس) فقال : ومعنى (طرابلس) ثلاث مدن ، فان (طرا) معناها ثلاث

(يونيه سنة ٦٤٣ م) على ما ذكره البلاذري (ص ٢٣٣) والكندى (ص ١٠)وبطلر (ص ٤٣٨)، وكانت حصونها أقوى من حصون برقة وحاميتها أكثر عدداً فامتنعت عن العرب شهرا كاملا (١) .

ولما أنهك أهلها الجوع وشدة القتال تمكن العرب من الاستيلاء على المدينة من جهة البحر لأنه لم يكن لها سور من جهته ، فغزوا أهل المدينة وجندها بحرا ودخلها عمرو بجنده ، ومن ثم عاد إلى برقة حيث أذعنت لطاعته قبيلة لواته التى كانت تسكن معظم هذه البلاد .

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين : إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين افريقية (تونس) تسعة أيام فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل . . . فكتب إليه عمر ينهاه عنها ويأمره بالوقوف عند هذا الحد ، فعاد مكرهاً بعد أن استخلف على البلاد عقبة بن نافع الفهرى الذى صار اليه بعد ذلك فتح المغرب (٢) اهـ

وحسناً فعل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، لأنه كان أحرص ما يكون على جند المسلمين ، وأمره عمراً بالوقوف عند هذا الحد يدل على حسن سياسته وبعد نظره ، لأن تغلغل عمرو فى جوف تلك الأراضى الواسعة

و(بلس) معناها مدينة .وقال البكرى : وطرابلس مدينة على البحر لها سور من الحجر وبها جامع وأسواق وحمامات وهى كثيرة الفاكهة .

(١) ذكر ياقوت أن الحصار دام ثلاثة أشهر وذكر ابن خلدون أنه دام شهراً واحداً ، وقال ابن عبد الحكم انها افتتحت سنة ٢٣ هـ ، وهذا يدل على أنها افتتحت بعد برقة بمدة طويلة اللهم الا اذا كان فتح الأخيرة فى نهاية سنة ٢٢ هـ

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٢٣٣)وتاريخ اليعقوبى (جـ ١ ص ٢٣٣)

والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل ، سيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة فى حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد .

فكان من رأى عمر أن يحتفظ بما فى يديه وأن لا يطوح بجنده في مهاوى التهلكة وفى معامع حروب لا يعلم نتيجتها إلا الله .

عمرو وفتح النوبة :

لم يكتف عمرو بتأمين مصر من جهة الغرب بل حاول أن يؤمنها من الجهة الوحيدة التي كانت لا تزال مصدر الخوف : وهى جهة الجنوب ، فبعث نافع بن عبد القيس الفهرى (وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه) فدخلت خيلهم أرض النوبة فقاتلهم أهلها قتالا شديدا فانصرفوا . ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر ووليها عبد الله بن سعد وصالحهم ، وذلك في سنة ٣١ هـ على ان يؤدوا للمسلمين ثلثمائة وستين رأساً ولوالى البلد أربعين رأساً . (١)

(ج) عمرو وانتقاض الروم فى الاسكندرية .

على أن الفتح برغم هذا كله لم يستقر لعمرو ، فما زال الروم يتطلعون

---

(١) تاريخ اليعقوبى (ج ١ ص ١٨٠)
أما شروط الصلح التي عقدها المسلمون مع أهالي النوبة فهى كثيرة وقد ترجمها « ستانلى لين پول » فى كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » (ص ٢١ـ ٢٣) .

إلى مصر ، وما زال فى مصر ناس يتطلعون إلى الروم . وكان انتقاض الروم في خلافة عثمان بن عفان (١) في السنة الخامسة والعشرين . (٢)

وقد قيل في سببه أن «طَلَما » صاحب إخنا قدم على عمرو فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ، فأبى عمرو فغضب صاحب إخنا وخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم عمرو وأسر القبطى وأتي به إلى عمرو فأطلقه رغماً عن إلحاح الناس بقتله ، فرضى طلما باداء الجزية وعدّ إطلاقه مكرمة عظيمة من عمرو حتى أنه صرّح بأنه لو أتى به إلى ملك الروم لقتله لوقته .

ونحن نرى أن هذا الخبر لا أساس له لأن عمراً لم ينقض عهده مع القبط أو زاد خراجهم ، حتى أدى تمسكه بذلك إلى إزدياد النفرة والجفاء بينه وبين عمر

أما السبب الذى يمكن الجزم بصحته فقد رواه ابن الاثير ، وهو أن أهل الاسكندرية كتبوا إلى « قسطنطين » امبراطور الروم يهوّنون

---

(١) بويع عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ واستهل المحرم سنة ٢٤ هـ ، وفى خلافته نقض الروم صلحهم واعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر وتولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(٣) ممن اتفق على هذه السنة البلاذرى (ص ٢٢٨)(وفى قول آخر له سنة ٢٣ هـ) وابن الاثير (حـ ٣ ص ٣٩) وأبو المحاسن (حـ ١ ص ٨٨) الذى حذا حذو البلاذرى إلا أنه رجح سنة ٢٥ . والمقريزى (حـ ١ ص ١٦٨) والسيوطى (حـ ١ ص ٧٠) واليعقوبى (حـ ١ ص ١٨٩) وبطلر (ص ٤٩٦) وستانلى لين بول (ص ٢١)

عليه فتح الاسكندرية لقلة ما بها من حامية المسلمين. فتدبر قسطنطين الأمر، ولم يكن جرح الروم قد اندمل من ضياع مصر مصدر ثروة الامبراطورية، فأمر بأن تعدّ على جناح السرعة وفي طيّ الكتمان عمارة بحرية لغزو الاسكندرية . وكان الروم فى ذلك الحين لا يزالون سادة البحار ، فلم تجرأ أمة من الامم على مناوأتهم أو منافستهم في هذا المضمار .

انتصار عمرو على الروم :

قدم «منويل » الخصي الى الأسكندرية على رأس جيش رومى كبير واستولى عليها ، فزحف عمرو فى طريق الاسكندرية سالكا الطريق التى كان قد سلكها من قبل وضمّ تحت لوائه كثيرين من القبط .

وزحف « منويل » ومعه من نقض من أهل الاسكندرية وغيرها من قري الدلتا وأخذوا يعيثون فى الارض فساداً ، ينزلون القري فيشربون خمرها ويأكلون أطعمتها وينهبون كل ما مروا به من دواب ومتاع ونحو ذلك ، فلم يتعرض لهم أهالى تلك القرى لضعفهم حتى وصلوا الى (نقيوس) حيث اشتبكوا مع المسلمين . (١) فى القتال فى البر والبحر (٢) وكثر الترامى بالنشاب حتى أصابت فرس عمرو ، فنزل عنه ثم شدّ المسلمون على الروم وقاتلوهم قتال المستميت وما زالوا بهم حتى غلبوهم على أمرهم

(١) كان جند المسلمين خمسة عشر ألفاً على ما رواه البلاذرى (ص ٢٢٩) ولا شك أن جيش الروم كان اكبر من جيش المسلمين ،

(٢) يراد بكلمة « البحر » ـ القناة التي كانت تمر بمدينة نقيوس ؛

وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً بحسن قيادة عمرو بن العاص . ولم يقف عمرو عند هذا الحد ، بل تعقّب الفالة الى الاسكندرية واستردها منهم ووضع في رقابهم السيف . ثم أوقف رحى الحرب وأمر بان يبنى في الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة ، وقد قتل « منويل » فى هذه الموقعة التى لم تقل هولا عن سابقاتها (١)

وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد حلف لئن أظفره الله عليهم ليهدمنّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتي من كل مكان

---

(١) زعم كثير من مؤرخى العرب كالمقريزى (حـ ١ ص ١٦٧) والسيوطي (حـ ١ ص ٧٠) وغيرهما أن عمراً قد ضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط . مع أنه قد مات منذ مدة طويلة فخلطوا روايتهم فتكلموا على انتقاض الروم فى ولاية عثمان من حيث يريدون انتقاضهم الاول ، ولعلهم عنوا (بنيامين) الذى كان حقيقة كبير القبط يومئذ فخلطوا بينه وبين المقوقس الذى كان كبير القبط أيضاً فى أثنـاء فتح مصر منذ بضع سنوات . وقد شك البلاذرى فى بقاء المقوقس إلى هذا العهد فقال (ص ٢٢٩) : قيل إن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا فأقرّه عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة ، فكأنهم أرادوا (بنيامين) من حيث كانوا يريدون المقوقس .

وممن سار على هـذا القول ايضاً ، بطلر (ص ٤٧٨ ـ ٤٨١) وستانلى لين بول (ص ٢١)

الباب الثالث

ولاية عمرو الاولى على مصر وأعماله الادارية فيها

(١) عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب

لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر أرسل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتاباً يصفها له فيه ويشرح له السياسة التى سيتخذها فيها.

مصر تربة غبراء (١) وشجرة خضراء (٢) طولها شهر وعرضها عشر (٣) يكنفها جبل أغبر (٤) ورمل أعفر (٥) يخطُ وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات (٦) يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان (٧) تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى إذا عجّ عجاجه (٨) وتعظّمت أمواجه (٩) لم يكن وصول بعض أهل القرى الي بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته نكص (١٠) على عقبه كأول مابدأ في شدته وطما فى حدته (١١) فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه (١٢) يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتي اذا

---

(١) سهلة الانبات (٢) بمعنى أنها كثيرة الشجر الاخضر (٣) لعله يريد أن الماشى يقطعها طولا فى شهر وعرضاً فى عشرة أيام (٤) يحيط بها جبل ضارب الى السواد (٥) أبيض مائل الى الحمرة أوالصفرة (٦) محمود الذهاب والاياب (٧) يزيد وينقص فى أزمنة معينة (٨) معظم مائه (٩) تقطعت وتسرّبت فى الاراضي (١٠) رجع وذهب (١١) أى نقص بشدة كما زاد بقوة (١٢) أعالى الارض وأسافلها

أشرق وأشرف (١) سقاه من فوقه الندى وغـذاه من تحته الثرى فمنذ ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه (٢) فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء، وإذا هى زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينمّيها ويقر قاطنها فيها، أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وأن لا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانهـا، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتراعها، فاذا تقرر الحال مع العمال فى هـذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل. (٣)اهـ

وصف عمرو مصر لعمر بهذا الـكتاب الذى رواه كثير من المؤرخين المتأخرين، ولـكننا نشك فى أن ألفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو فى صدر الأسلام.

قال أبو المحاسن: فلما ورد هـذا الـكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص لقد وصفتَ لى خبراً كأني أشاهده.

وقد تُرجم كتاب عمرو بن العاص الذى أرسله إلى عمر لما استولى على مصر، ونشر هذه الترجمة الـكاتب الفرنساوى الشهير «أوكتاف أوزان» في جريدة (الفيجارو) الفرنساوية، ونقلته عنها برمته مع التعليقات التى علقها عليه المسيو «أوزان» والذى وصف فيها هـذا الـكتاب بأنه من اكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وقال عنه إنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة، حتى يتعلموا

وأسافلها(١) ظهر وبان (٢) يعظم محصوله

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابي المحاسن (جا ص٣٣ – ٣٤)

منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الاشياء وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار .

وقد ترجم هـذا الوصف من مؤرخي الأنجليز المؤرخ « جبون » والدكتور « بطلر »

(ب) *تحول عمرو الى الفسطاط وتحبيبه الى القبط ورده بنيامين الى كرسيه*

بعـد استيلاء عمرو بن العاص على الأسكندرية تحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الفسطاط بعد أن أقرّه واليـاً عليها ، وسبب تحوله أنه لما فتح الأسكندرية ورأي بيوتها وبناءها مفروغاً منها (قد شُيّدت غير محتاجة إلى إصلاح) وقد جلا من كان يسكنها من الروم ، همَّ أن يسكنها وقال : منازل قد كفيناها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت.اه

كانت الصلة بين مصر وبين الدول المالكة لها منـذ الاسكندر ، تستلزم أن تكون العاصمة في الأسكندرية ، فلما انتقل مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب ، كان يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولـكنّ العرب لم يكونوا أمة بحرية ، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر في نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب ، إلى هذا كله لا نغفل عن حكمة عمرو في اختيار موقع

الفسطاط لأنه كان يمكّنه من ملاحظة قسمى البلاد المصرية شمالاً وجنوباً ، مع أنه قريب من الطريق إلى بلاد العرب . يدلك على ذلك قول عمر « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم فى شتاء ولا صيف »

تحوّل عمرو إلى الفسطاط فكان خير وال وأعظم قائد وأحبّ الولاة إلى الرعية ، وأشدهم قياماً على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها ، فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين ، ورأى بما اشتهر عنه من بعد النظر وحسن السياسة أن يتحبب إلى القبط فيمتلك قلوبهم ، ليرجع الأمن إلى نصابه ويسود السلام والطمأنينة في ربوع البلاد ، فيأمن الفتن والقلاقل ، ثم يتفرغ بعد إلى إدارة البلاد وإنهاضها . ولا غرو إذا تفانى المصريون في محبته وبالغوا في تعظيمه ، فقد أزال ما حاق ببلادهم من نير الروم ، وما حل بهم من شدة البلاء ، ففكّهم من أسر الضيم الذى عانوه ، ولم يتعرض لهم فى عاداتهم بشئ البتة ، وأمّنهم على أموالهم وعيالهم وحمى بلادهم من هجمات المغيرين وعبث العابثين ، وقد قاسوا الأمرّين من جراء الانتصار لمعتقدهم فى عهد الروم كما بينا .

ومما يذكر لعمرو بالشكران أنه كتب أماناً للبطريرق بنيامين وردّه إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة فسرّ هذا العمل البطريرق وشكر عمراً عليه .

سار بنيامين إلى الاسكندرية حيث أمر عمرو باستقباله بكل حفاوة

وتعظيم ، ولما قدم البطريرق ولقى عمراً ألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمّنه كل ما عنّ له من الاقتراحات التي رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة ، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لأدارة شؤون الكنيسة .

وقد لاحظ « بطلر » أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة قد كفاها شر الوقوع في أزمة خطيرة كانت لا محالة مؤديةً بها إلى الاضمحلال والدمار

وإن الخطبة البليغة التى ألقاها باسيلى أسقف نقيوس بدير مقاريوس لخير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الأسلامى فى غبطة وسرور لتخلّصهم من عسف الروم . يدلك على صحة ما نقول رد بنيامين على باسيلى بقوله « لقد وجدت فى مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة التي كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون » فهذه هى الكلمات التى فاه بها البطريرق ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الراحة التى شعر بها المصريون في عهد عمرو . ومما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا فى ذلك اليوم (أى اليوم الذى زار فيه بنيامين دير مقاريوس) كالثيرة إذا أطلقت من قيودها

(ج) عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط :

(١) ما قيل فى تسمية الفسطاط :

شرع عمرو فى غرس بذور الحضارة الأسلامية في مصر وبسط جناح الاسلام فى أرجاء البلاد ، وكان أول ما قام به من أعماله الخالدة

أمام صفحة ١٧٣



جزء من أطلال مدينة الفسطاط

رسم حضرة محمد افندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

تأسيس مدينة الفسطاط ليجعلها حاضرة البلاد ودار الامارة .

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كان ينزل به شحنة الروم ، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة ، وقد عين موضعها الأستاذ يوسف افندى احمد فقال : إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو والتى تمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتي ساحل أثر النبى .اھ

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص لما افتتح مدينة الاسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختطّ الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله ، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط .

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة ، فقال بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الأسكندرية أمر بفسطاطه أن يقوّض فاذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، أقرّوا الفسطاط حتي يطير فراخها فأقر فى موضعه ، فبذلك سميت الفسطاط .

وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ، وقيل : لما عاد عمرو من الأسكندرية قال : أين تنزلون ؟ فقالوا : الفسطاط — يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه وكان مضروباً فى موضع داره الصغرى التي بحذاء داره الكبرى وجامعه ، فاختط عمرو داره فى موضع الفسطاط ،

والدار التي إلى جانبها ، فلما نزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا فى المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من المسلمين فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل (١)

ولا يبعد أن يكونوا قد اختاروا النزول فى الموضع الذى نزلوا فيه أولاً ، لصلاحه وقربه من النيل .

وقال ابن قتيبة فى كتاب (غريب الحديث) إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط (بضم أوله وكسره وإسكان ثانيه) : أى المدينة . وقال بطلر : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ « فسّاتم » ومعناه « مدينة حصينة » أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم فى الشام ، وربما كان هذا هو أرجح الأقوال .

(٢) الفسطاط ودار الإمارة :

اختطت مدينة الفسطاط بعد الفتح الأسلامى بناء على رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتّي لا يحول بينه وبين المسلمين ماء ، فصارت قاعدة للديار المصرية ومقراً للأمارة حتى بنيت مدينة العسكر (جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكبش) سنة ١٣٣ للهجرة فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها

ومما قاله ابن خلدون فى مقدمته (ص ١٦٩) : ويشترط فى اختيار

---

(١) ذكر هؤلاء ابن دقماق فقال (جـ ١ ص ٣٢٢) معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحويل بن ناشر المعافري .

موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات . وختم كلامه بقوله بأن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالقيروان والكوفة والبصرة ، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية . اهـ

وإن كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ما ذكره ، فإن أقواله تنطبق من جهة على بعض المدن التي أسسها العرب ، ولا تنطبق من جهة أخرى على البعض الآخر كالفسطاط ، لمراعاة الأمور الطبيعية والسياسية التي أدت إلى تأسيسها ، لأن النيل يحدّها شرقاً والجبل غرباً ، وتقع المزارع فيما بينها ، وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى ، وكذا لوقوعها على رأس الدلتا ليسهل الأشراف على الوجهين البحرى والقبلي ، ولما لم تكن العرب أمة بحرية كما تقدم ، لم يكن هناك داع لتأسيس العاصمة على البحر الاحمر حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء كما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(٣) الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط :

قال المقريزى (جـ ١ ص ٢٩٦) اعلم أن الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التى هي اليوم بالقاهرة ، فقيل لتلك في مصر خطة وقيل لها في القاهرة حارة . اهـ

فلما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولىّ أربعة من المسلمين كما قدمنا

فاختطوا لكل قبيلة خطه .

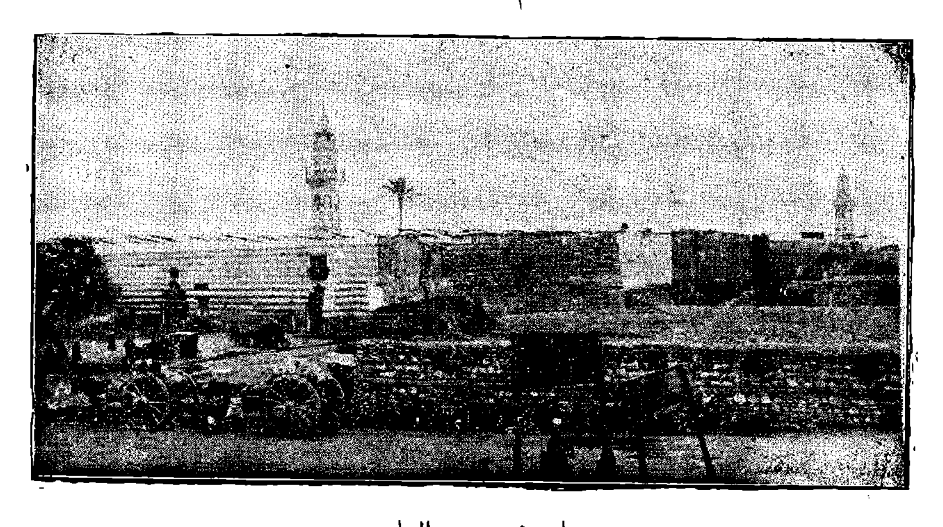
قال « بطلر » : والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الامر انما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب :

ونحن نستبعد ذلك لان الأبنية التي أقامها العرب هى من ابن دور واحد لا تحتاج الي معمارى أو هندسة . ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو فانه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ في السقف حتي يتخلل الهواء داخله ، وقد كان العرب يستظلون بفنائه وينتقلون بجوانبه تبعاً للظل ، وذلك من شدة الحر بداخله

وكانت بيوت الصحابة في بادئ الأمر طبقة واحدة ، وأول من ابتنى غرفة بالفسطاط خارجة بن حذافة ، فبلغ عمر بن الخطاب أمرها وأنه أراد أن يطلع على عورات جيرانه فكتب الى عمرو بن العاص يقول : أدخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير ، فان اطلع من كواها فاهدمها . ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها .

بعد ذلك أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً حتى صار ارتفاع أغلب الارض خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً وبعد أن كانت الدار تسكنها أسرة قليلة العدد أصبح يسكنها المائتان من الناس ، وكانوا لا يسكنون فى أسفل دورهم (الطابق الارضى) لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء الكافية اليه بل يجعلونه مخزناً لهم ، وقلما تخلو دار من بئر وأحواض لخزن المياه العذبة وحمام وبركة (فسقية)

أمام صفحة ١٧٧



جامع عمرو بن العاص

رسم حضرة محمد افندي يوسف مهندس بتنظيم مصر

وكانت أبنيتهم على جانب عظيم من الترتيب والابداع ، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة — كل ذلك بعد الفتح بزمن .

وإليك صور بعض الأبنية الباقية من مدينة الفسطاط أخذها حضرة محمد افندى يوسف بالتصوير الشمسى خصيصاً لهذه الرسالة ، ومنها يظهر ما كانت عليه هذه المدينة .

(د) عمرو وتأسيس الجامع العتيق :

إلى الشمال من حصن بابليون جامع عمرو بن العاص ، وهو أقدم جامع إسلامى(١) بنى فى مصر يظهر عليه الجلال وتكسوه المهابة ، لأن اسمه مقرون باسم مؤسسه ، لهذا وجب على المصريين ولا سيما المسلمين منهم أن يُعنوا بهذا الجامع عناية كبرى .

أسس هذا الجامع سنة إحدى وعشرين من الهجرة على ما رواه أبو المحاسن وابن دقاق والذى حاز موضعه قيسبة (٢) بن كلثوم التجيبى ، فلما رجع المسلمون من الأسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسبةَ هذا فى منزله ليجعله مسجداً فأجابه إلى طلبه وتصدق به على المسلمين ، ومن ثَمَّ شرع عمرو في بنائه ، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين .

ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان في مبدأ أمره أصغر بكثير مما

---

(١) ولم يبق من البناء القديم شئ أصلا . والبناء الموجود الآن بعضه منذ سبعة قرون والبعض منذ خمسة والاغلب منذ سنة ١٢١١ هـ .

(٢) ذكر هذا اللفظ السيوطي وابن دقاق وذكره أبو المحاسن « قتيبة » وهو خطأ

هو عليه الآن . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد (١) بن الأسود وعُبادة بن الصامت .

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة ابن شريك (٢) ، وكان له بابان مقابلان دار عمرو وبابان شماليه وبابان غربيه، وكان الخارج من زقاق القناديل (٣) يلقى ركن الجامع الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى ، وكان طوله من القبلة إلى الغرب مثل طول دار عمرو وسقفه منخفضاً جداً ولا صحن له ، وكانوا يصلّون بفنائه ، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع ، وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه، وكان عمرو قد اتخذ منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بكسره : «أما يحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟» فكسره عمرو.

(ﻫ) خطبة لعمرو فى هذا الجامع

وقبل أن نختم كلمتنا نأتي بأحدى خطب عمرو بن العاص فى هذا الجامع . أخرج أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافرى قال :

---

(١) ذكر بطلر فى تاريخه هذا اللفظ خطأً فقال « قدّاد »

(٢) كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ الى سنة ٩٦ ﻫ .

(٣) دعى بهذا الاسم لانه كان منازل الأشراف، وكان على ابوابهم القناديل، وقيل إنما قيل له زقاق القنديل لانه كان برسمه قنديل يوقد علي باب عمرو، وهو من الخطط القديمة وله أربع مسالك .

رحتُ أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى بأيام يسيرة ،فأطلنا الركوع ، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذُعرت فقلت : يا أبت من هؤلاء ؟ قال : يا بني هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيتُ رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنّ به العقبان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، فسمعته يحضُّ على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال :

يا معشر الناس إياكم وخلالاً أربعاً فانها تدعوا إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال ، ثم لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد(١) والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه باطلا . يا معشر الناس إنه قد تدلّت الجوزاء وزلّت الشعرى وأقلعت السماء (٢) وارتفع الوباء وقلّ الندى وطاب المرعى، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن

---

(١) الاعتدال

(٢) أقلعت السماء أي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر .

النظر ، فحىّ الكم على بركة الله تعالى الى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فأنها جُنّتكم (١) من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم والمومسات المعسولات (٢) فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فان لهم فيكم صهراً وذمة فكُفوا أيديكم وعفّوا فروجكم وغضّوا أبصاركم (٣) ، ولا أعلمنّ (٤) ما أتي رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوّف قلوبهم اليكم ؛ والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى

---

(١) الجنة هى الوقاية .

(٢) العواهر

(٣) يشير إلى قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ؟) الخ .

(٤) جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة . وما مصدرية ، أى فوالله لاعلمنّ إتيان رجل موصوف بما ذكر ، وفى طيّه من الترهيب البليغ ما لا يخفى ، وقد بيّن بعد جزاء من فعل ذلك بقوله : فمن اهزل فرسه . الخ .

مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الارض . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولمَ يارسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتّعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من الشجر ، فحيّ الى فسطاطكم على بركة الله ؛ ولا يقدمنّ أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سَعته أو عسرته ، أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم (١) اه

هذه الخطبة تمثل لنا عمرو بن العاص رجلاً ناصحاً لرعيته ، حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب ، وإظهار زهد عمر ، وان كانت تنمُّ بحبه للذات الحياة وحثه الناس على أن يستمتعوا بها من غير إسراف ؛ ثم نلاحظ هنا حثه الناس على تعهد الخيل فأنه ربما دلّنا على أن عمراً كان يضمر فى نفسه حرباً أخرى فى أفريقية الشمالية ، مع أن هذا كان لازماً ، لأن الروم كانوا يترقبون الفرص للأغارة على مصر من جديد ، مما يدل على أن عمراً لم يكن يقتنع بفتح مصر ، وانما كان يحث الناس على الاعتناء بالخيل كأنه يضمر حرباً أخرى ما حاول من فتح برقة ، وكان هذا الفتح طبيعياً ، لأن مصر ما زالت منذ عصورها الاولى الى الآن تلاحظ هذا القسم من أفريقية الشمالية كأنه امتداد طبيعي لها.

(و) عمرو وحفر خليج القاهرة

كان من أعمال عمرو المشكورة فى مصر حفر خليج القاهرة المعروف

---

(١) الخطط للمقريزى (ج٢ ص ٢٦٠)

بخليج أمير المؤمنين . وقد قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : يظهر من أقوال المقريزى وغيره أن هذا الخليج بعض من خليج قديم كان مستعملاً في الأزمان الغابرة في الملاحة وموصلا بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت بواسطته تجارة بلاد العرب والهند والسودان تدخل القطر المصرى وتتوزع فى بلاده ، كما أن التجارة المصرية كانت تحملها السفن فيه إلى البحر الأحمر فتدخل في جميع البلاد المذكورة ، فهو بهذا الاعتبار أثر من الآثار العتيقة يستحق الذكر . اه .

ولم يترك صاحب الخطط التوفيقية واردةً إلا أوردها ولا شاردةً إلا إقتفى أثرها مما لا يترك زيادة لمستزيد ، كذلك أفرد له المقريزى باباً خاصاً أطال القول فيه ، وعنه أخذ على مبارك باشا والسيوطي وغيرهما ... وقد ذكر المقريزى فى خططه أن هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس عُرف في أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ، وهو خليج قديم أول من حفره « طوطيس بن ماليا » أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف ، وهو الذى قدم خليل الله إبراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر وأخذ امرأته سارة وأخدمها هاجر أم اسماعيل ، فلما أسكنها إبراهيم هى وابنها إسماعيل فى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيث به ، فأمر بحفر هذا الخليج وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جُدَّة فأحيا بلد الحجاز ..... وقد تمادت الدهور والاعوام فجدَّد هذا الخليج أندرومانوس (ادريان) قيصر الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف وأربعمائة سنة . اه .

ونحن نستبعد جداً أن يأمر سلاطيس بحفر هذا الخليج من أجل خادمة ونجزم بأنها خرافة ·

ولما وفد « هيرودت » على مصر وساح فى أرضها قبل المسيح بأربعة قرون ونصف قرن قال فيما كتبه عليها إن « نيخوس بن ابسامتكوس » هو أول من شرع فى اتصال النيل بالبحر الاحمر ولم يتمه ، ولما دخلت مصر في حكم الفرس في زمن « دارا » شرع فيه مرة ثانية فأتمه وجعل طوله أربعة أيام ملاّحية وعرضه بحيث تمر فيه سفينتان بالمجاذيف ، وكان يملأ بماء النيل ومبدؤه فوق مدينة بوبسط (١) بقليل بقرب مدينة باطموس (٢) . ثم يتبع سير الادوية بعد أن يبعد عن الجبل في جهة الجنوب ويصب فى البحر .

وفى تاريخ القرون الوسطى لمؤلفه « لبون » أن عمر بن الخطاب لم يأذن بفتح خليج البرزخ بين الفرما والبحر الاحمر ، واكتفى عمرو بن العاص بأصلاح خليج « تراجان» الذى كان (أدريان) مدّه الى النيل بقرب بابليون ، ويمر ببلبيس وأوصله بخليج (نيخوس) القديم الذى كمله (دارا) ملك الفرس ، واجتمع من الخليجين خليج واحد كان ينتهى الى مستنقع المالح . وفى زمن « بطليموس لاغوس (٣) » عملت ترعة من نهايته لتوصيل

---

(١) تل بسطة بجوار الزقازيق

(٢) مدينة باطموس هي التي خلفتها قرية التل الكبير الآن وكان مبدأ هذا الخليج بقربها

(٣) يقول بطلر إن هذا كان فى زمن (بطليموس فيلادلف الثانى)

المياه الحلوة إلى مدينة أرسنويه (١) لنهاية البحر الأحمر الذى فيه الآن مدينة السويس ، وكان مبدأ هذا الخليج مدينة بابليون ويمر بعين شمس ووادى الطميلات إلى القنطرة ثم يتصل بالبحر الاحمر عند القلزم

ومما تقدم يعلم أن خليج تراجان وأدريان هما بجملتهما خليج واحد وهو خليج القاهرة ، وكان ينتهى الى البحيرات المرة ثم مده (بطليموس) الى السويس ، وهذا الخليج لا يصلح للملاحة إلا فى زمن ارتفاع النيل ، وقد أهملته الروم حتى طمّ وردم بالاتربة في معظم مواضعه حتى احتفره عمرو ثانياً واستعمله لنقل الميرة فى المراكب الى الحجاز ، ولم يقلّ طول هذا الخليج عن ثمانين ميلاً .

وكان سبب حفر هذا الخليج فى عهد عمرو بن العاص على ما أخرجه السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد ، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام عليك . أما بعد ، فلعمرى ياعمرو ماتبالي إذا شبعت أنتَ ومن معك أن أهلك أنا ومن معى فياغوثاه ثم ياغوثاه .

فكتب عمرو بن العاص : أما بعد فيالبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله . . . فبعث إليه بعير عظيمة فلما قدمت على عمر وسّع بها على الناس وكتب إلي عمرو بن العاص ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمر : ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام وقد

---

(١) كانت مدينة أرسنويه على ساحل البحيرات المرة وقد زالت الآن .

ألقى في روعى لما أحببتُ من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فأنّ حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد ، فانطلق وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيكم رأيكم . فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر فثقُل ذلك عليهم وقالوا : نتخوّف أن يدخل من هـذا ضررٌ على مصر ، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتـدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلاً . فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر حين رآه وقال : والذى نفسى بيده لكأنّى أنظر إليك ياعمرو وإلى أصحابك حين أخبرتَهم بما أمرتُ به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر ، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له هذا لا يعتدل ولا نجد إليه سبيلاً . فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقتَ والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت . فقال عمر : إنطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجدَّ فى ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى . اهـ .

ويخيّل إلينا أن كل هذا انما إخترع فيما بعد وأن عمراً رأى آثار هذا الخليج القديم فاحتفره وأصلحه تسهيلاً للمواصلة بينه وبين المدينة .

فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منـه ما أراد ، ثم احتفر الخليـج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيـل إلى القلزم (السويس) ، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت

فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى « خليج أمير المؤمنين » ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم ضيَّعه الولاة بعد ذلك ، فتُرك وغلب عليه الرمل ، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم(١). اهـ

وقد ذكر الكندى أن عمراً حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣ م) وفرغ منه فى ستة أشهر .

يتضح مما تقدم أن عمر أمر بحفر الخليج ، وقد شرع فى ذلك أثناء خلافته ، وفعلاً جرت المؤن فيه ووصلت إلى بلاد العرب قبل وفاته في ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة ، ولا يفهم من قول الكندى هل شُرع فى حفر الخليج سنة ٢٣ هـ أو تم حفره سنة ٢٣ ، فيحتمل أن يكون قد شرع فى حفره فى نهاية سنة ٢٢ هـ ، وحينئذ لا يكون ذلك عام الرمادة وهو الأشبه

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقى من هذا الخليج فأمرت بطمه سنة ١٨٩٧ م .

(ز) عمرو ومقاييس النيل وزيادته

لا ريب في أن حياة مصر متوقفة على النيل ، وعلى هذا يتوقف محصول البلاد الذى يزداد بزيادة مائة وينقص بنقصانه ، لهذا لم يأل حكام مصر منذ الأزمان الغابرة جهداً في قياس درجة فيضانه في كل سنة فى مواضع كثيرة ، لان القياس المذكور هو القاعدة فى ربط المال وتوزيعه

---

(١) يقرب من محلها الآن مدينة السويس ، وإليها ينسب البحر فيقال بحر القلزم

على البلاد ، وعليه يتوقف تنظيم الخراج ، ولم يعزب عن بال عمرو ضرورة قياس النيل قياساً مضبوطاً ليتأتى له جباية الأموال بالقسط والعدل.

فلما فتح العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده ، فكتب إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه : إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً ، والحد الذى يُروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً ، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار ، إثنى عشر ذراعاً فى النقصان وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة ، فكتب إليه عمر أن يبنى مقياساً وأن يضيف ذراعين على الأثنى عشر ذراعاً ، وأن يقر ما بعدها على الأصل وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعاً اصبعين ، ففعل ذلك وبناه بحلوان ، وجعل الأثنى عشر ذراعاً أربعة عشر ذراعاً ، لأن كل دراع أربعة وعشرون إصبعاً ، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر ، ثمانية وأربعين إصبعاً وهى الذراعان ، وجعل الأربعة عشر ستة عشر ، والستة عشر ثمانية عشر ، والثمانية عشر عشرين ، وهى المستقرة الآن ، المقريزى (حـ ١ ص ٧٤)

(ج) عمرو وخراج مصر فى الاسلام

سار عمرو مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل فى النقصان والزيادة ، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج ، فكان عمر رضى الله عنه يظن فيه الظنون ، وربما كان ذلك

لجبايته (٠٠ ر٠٠٠ ر١٢) دينار ، مع أن المقوقس جباها (٠٠٠ ر٠٠٠ ر٢٠)
ويظهر ذلك من المكاتبات التي دارت بين عمرو وعمر بهذا الصدد ، ومنها
يُعلم أن النزاع ازداد بينهما وأن سوء التفاهم قد وصل إلى مدى بعيد.

وإليك كتاب عمر إلى عمرو حين استبطأه مرة في الخراج نقلاً عن
« حسن المحاضرة » للسيوطي : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير
المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام عليك . أما بعد فأني فكرت في أمرك
والذي أنت عليه، فأذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله
أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها
عملاً محكما مع شدة عتوّهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجبُ مما عجبت أنها
لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا
جدب ، ولقد أكثرتُ في مكاتبتك في الذى على أرضك من الخراج ،
وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت أن تفيق فترفع
إلىّ ذلك ، فأذا أنت تأتيني بمعاريض (١) تعبأ بها (٢) لا توافق الذي في
نفسى . ولستُ قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ،
ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابي وقبضك ، فلئن كنتَ
مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيعاً نطعاً (٣) إن الأمر

---

(١) المعاريض هى التورية بالشىء عن الشىء وهى الستر ، يقال عرفته فى
معراض كلامه وفى لحن كلامه ، فالتعريض خلاف التصريح من القول .

(٢) أى يظنها مما يعبأ به أى يهتم له ، وهى لاشىء عندى ، وقد ذكرها
السيوطي « تفتأ لها »   (٣) التشدق بالكلام

لعلي غير ما تحدّثُ به نفسك ، ولقد تركت أن أبتلى (١) ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إليَّ ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالَك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفَّف (٢) اتخذوك كهفاً ، وعندي بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتُعطاه ، فأن النهر يخرج الدر والحق أبلج (٣) ودعني وما عنه تلجلج (٤) فانه قد برَّح الخفاء والسلام .اه

هذا الكتاب يدلنا :

أولا — على ما هو معروف عن عمر من شدته وضربه على أيدي العمال والولاة .

ثانياً — على أن نفراً من المنافسين لعمرو بن العاص كانوا قد أخذوا يسيئون ما بينه وبين الخليفة ، ويبينون لهذا إهمال عمرو وسوء إدارته ، وربما اتهموه بمحاباة العمال المفسدين حين لم يستطيعوا أن يتهموه مباشرةً بالخيانة .

ونحن نستدل مما جاء في هذا الكتاب على أن عمر كان قد كتب إلى عمرو بخصوص الخراج من قبل ، وأن مصر لم تكن تؤدي نصف ما كانت تؤديه ، إن صح أنَّ مصر كانت تؤدي هذا المقدار قبل الأسلام، أي أن الخراج كان أقلَّ من عشرة آلاف ألف (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠) ولا ندري ما هي المعاريض التي كان يأتي بها عمرو ، وقد ظنَّ عمر أن قلة الخراج كانت

---

(١) امتحن وأختبر (٢) قوله توالس وتلفف بمعنى واحد

(٣) مضيء مشرق لايخفيه التمويه (٤) التردد في الكلام

راجعةً إلى عدم مراقبته عمال الخراج وقلة جبايته ، وأنهم كانوا يستولون على بعضها لأنفسهم ، وإن صح ذلك كان نقطة ضعف فى سياسة عمرو ، ولكن إذا عرفنا أن من أموال الخراج كانت تُدفع أعطيات الجند وتنفذ المشاريع التى يتطلبها الأصلاح ، كشق الترع وبناء القناطر ، فلا نحجم عن القول بأن عمراً كان له العذر فيما فعل ، إذ راعى مصلحة الدولة الحاكمة والبلاد المحكومة ، ورأى أن مصر فى حاجة إلى الأصلاح الذى لا يتم إلا بالمال ، وكتاب عمر كما يظهر مفعم بالتعريض واللوم . أما قول عمر رضى الله عنه : إنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه قبل ذلك ، يفيد أن عمراً قد خفف على المصريين الأعباء الثقيلة التى كانوا يئنون تحتها من تعدُّد الضرائب التى شملت كل شىء كما قدمنا ، وهو مظهر من مظاهر الاستبداد لا يرضى به عمرو . ومن راجع كتاب المستر ملن « مصر فى عهد الرومان » حيث أفرد فيه باباً خاصاً للضرائب ، لا يسعه إلا أن يعزو نقص الخراج فى أيام عمرو عما كان عليه فى عهد الروم إلى إلغاء كثير منها وعدم رضائه بالأخلال بعهده لأهل مصر ، ذلك العهد الذى شمل شروطاً ثابتة راعى فيها عدد القبط وحال الأرضين . ولا شكّ أن خراج مصر قد قلّ نسبياً بعد الفتح لاعتناق كثير من المصريين الأسلام فيما بعد . ففى أيام الدولة الأموية كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يضع الجزية عمن أسلم ، فكتب اليه حيان إنّ الأسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلف من الحارث ابن نابتة عشرين ألف درهم أتمَّ بها عطاء أهل الديوان ، وطلب منه أن يأمر بقضائها ، فكتب إليه عمر « ضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك فأن

الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه ، جابياً ولعمرى لعمرُ أشق من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه»

ولكنّ نفس عمرو العالية وعدم تعوده احتمال الضيم أو سماع المكروه أبى عليه ذلك ، فكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً يرد عليه قوله ويبرئ فيه نفسه ويظهر له أنه ذو نفس أبية ، وأن ماضى تاريخه خير شاهد على صحة ما يقول ، وإليك نص هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين في الذى استبطأني فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر ، ولأنّهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ، وذكرتَ أن النهر يخرج الدرّ فحلبته حلبا قطع درّها ، وأكثرت فى كتابك وأنّبتَ وعرّضت وتربّبت (١) وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر ، فجئتَ لعمرى بالمفظعات المقذّعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنّا

---

(١) تربت : بالتاء المثلثة بعدها راء مشددة بعدها باء موحدة من تحت ثم تاء مثناة ، بمعنى ضيقت . ومنه قول يوسف لأخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، ويراد بها الحث والتحريض كما فى قوله عليه السلام (تربت يداك — من باب تعب ايضا) وهى من الكلمات التى جاءت عن العرب صورتها دعاء ولا يراد بها الدعاء بل الحث والتحريض

بحمدالله مؤدّين لأمانتنا حافظين لما عظّم الله من حق أئمتنا ، نري غير ذلك قبيحاً والعمل به شيْنا. فتعرّف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا . معاذالله من تلك الطعم (١) ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم ، فامض عملك فأن الله قد نزّهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم أخاً ، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً وا كراماً ، وما عملت من عمل أرى فيه متعلّقا (٢) ولكني حفظت مالم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثرب مازدتَ ، يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنتُ عالماً بها وكان اللسان بها مني زلولا ، ولكن الله عظّم من حقك ما لا يجهل والسلام.اه

وكفى برهاناً لما كان عليه عمرو من علو النفس والصراحة فى القول قوله : والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي « ولها إنزاها وإكراماً »

لم تقف المكاتبات بين عمرو وعمر بخصوص الخراج عند هذا الحد ، بل استمرت بين أخذ ورد ، فكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام إليك . فأني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد فأني قد عجبت من كثرة كتبي إليك فى إبطائك بالخراج ، وكتابك إليَّ بثنيات الطرق ، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البيّن ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ، ولا لقومك

---

(١) — جمع طعمة وهي المأكلة ، وقولهم الطعم علة الربا

(٢) — متعلق من تعلق بالشيء إذا استمسك به

ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فيء المسلمين وعندى ما قد تعلم قوم محصورون والسلام . اه

فكتب اليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن الخطاب : من عمرو بن العاص : أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى في الخراج ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم وان أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق(١) بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام . اه

ولما استبطأ عمر الخراج ، كتب الى عمرو أن يبعث اليه رجلاً من أهل مصر ، فبعث إليه رجلاً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الأسلام فقال : ياأمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر الى العمارة وانه يأخذ ما ظهر كأنه لا يريدها إلا لعام واحد . اه

ومن هنا يظهر أن سوء الظن عند عمر قد اشتد بعامله على مصر حتى طلب إليه أن يوفد عليه رجلاً ينبئه من أمر مصر بالحق ، ولكن عمر كان من حسن النية وصفاء الضمير بحيث لم يخطر له أن عمراً يستطيع أن يخادعه ، أو أن يلهم رسوله ما يجيب به الخليفة ، ولسنا نشك فى أن عمراً قد أحفظ هذا الرسول ، فأن جواب هذا الرسول لعمر يناقض جواب عمرو في كتاب

---

(١) الخرق ضد الرفق

سابق ، فبينما عمرو يقول إن المصريين استنظروه فأنظرهم ، إذ الرسول يقول إن عمراً لا ينظر إلا لما يقع تحت عينه من مال ، وفى هـذا الدليل الواضح على أن عمراً أراد أن يقنع الخليفة بأنه مع رفقه ولطفه بالمصريين لا يستطيع أن يُقنعَه .

أراد عمر أن يوسّع على عمرو لكى لا يتطلع إلى أموال الخراج ، فكتب إليه كتاباً يعلمه بذلك ويبين له طريقة توزيع الخراج :

أما بعد فأنى فرضت لمن قبلى فى الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان ، فانظر من فرضتُ له ونزل بك ، فاردد عليه العطاء وعلى ذريته، ومن نزل بك ممن لم أفرض له، فافرض له على نحو ما رأيتنى فرضت لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتى دينار (١) ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك ، لأنك من عمال المسلمين ، فألحقتك بأرفع ذلك ، وقد علمت أن مؤناً تلزمك ، فوفر الخراج وخذه من حقه ، ثم عفَّ عنه بعد جمعه ، فاذا حصل إليك وجمعته ، أخرجتَ عطاء

---

(١) لعلَّ هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لا فرض العطاء ، إذ أن عمر كان يجرى على العمال جراية هى غير نصيبهم من العطاء ، وقد ذكر في سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ، ومن هنا يعلم أن عماله كان لهم جرايات ، وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه)

المسلمين وما يُحتاج إليه مما لا بدّ منه ، ثم انظر فيما بقي بعد ذلك فاحمله الىّ ، واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس ، وإنما هي أرض صلح(١) وما فيها للمسلمين فئ ، تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم (أى المرابطين) ، واجزأ (٢) عنهم فى أعمالهم ، ثم اقض ما فضل بعد ذلك على من سمى الله(٣) واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فأنه قال تبارك وتعالى في كتابه (وجعلنا للمتقين إماماً) يريد أن يقتدي به ، وان معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال (استوصوا بالقبط خيراً فأن لهم ذمة ورحما) ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) إحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً ، فأنه من خاصمه خصمه ، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسى ضعفاً ، وانتشرت رعيتى ورقّ عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط ، والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه. اه

ومن هنا يتضح أنه كان لعمرو منزلة خاصة في نفس عمر بالرغم من معاملته الشديدة فى مكاتباته له . ولم تقف معاملة عمر لعمرو عند هذا الحد

---

(١) وهذا يؤيد رأينا بأن مصر فتحت صلحا لاعنوة وأن عمر قد أمر بأن يعامل أهالى المدن التى فتحت عنوة معاملة الصلح ، فشمل ذلك جميع المصريين على السواء

(٢) أقض (٣) أى فى القرآن .

بل قاسمه ماله (عمراً) كما يعلم من رواية البلاذرى (ص ٢٢٧) قال : كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاّهم ، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم ، فكتب إلى عمرو بن العاص « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن حين وليت مصر »

فكتب إليه عمرو : إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا. فكتب إليه عمر : إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك إلىّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سؤتُ بك ظناً ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، فأنه برَّح الخفاء . فقاسمه عمرو ماله . اه .

خضع عمرو لما أمره به أمير المؤمنين وقاسمه ابن مسلمة ماله ، وكفى نفسه مؤونة الغلظة (وأعفه من الغلظة عليك) وهو كما لا يخفى من أشراف العرب ومن أهل الشرف والرياسة ومن ذوى الرأي فيهم . ولكن أبي عليه عمر أن يترفَّه في معيشته كما كان أبوه العاص من قبله ، وقد كان يلبس الخز بكفاف الديباج ، لهذا لا نعجب إذا أثرت هذه الكلمات في نفس عمرو تأثيراً كبيراً حتي قال : « إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء ، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج » فقال محمد : « مَه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلا عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكاؤها » قال عمرو : « أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولى فأن المجالس بالأمانة » فقال محمد : « لا أذكر شيئاً مما جرى

بيننا وعمر حيّ » .

وهذه القصة أوضح الأشياء دلالة على ما استحدث عمر فى الأسلام من الأعمال ، فهى تدلنا على أنه استحدث مراقبة العمال ومحاسبتهم محاسبة فعلية وندب من يقوم بذلك من ثقاته . ومثل هذا كان معروفاً قبل الأسلام عند الرومان .

هكذا عامل عمر عمرو بن العاص ، ذلك السياسى المحنك والقائد العظيم الذى دوّخ الروم في فلسطين ومصر ، إلا أن عمر لم يعبأ بكل هذه المزايا بل أجرى الحق مجراه خوفاً أن يقتدى به بقية العمال وتسوء الحالة والأسلام فى غضاضته .

(ى) استقرار أمر مصر لعمرو :

ولّى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة وبقى والياً عليها ، قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب ، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط ، وقد قام فى هذه المدة بكثير من الأصلاحات العظيمة ، فنظّم الأدارة ونصّب القضاة ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج ، وعنى عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى ، من كرى الخلجان وبناء مقاييس النيل وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فأقام لذلك العمال لا يفترّون عن العمل صيفاً وشتاء.

هذه هي السياسة التى سار عليها عمرو في مصر على نهج العدل وعدم تحميل المصريين ما لا يطيقون ، وبهذه الطريقة أتيح له تنفيذ أوامره على أهون سبيل ، لأنه كان دائماً يضع مصلحة المصريين نصب عينيه ، ولم يأل

جهداً في ترفيههم وجلب الخير لهم واكتساب محبتهم ، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته ، فلم ير إحراج القبط فلا يطيعوه عملاً بالمثل القائل « إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا يستطاع » . وكان عمرو يأخذ من الخراج مما لا بد منه لأصلاح البلاد ، ويأخذ لنفسه عطاءه ، ويعطى الأعطيات لأربابها ، وما يبقى يرسله إلى الخليفة

إستقر لعمرو بن العاص أمر ملك مصر فساس البلاد هذه السياسة الرشيدة ، فلم يعامل القبط بمثل ما عاملهم به الروم من قبل ، فلما فتح مصر لم يتعرض لهم في شيء البتة ، فأطلق لهم حرية معتقدهم وترك لهم أرضهم وأخذ على عاتقه حمايتهم ، وأمّنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم ، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل . ومما يدلك على حسن سياسة عمرو ، إقراره قبط مصر على جباية خراج بلادهم ، واهتمامه بالنظر في أمورهم والسهر على ترفيههم ، يؤيد ذلك أنه بعد استيلائه على حصن بابليون ، كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرأ من المسلمين على إخراج القبط منها .

ومما يدل أيضاً على حسن سياسة عمرو أنه لم يفرق بين الملكية واليعاقبة من المصريين ، فلم يتحيز لأحد الطرفين ، فكانا متساويين أمام القانون ، وأظلّهما بعدله وحماها بحسن تدبيره ، ولم يتبع السياسة القائلة « فرق تسد » تلك السياسة العقيمة التي ظهر للملأ أنها تؤدي إلى أوخم العواقب . لهذا لا ينكر علينا أحد إذا قلنا إن عمرو بن العاص قد نال من السلطان فوق ما كان يتمناه ، فدانت له البلاد قاصيها ودانيها وأجمعت على محبته حتى كان

يقال : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

(ك) اعتزال عمرو ولاية مصر :

لم تتفق كلمة المؤرخين في ثبوت السنة التى اعتزل فيها عمرو بن العاص ولاية مصر ، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فقال بعضهم إن عزله كان قبل استيلاء (منويل) على الأسكندرية ، ثم استدعاه عثمان لما كتب له أهل مصر يسألونه أن يقرّ عمراً حتى يفرغ من قتال الروم، لأن له معرفة بالحرب وهيبة في نفس العدو فأجابهم إلى ذلك ، ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى (ص ٢٣١) والمقريزى (ج ١ ص ١٦٧ ، ج ١ ص ٢٩٥) والسيوطى (ج ١ ص ٦٩) ، وقال ابن الأثير إن عزل عمرو بن العاص كان سنة ٢٦ هـ . وقال الطبرى ، إنه اعتزل سنة ٢٧ هـ . أعنى بعد استيلاء منويل على الاسكندرية .

ونحن نؤيد ماذكره كل من الطبرى وابن الاثير لأسباب منها :

أولاً — لأن عثمان لم يسرّح عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو أفريقية ، إلا سنة خمس وعشرين من الهجرة ، وهي السنة التى انتقض فيها الروم فى الاسكندرية

ثانياً — ولأنه أقام على غزوها سنة وثلاثة أشهر ، إذ لا يعقل أن يمكث عبد الله أقلّ من هذا الزمن ، والروم فى إمداد متصلة ، والمسلمون بعيدون عن بلادهم . فمن المعقول أن تكون عودة عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن نفله عثمان خمس الخمس في السنة السادسة والعشرين .

ثالثاً — وقد روى الطبرى أن عثمان بن عفان نزع عمرو بن العاص عن

خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد فتباغيا ، فكتب عبدالله ابن سعد إلى عثمان يقول : ان عمرا كسر الخراج ، وكتب عمرو إن عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب ، فكتب عثمان الى عمرو أن ينصرف وولى عبد الله بن سعد الخراج .

وهذه النفرة التي كانت بين عمرو وعبد الله وشكاية كل منهما من صاحبه لا بد أن تتطلب زمناً حتى يفصل أمير المؤمنين في الأمر .

لهذا نرى أن اعتزال عمرو بن العاص ولاية مصر كان بعد انتقاض الروم في الاسكندرية ، وكان في أواخر سنة ٢٦هـ أو في أوائل سنة ٢٧هـ ، وهو الأرجح ، لأن عبد الله بن سعد لم يتولَّ مصر إلا بعد غزو أفريقية ، وإذا ثبت ذلك فلا يعقل أن يكون اعتزال عمرو في سنة ٢٥ هـ أو قبلها .

وقد قيل في سبب عزل عمرو بن العاص أن عثمان أراد أن يجعله على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فأبى وقال « أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »

وكانت سياسة عمر بن الخطاب تقضى بأن يكون الخراج والحكم في يد وال واحد ، وهذه السياسة موافقة :

أولاً — للسذاجة الأولى .

ثانياً للنظام الجمهوري عند الرومانيين .

أما سياسة عثمان بن عفان فكانت تقضى :

أولاً — باختيار العمال من أقاربه ومَن بينهم وبينه صلة .

ثانياً — الفصل بين الحرب والخراج ، لأجل أن يستطيع التدخّل

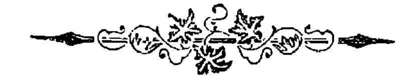
في كل شيء، وتضييق سلطة العمال، وهي توافق سياسة الأمبراطرة .

أما عمرو بن العاص فكان :

أولاً — متعوداً سياسة عمر .

ثانياً — وكان يحرص على أن تكون سلطته عظيمة لأنه كان طموحاً، فلم يكن بد من أن يقع الخلاف بينه وبين عثمان الذي كان لا يشك في خيانة عمرو، ولا يشك في قوته في الحرب، فأراد أن ينتفع بعمرو في الحرب، ولكنّ عمراً لم يرض هذا، إما لأنه اعتدَّها إهانة، وإما لأنه كان يحرص على رياسة الخراج .

هذا هو السبب الحقيقي في عزل عمرو عن مصر، أضف إلى هذا ميل عثمان لتولية مصر لعبد الله بن سعد، لأنه كان أخاه من الرضاعة.



الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل ولاية مصر الى أن مات

الباب الاول

اخبار عمرو مع عثمان

غضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان لعزله إياه ، وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما ، ولما قدم عمرو بعد اعتزاله إلى المدينة، دخل على عثمان وعليه جُبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟ قال عمرو : قد علمتَ أن حشوها عمرو. فقال عثمان : ولم أرد هذا إنما سألت أقطنٌ هو أم غيره ؟

ومما يدلك على شدة غضب عمرو لعزله وتولية عثمان رجلاً يعتبر نفسه أعظم كفاءة منه وأكثر تجربة ، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأله لما قدم المدينة : كيف تركتَ عبد الله بن سعد ؟ قال عمرو : كما أحببتَ . قال : وما ذاك ؟ قال عمرو : قويٌّ فى ذات نفسه ضعيف فى ذات الله : فقال له عثمان : لقد أمرته أن يتبع أثرك . فقال عمرو : لقد كلفته شططاً . فهذا يبين شدة حنق عمرو وسخطه على عثمان وعلى واليه الجديد . لم يبق عمرو بالمدينة بل اعتزل بفلسطين في قصره المسمى « العَجْلان » وإنما مكث يرقب الأمور ، وكأنه كان لا يشك فى أن الأمة سيكون بينها وبين

خليفتها حدث ، فأشفق من الأقامة فى المدينة حتى لا يناله من هذه الثورة التى كان ينبأ بها شر ، وما كان تردده بين المدينة وفلسطين إلاّ إستكشافاً لما سيقع . على أن عثمان لم تفته إصابة رأى عمرو فكان يستشيره فى مهام الأمور ، سيما حين سعرت نار الفتنة وتفاقم شرها ، وكان عثمان يميل إلى استشارة عمرو حين كانت الامة تُمخّض بشر. فقال : ما ترى ياعمرو؟ قال: أرى أنك قد لنتَ لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين ، وإن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين.

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال : مارأيك ؟ (فى الفتنة) قال : أرى أنك قد ركبتَ الناس بمثل بنى أمية ، فقلتَ وقالوا وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فأن أبيت فاعتزم عزماً وأمض قُدْماً . فقال له عثمان : مالك قمِل فروك ، أهذا الجد منك ؟ فسكت عمرو حتى تفرّق الناس ثم قال : لا والله ياأمير المؤمنين لأنت أكرم علىّ من ذلك ، ولكنى قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا نشير عليك ، فأحببت أن يبلغهم قولى فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شراً.

وفى رواية للطبرى أيضاً قال لما عزل عثمان عمرو بن العاص جعل يطعن عليه فأرسل عثمان إليه يوماً فخلا به فقال : ياابن النابغة ما أكثر ما قمِل جُرُبّان جبتك ، إنما عهدك بالعمل عاماً أول ، أتطعن علىّ وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟ فقال عمرو : إن كثيراً مما يقول الناس

وينقلون الى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك . فقال عثمان : استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك . فقال عمرو ، قد كنتُ عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض . فقال عثمان : لو آخذتُك بما آخذك به عمر لاستقمتَ ، ولكنى لنتُ عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً فى الجاهلية وقبل أن ألى هذا السلطان . فقال عمرو دع هذا فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيتُ أباك عفان ، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك . فقال عثمان : مالنا ولذكر الجاهلية ! فخرج عمرو من عنده وهو محتقد عليه ، فلما كان حصر عثمان خرج من المدينة حتى انتهى إلى قصره بفلسطين ، وبينما هو جالس في قصره ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامى ، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسأله عمرو عن عثمان فقال : قد تركته محصوراً شديد الحصار ، قال عمرو : أنا عبد الله قد يضرط العير والمكواة في النار ، فلم يبرح مجلسه هذا حتى مرّ به راكب آخر ، فناداه عمرو : ما فعل الرجل (عثمان) ؟ قال قُتل . فقال عمرو : أنا عبد الله إذا حككتُ قرحةً أدميتها إن كنت لأحرض عليه حتى أنى لأحرض عليه الراعى في غنمه فى رأس الجبل . فقال له سلامة ابن روح : يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه فما حملكم على ذلك ؟ فقال عمرو : أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس فى الحق شرعاً سواء . وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه

ففارقها حين عزله عثمان (١). اهـ

والذى يظهر لنا في شأن عمرو في فتنة عثمان أنه إنما نقم منه ما نقم الناس، لأيثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة؛ ثم فضّ يده لما بلغ الهياج أشده ولم تجد نصائحه هو والصحابة عثمان نفعاً، فظلّ كمعظم القوم يشاهد تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق، وعلى كل حال فلم يكن لعمرو فى هذه الفتنة إلا ما كان لكثير من الصحابة الذين حضروا قتله، وأنه دخل فيما دخل فيه الناس.

الباب الثانى

عمرو وسياسته مع علىّ ومعاوية

(ا) لماذا انضم عمرو إلى معاوية؟

ما كاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتبوأ مركز الخلافة حتى اختلفت كلمة المسلمين وصاروا أحزاباً: ففريق أصبح يطالب بدم عثمان، وهو حزب الأمويين بالشام وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، وفريق من الثائرين قتلة عثمان الذين اختاروا علىّ بن أبى طالب، يعيثون فى الأرض فساداً فيملئون القلوب خوفاً ورعباً، وفريق أنصار السياسة الاسلامية القديمة الذي كان يتفق مع الأمويين ولكنه كان يريد أن يعود أمر الخلافة

(١) الطبري (جـ ٥ ص ١٠٧ – ١٠٩ ، ٢٣٣)

إلى ما كان عليه أيام عمر ، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة.

كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً كارهين ، فنفضا بيعتهما وأرادا أن تنقض خلافة عليّ ، لأن أهل المدينة قد أقروها وعلى رؤوسهم سيوف الثائرين . وقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكن راضياً عن عثمان ولا عن حكمه، وأن مقتل عثمان لم يغضبه ولم يسخطه وربما أرضاه ، فلم يكن بد إذاً من أن ينضم عمرو إلى عليّ أو إلى الزبير وطلحة (لا ينبغي التفكير فى انضمامه إلى الذين اعتزلوا الحركة السياسية كسعد بن أبى وقاص ، لأن الرجل كان رجل عمل ومطامع) ولكنه كان من المهارة السياسية بحيث لم يشك لحظة في أن أمر الزبير منحل ، ولكنه لم ينضم إلى هذا الفريق أو ذلك الحزب ، لأنه كان لا يرجو خيراً من دولة عليّ لأن علياً كان لا يريد إلا أن يحمل الناس على رأى نفسه مدلاً بنفسه فى كل شئ ، غير معوّل على غيره فى رأى أو علم أو عمل ، وأنه لا يرجى منه أن يسير بسيرة أبى بكر وعمر ـ تلك السيرة التى كان عمادها الشورى فى كل أمر ـ وأن أمثال عمرو لا يمكن أن يعتمد عليهم فى عمل أو يستعين بهم في سلطانه ، فهو يائس من خيره ، ولان عمراً كان قرشياً وكان ميل قريش إلى خلافة هاشمية قليلا جداً ، ولأنه رأى أن القوة التي على رأسها عائشة وطلحة والزبير كانت من الضعف بحيث لا تقوى على أن تغلب عليّ بن أبى طالب على أمره أو تفوز بأرجاع الحال إلى ما كانت عليه فى عهد أبى بكر ، وقد ظهر له بعد قليل أن هذا الحزب قد انهزم ، فقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة .

وهنا غيرّ عمرو بن العاص سياسته دفعة واحدة ، وأصبح فى حزب عثمان ، لأنه كان كما لا يخفى من أشد الناس دهاء ، وكان لا يعمل عملاً إلا إذا تأكد من نجاحه ، يدلك على ذلك أنه لم يسلم إلا بعد أن ظهر له ظهوراً بيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم سوف ينتصر ، وما كان ذهابه إلى الحبشة إلا ليرى ما يكون من أمر محمد وقريش : فأن كانت الغلبة لقريش كان على أولى أمره مع رسول الله ، ولم يكن قد خذل قريشاً بالقعود عن نصرتها ، ولكنه أسلم ودخل في الأسلام لما رأى أن أمر النبي عليه السلام ظاهر على قريش لا محالة : كذلك كان حاله فى هذا الظرف ، فتبين له بثاقب رأيه وبعد نظره أن هذه الثورة لن تنتهى إلا بحدوث انقلاب في حالة الأمة العربية ، ولم يكن عمرو بالرجل الساكن الذي يلتزم الحيدة فى مثل ذلك الظرف ، بل لا بد من دخوله فى هذه الاضطرابات وأن يكون له ضلع فيها ، عسى أن يناله من وراء ذلك ما كان يؤمل منذ زمن طويل لأنه كان طموحاً إلى العلا .

إنتظر عمرو يرقب الأمور على بعد ، فرأى أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليستكين لما يريد به عليّ ولا يستخذى لما يتوقع أن يحيق به من مكروه ، وكان على ذكر من قديم الأحقاد بين البيتين ، ولم ينس معاوية أن علياً قاتل أخيه ومقارع أبيه في مواطن كثيرة أيام الجاهلية ، وهو قريب عثمان : فاستعان عمراً وتعاقدا على النصح والنصرة ، ومعلوم أن المصائب تؤلف بين المصابين والمطامع تؤلف بين الطامعين ، وكان ذلك ما يتمنّاه عمرو . فأنتج لهما الدهاء أن يطوّقا علياً إثم دم عثمان ، ليكون لهما بذلك

الحجة فى مناوأته ــ فكأنَّ مقتل عثمان الذى اشتهر عمرو بالتأليب عليه مصدر سياسة عمرو والتزامه هذه الخطة : خطة المطالبة بدم عثمان .

ولكن الذى يعرف شدة دهاء عمرو لا يعجب لالتزامه هذه السياسة ، لأن العمل مع معاوية أرجى للعافية وأحرى أن يلبسه ملابس العز ، وقد وجد من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية ، فظاهره على أمره والرجلان (عمرو ومعاوية) لا يعتقدان فى علىّ أنه يريد في خلافته العمل بما يوجب المثوبة عند الله تعالى ، وإنما يريد أن يحكّم الأحقاد والميول ، وقد أعانهما علىّ على نفسه باستبطانه قتلة عثمان واتخاذهم أعواناً .

(ب) معاوية وموقفه السياسي :

كان معاوية بن أبى سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً ، وقد ولاه الشام عمر وعثمان فنال رضاءهما ، وسار سيرة مرضية ، فملك أفئدة الأهلين بحسن سياسته ، وأصبح جند الشام رهن إشارته يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

فلا عجب إذاً إذا أبى معاوية الاذعان للعزل أو الرضى بمبايعة علىّ وشدد في المطالبة بدم عثمان .

وكان معاوية رأساً لحزب بنى أمية الذى كان يطالب بدم عثمان ، والذى كان يرمي فى حقيقة الأمر منذ أيام عثمان إلى الاستئثار بالسلطان. ومع هذا فهذا الحزب لم يجهر بشىء من هذه الأطماع وإنما انتحل أعذاراً ظاهرة تسيغ له أن يقف من علىّ موقف المحارب ، أضف إلى هذا أن العداء بين بنى هاشم وبنى أمية قديم فى الجاهلية ، وأن الاسلام زاد هذا

العداء ، فأن بنى حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علىّ ، كما أن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد ، والعداء بين بنى هاشم وبين أبى سفيان معروف باقى الأثر . وهذه الأعذار التى انتحلها معاوية هى :

(١) أن معاوية كان يتهم علياً بشىء من أمر عثمان

(٢) ولأن علياً آوى قتلة عثمان

(٣) ولأنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن علياً رأى من أول واجباته عزل معاوية عن الشام — وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الأمارة والعزة .

وبعد انتصار علىّ بن أبى طالب في يوم الجمل توجه إلى الكوفة ووجه جرير بن عبد الله البجَلى إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما ويدعوه إلى الدخول فى طاعته . فماطله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم علىَّ جرير بن عبد الله في بيعة علىّ وحبست نفسى عليك حتى تأتينى فاقدم على بركة الله تعالى . (اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥)

فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنيه عبد الله ومحمداً ، واستشارهما فى هذا الأمر ، فقال له عبد الله : أيها الشيخ ، إن رسول الله قبض وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان ، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية ، وقال له محمد : بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً . قالوا : فأنشأ عمرو يقول :

تطاول ليلى للنجوم الطوارق ... وخوف التى تجلو وجوه العواتق
فأن ابن هند سالنى أن أزوره ... وتلك التى فيها بنات البوائق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت ... به النفس إن لم يعتقلنى عوائق
وخالفه فيه أخوه محمد ... وإني لصُلْب العود عند الحقائق

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى (١)

قال اليعقوبى : قال معاوية : مدّ يدك فبايعنى . فقال عمرو : لا لعمر الله لا أعطيك دينى حتى آخذ من دنياك . فقال له معاوية : لك مصر طعمة ، وطلب من عمرو أن يبيت عنده ليلته مخافة أن يفسد عليه الناس ففعل ، وقال عمرو :

معاوىَ لا أعطيك دينى ولم أنل ... به منك دنياً فانظرن كيف تصنع
فأن تعطنى مصراً فأربح بصفقة ... أخذتَ بها شيخاً يضر وينفع

ويظهر أن هذه الأبيات والتى قبلها ، وما يقال من أمثال هذا الكلام نثراً ، مصنوع من خصوم عمرو ومعاوية ، ليظهروهما بمظهر المكابر للحق الراغب فى الدنيا ومتاعها المستسهل للجور العامل على الدفع فى صدر الحق نظير متاع قليل .

---

(١) هذا ما ذكره الطبرى ، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبى من أن عمراً أشار على معاوية بان لا يذكر عثمان لأن معاوية خذله ، وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين

فكتب له معاوية بمصر شرطاً ، وختم الشرط بعد أن بايعه عمرو وتعاهدا على الوفاء (اليعقوبى ج ١ ص ٢١٦) .

رجع جرير إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأخبره بحال معاوية وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين هالهم قتل عثمان ، فبكوا واستبكوا حين رأوا قميصه الذى قتل فيه مخضباً بدمه وإليه إصبع زوجه نائلة وكانت معلقة فيه . وضع معاوية الثوب على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان ولو فنيت أرواحهم على بكرة أبيهم ، وأجمعوا على قتال علىّ اعتقاداً منهم أنه هو الذى قتل عثمان وآوى قتلته .

أما مبايعة عمرو لمعاوية حين قدم عليه فشىء لا يمكن تصديقه، لأنه كيف يعقل أن يبايعه بالخلافة في مبدأ الأمر وجو السياسة لا يزال مكفهراً ، وعلىّ قد أحرز النصر المبين فى واقعة الجمل ، وعزم على الزحف على الشام لانتزاعها من معاوية ، ولم تخف على عمرو أحقية علىّ بالخلافة بعد عثمان وشجاعته فى الطعن والنزال . فهل يتوهم متوهم أن السذاجة قد بلغت بعمرو أن يكون أول من يبايع معاوية ، وحالة الامة السياسية في ذلك الظرف المقلق لم تكن لتخفى عليه ؟ والظاهر أن هذه المبايعة التي زعمها المؤرخون ليست إلا تحالفاً واتحاداً على التعاون ، فأن معاوية كان يهمه كثيراً أن تكون مبايعة عمرو له علانية أمام وجوه أهل الشام وغيرهم ممن ينتصرون له ليكون لهم قدوة في البيعة ، وهذا ما لم يقله أحد من المؤرخين فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ ، فلم يذكروا فى أى مكان وقعت بيعة عمرو

لمعاوية، وأمام أي ملأ من الناس، بل تركوا هـذه النقطة مبهمة غامضة مع أهميتها.

بلغ علياً أن معاوية قـد استعد للقتال ومعه أهل الشام، فسار من الـكوفة إلى صفين فى تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سـنة ٣٦ هـ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً على ما رواه المسعودى، وعسكر في موضع سهل على الفرات، وبات علىّ وجيشه فى البر عطاشا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً وسيوفهم على عواتقهم فدعهم يشربون ونشرب. فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان، فقال أحد جند علىّ:

أيمنعنا القوم ماء الفرات	وفينا الرماح وفينا الجحف
وفينـا علىٌّ له صولة	إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غـداة لقينا الزبير	وطلحة خُضنـا غمار التلف
فما بالنـا أمس أسـد العرين	وما بالنـا اليوم شاة النجف

فندب إليهم علىّ قوماً فأجلوا رجال معاوية عن المـاء، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده فأذن لهم! وبعد يومين من نزول علىّ على هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين وطالت المراسلة بينهما فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سـنة ٣٧ هـ، ولم يتفقا في غضون هـذه المدة على شيء، ودارت رحي الحرب بينهما

من جديد (١)

ومن اطلع على ما كان من أمر سفراء عليّ واشتدادهم على معاوية ، وكذا اشتداد سفراء معاوية على عليّ ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم نجاح هؤلاء المندوبين كان راجعاً لقلة خبرتهم بالسياسة وشدة ميلهم إلى الحرب مما أفسد القلوب وزاد الفرقة . والذى يظهر من رواية الطبرى أن رسل عليّ إلى معاوية كان فيهم غطرسة ، فكانت كلمات الشر والتفريق والتغالى تبدر من ألسنتهم ، ولم يكونوا ليصلحوا رسل صلح ، فكان معاوية يسيء الرد عليهم — والظاهر أن القوم قد ثملوا بالانتصار على أهل الجمل بالبصرة فظنوا أن ينالوا من جيش معاوية ما نالوا من جيش عائشة .

ولما انقضى المحرم أعادوا القتال سيرته الأولى ، فلما كان اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ للهجرة ، إبتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه ، بل كان كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده : حتى متي لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم ، وفي ذلك يقول الشاعر .

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والأمر مجموع غداً لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب

واشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية حتى كان اليوم الذى

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ١٧٢) ومروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ١٤ — ١٥) بتصرف

قتل فيه عمار بن ياسر فاشتدت الحرب بعد مقتله وزحف أصحاب عليّ ، وظهروا على جند معاوية حتى ألصقوهم بعسكره ، وأشرف عليّ على الفتح فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام : اللهَ اللهَ في الحرمات والنساء والبنات ، وقال معاوية « هلمّ مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا » غير أن عمرو بن العاص عمد بما أوتيه من فنون الدهاء إلى تغيير الحال رأساً على عقب وتحويل النصر إلى جانب معاوية ، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة ، فبعد أن كادت الدائرة تدور عليه لم يثن ذلك من عزيمة عمرو ، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند عليّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم حيث قال عمرو « أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه » فرفعوا المصاحف وقال قائلهم « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا « نجيب إلى كتاب الله » وإنما رمي عمرو بحيلته هذه التى هدت عزائم الجحافل وبددت آمال عليّ على ما نرى إلى أمرين :

الأول : أن يكسر من حدة جند عليّ وحميتهم ، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار .

الثانى : أن يفرق بينهم ويفتّ فى عضدهم فيكفوا عن قتالهم .

رغب أهل العراق فى الموادعة فنصح لهم عليّ أن لا يغتروا بقول أصحاب معاوية لأنه ليس إلا خديعة ، فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسل إليه فقال الأشتر للرسول « ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني فيها عن موضعي ، قد رجوت أن يفتح لى فيها

فلا تعجلني » فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم « والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل إبعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك »

فقال عليّ للرسول « ويحك قل للاشتر أن يقبل فأن الفتنة قد وقعت » فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب. ثم أرسل عليّ الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فقال له معاوية « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله » ثم رجع الأشعث إلي عليّ فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا .

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال أهل العراق : قد رضينا أباموسى الأشعري. فقال عليّ « قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن » وبيّن لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه ، فأبوا إلا إياه ، فاضطر للسير على ما رأوا وهو مكره (١) . وكان من نتائج هذه السياسة ما سنفصله .

(ج) عمرو والتحكيم

(ا) عقد التحكيم :

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل حيث كتبا عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧هـ. وهذه صورة الكتاب منقولة

---

(١) انظر اليعقوبي (جـ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩) ، والمسعودى (جـ٢ ص ٢٠ الي٢٢) ، والامامة والسياسة لابن قتيبة (جـ١ ص ٢٨٧)

عن الطبري (ج ١ ص ٣٣ ـ ٢٤)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان ، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة : وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فأن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يردَّاها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما ، وإن توفي أحد الحكمين فأن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وأن مكان قضيتهما الذي يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا

من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على مافي هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك مافى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً ، اللهم إنا نستنصرك على من ترك مافى هذه الصحيفة اه

ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧ ﻫ

اجتماع الحكمين (عمرو وأبو موسى) ونتائج التحكيم

لم ينته بعد الدور الذى لعبه عمرو بن العاص فى موقعة صفين ، فلم يكن بد من تنفيذ الخطة التى رسمها له دهاؤه المعروف بعزل علىّ بن أبى طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان . وليس من شك في أنه قضى وقتـه في ابتكار ضروب الحيل الايقاع بأبى موسى والوصول الى غايتـه ، حتى إذا ما حان اجتماع الحـكمين بعث علىّ بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم ، وأبو موسى الأشعرى معهم ، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهـل الشام فتوافوا بدومة الجندل . وقد ذكر المسعودى انه لما دنا وفد علىّ من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى « إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل غيرك والمتقدمون عليك كثيرون وان الناس أبوا غيرك وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيتَ فلا تنس أن علياً بايعـه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ؛ وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة » ووصّى معاوية عمراً فقال « يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا علياً علي أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك ،

وقد ضُم اليكِ رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأخذ الجد ولا تلقَه برأيك كله » ووافى عمراً سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة علىّ ولم يغمسوا أيديهم فى الفتنة .

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على أربعة أمور :

(١) إن علياً أكره على اختيار أبي موسى فلم يثق به لأنه فارقه وخذل الناس عنه وفعل أشياء سنذكرها فى محلها ، أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمرو

(٢) لم يكن أبو موسى بالرجل الذى يقف أمام داهية العرب (عمرو) هذا الموقف الذي يحتاج الى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين

(٣) انه قد تخلف عن مبايعة علىّ كثيرون من جلة الصحابة ، من أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص والمغيرة بن شعبة داهية السياسة ، وأمثال هؤلاء الرجال لا يستهان بهم

(٤) ان ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى لم يكن من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الأخلاص والشدة فى نصر علىّ

إجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ، وفي هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره ، وظهرت للملأ مقدرة هذا الرجل السياسية وما أوتيه من حذق وذكاء ، يؤيد ذلك ما نذكره مما دار بينه وبين أبي موسى من أطراف الحديث ، وكيف استدرجه حتى وافقه أبو موسى على

خلع علي ، وكيف أثبت موكله معاوية بن أبي سفيان . قال المسعودى فى «مروج الذهب»،قال عمرو: يا أبا موسى رأيتُ أول ما نقضى به من الحق أن نقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم (ومن هنا نعلم لمن يريد أن يقضى عمرو) ، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حلّ بالأسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال : يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين ، فجزاه عمرو خيراً وقال : إن للكلام أولاً وآخراً ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا .فقال أبو موسى : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتب غلاماً لعمرو . فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى لما أراد من المكر به ثم قال له بحضرة الجماعة : أكتب فأنك شاهد علينا ،ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه ، فأذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا . أكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص ، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ثم قال عمرو) نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عايه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه وقد أدّى الحق الذى عليه (قال أبو موسى « اكتب»)ثم قال فى عمر مثل ذلك (ثم قال عمرو «أكتب») وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد

عمر على إجماع من المسلمين وشوري من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم وأنه كان مؤمناً (فقال أبو موسى « ليس هذا والله مما قعدنا له ») . قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً . قال أبو موسى : أكتب . قال عمرو : فظالماً قُتل أو مظلوماً ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلوماً . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطالب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم . قال عمرو : فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى . فقال عمرو للكاتب : أكتب . وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فأنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان . قال أبو موسى : هـذا أمر حدث فى الأسلام وإنما اجتمعنا لله فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد . قال عمرو . وما هو ؟ قال أبو موسى قد علمتَ أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً ، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ فعمد عمرو إلى كل ما قاله أبو موسى فصوّبه وعدّد له جماعة وأبو موسى يأبي ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً . اه

ويظهر المتأمل فيما كتب فى هذه الصحيفة التى وافق أبو موسى على كل ما شملته وإقراره بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأن لمعاوية الحق فى أن يطلب بدمه المسفوك ، وأن علياً قتله بدليل إيوائه قتلته (ولو أن إيواءه لهم ليس دليلاً قطعياً بأنه هو قاتله ، ولكن إلى أبعد من هذا ذهب أعداؤه) بحيث أن من أراد أن يبدي رأيه فيما يقف عليه مما دوّن بهذه الصحيفة بحسب

ما نرى ، يكون ارتيابه في عليّ أكثر منه فى معاوية، وما ذلك إلا من جراء تفوق عمرو على نظيره فى ذلك الاجتماع التاريخى الهام تفوقاً جعله يقرّ بكل ما كان يرمى إليه عمرو ، حتى تمكن هذا من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته ،وهى خلع عليّ بن أبي طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان ولا يفوتنا أن عمراً انما اراد أن يقدّم أبا موسى عليه في الكلام ليكون الخلع من جانبه أولا ، ثم يكون لعمرو الخيار فى أن يخلعهما معاً أو يخلع علياً ويثبت معاوية كما سيأتى :

قال الطبرى : قال عمرو : (بعد أن عدَّدا أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة وأبى الفريقان) : ما رأيك ؟ قال أبو موسى : رأيى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : إن الرأى ما رأيتَ وقال : يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى: إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو : صدق ، تقدم يا أبا موسى فتكلم. فتقدم أبو موسى ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأيه عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وانى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فأنه ولى عثمان بن عفان

رضى الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه ، فتنابزا وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ثم انصرف أهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . (١)

ونحن نشك فى هذا ونميل الى ما قاله المسعودى وهو (جـ١ ص٢٧) انه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة ، واقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك ، وأنهما لم يخطبا وانما كتبا صحيفة فيها خلع على معاوية ، وأن يولي المسلمون من أحبوا.

وهنا تظهر قيمة عمرو السياسة فأنه لم يكن يرمى مباشرة الى استخلاف ومعاوية ، لأنه كان يعلم أن هذا أمر لا ينال الا بالسيف وانما كان يرمى:

أولاً إلى أن يكسب له من الوقت ما يمكنه من جمع جيشه وتقويته ولمّ شعثه ، وكان يعلم أن جيش علىّ متخاذل ، وقد وفّق فى هذا كله فتخاذل جيش علىّ . وليس أدل على ذلك من خروج الخوارج ومن عجز علىّ بعد انقضاء الهدنة عن تسريح جيش لقتال معاوية.

ثانياً : وكان يرمي عمرو الى أن يسوّى بين علىّ ومعاوية بأن يجرّد علياً من صفة الخلافة التى كان يدّعيها ، وقد وصل إلى ذلك باتفاقه مع أبي موسى على خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين . ولم يكن

---

(١) روى الطبري أن عبد الله بن العباس قال لابى موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه أبو موسي : ويحك إنى والله لا ظن عمراً قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الامر قبلك ثم تتكلم انت بعده فأن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه فأذا قمت فى الناس خالفك .

عمرو يشك فى أن علياً لن يقبل هذا الحكم وفى أن أهل العراق لن يقبلوه أيضاً ، ولكنه كان يشك فى انه سيكسب طائفة القراء والمتورعين ، وربما كسب الصحابة الذين اعتزلوه ، وليس هذا بالشئ القليل .

وعلى كل حال فاستخلاف معاوية بن ابى سفيان توقف بلا ريب على ما كان بين عمرو وأبى موسي من البون الشاسع في المقدرة السياسية ودرجة إخلاص كل منهما ، وما اوتيه عمرو من المكر والدهاء والمكيدة التي اشتهر بها لدى العرب كافة .

أما من حيث إخلاص كل من الرجلين وتفانيهما في نصرة صاحبيهما فعمرو بن العاص قد اختاره معاوية لاعتقاده بمقدرته وحنكته فى تذليل أمثال هذه الصعوبة ، ورضى به أهل الشام عن طيبة خاطر ، وأكره عليّ على اختيار أبى موسى ، ولم يكن ليرضى به حكماً لأسباب منها :

أولاً لأنه كان يعلم علم اليقين أن مثل أبى موسى لا يقوى على مناظرة داهية العرب وأنه مغلوب على أمره لا محالة ، ذلك لأن أبا موسى رجل دينى لم يذق للسياسة طعماً ، وهذه المسألة فضلاً عن كونها دينية بحتة إلا أنها تحتاج إلى الحنكة والدراية بالأمور السياسية أكثر مما تحتاج إلى الالمام والتعمق فى أصول الدين ، فكانت النتيجة خذلانه وتفوق عمرو عليه (١)

---

(١) وفى ذلك يقول عبد الله بن عباس :

أبا موسى بليتَ وكنت شيخاً　　قريبَ العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس　　فيا لله من شيخ يمانى
فأمسيتَ العشية ذا اعتذار　　ضعيف الركن منكوب العنان
تعضّ الكف من ندم وماذا　　يرد عليك عضك للبنان

ثانياً : كذلك لم يكن عليّ ليرضى بأبي موسى حكماً لأنه ليس بثقة ، فقد فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه في الخروج مع عليّ فقال لهم : أما سبيل الآخرة فأن تقيموا وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا. وقال : أما والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه في عنق ، فأن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان إلا قتلوا حيث كانوا. وأبو موسى رجل يكره الفتن كما يظهر من قوله لأهل الكوفة ولا تكلفوا الدخول في هذا فأنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب: فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة — وغير ذلك من الأقوال التى تثبط الهمم وتضعف العزائم . ويظهر أن تثبيط أبى موسى الناس عن عليّ كان لتوهمه إيواءه قتلة عثمان ، فكان يرى ضرورة قتل هؤلاء النفر ووجوب قتالهم شرعاً ، كما يتبين من إحدى خطبه من قوله : فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وكانت نتيجة توقف أبى موسى عن استنفار الناس للجهاد أن غضب عليه عليّ بن أبى طالب فعزله « مذموماً مدحوراً » كما جاء في كتاب العزل.

ومما ذكرنا يعلم أن الرجلين مختلفان فى المبدأ ، فعليّ يرى أن أبا موسى قد خانه ، وهذا يرى أن علياً لا يجوز نصره إلا بعد أن يقتل قتلة عثمان . وما دامت الصلة بينهما على هذه الحال فأى حكيم عاقل يتصور أن يكون

أبو موسى الذى طالما ثبط الهمم بالأمس عن مساعدة عليّ ظهيراً له اليوم مع ما يضمره كل من الرجلين من الحقد والكراهية للآخر؟ سيما أن أبا موسى يرى أن عبد الله بن عمر أليق بالخلافة ، وما دام هذا رأيه فلا ينتظر منه غلباً عليها .

هذه كانت ميول أبي موسى نحو عليّ ، وتلك كانت علاقته به ، وليس الأمر كذلك بين عمرو ومعاوية ، فعمرو يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته ويتفق معه فى الغرض الذى كان يرمى إليه وهو المطالبة بدم عثمان ، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وحنكته التجارب فلا يهمه إلا الوصول إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع وابتكر من ضروب الحيل — ومثل هذين لا يتفقان . ولا أدل على تقدير كل من الرجلين وما ينتظر أن يكون من أمرهما من قول معاوية لعمرو « وأنا وأهل الشام راضون بك وقد ضمّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى » وقول عبد الله بن العباس لأبي موسى « إن علياً لم يرض بك حكماً وقد ضم داهية العرب معك »

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى ، وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأى عليّ وبنى هاشم ، فكان هذا مصدر سوء حظه ، وليس من شك في أن رأى أبي موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصريه .

ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده

لتثبيت ملك صاحبه ، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر والاعتبار منها :

الأول إضطراب حالة جند علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى أراد معاودة الكرة على معاوية . ولكن ماذا كان يصنع وقد أصاب جنده خلل واضطراب فاختلفوا على أمرهم وخرجت من بين صفوفه الخوارج ، ولم يكن من شيعته إلا أن تسلل رجالها من معسكرهم فأصبح المعسكر خالياً ؟ ولما دخل الكوفة ودعا رؤساءهم ووجوههم وسألهم عن رأيهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط حيث فضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم ، فكان هو وجنده كما قال أخو هوازن :

أمرتُهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى مكان الهدى أو أننى غيرُ مهتد

الثانى : إتحاد جند معاوية ـ أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك ، جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظائم ، ولذلك كان شأنه دائماً في علو .

ولعلّ كثيراً من جند علىّ إنما تخاذلوا عن نصره بعد ما كان من الحكم وبعد ما اعتقدوا أنهم غير مكلفين نصره ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجهروا بذلك ، لأن أنصار علىّ من الثائرين بعثمان كانوا ذوى بأس .

وكان من أثر تلك القوة المتحدة التى كانت مع معاوية بن أبى سفيان أن تمكن هذا من سلخ ما كان تحت سلطان علىّ بن أبى طالب شيئاً فشيئاً حتى فاجأته يد المنون سنة ٤٠ للهجرة .

والذي نراه فى هذه المسألة الدقيقة أنه مع إقرارنا لعمرو بن العاص بالدهاء والقدرة على النكاية بعدوه ، أنه بعمله هذا لم يصب علياً وحده ، ولا جند المسلمين فحسب ، ولكنه أصاب الأسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً ، فأن عمله هذا هو الذى خلق مذهب التحكيم وأوجد الخوارج الذين كانوا أعداء لعلىّ ومعاوية على السواء . وقد مكث الاسلام يعانى من البلاء بهم شيئاً كثيراً . وكل هذا نتيجة لعمل عمرو — ولم يكن من الصعب عليه أن يجد حلاً لما بين علىّ ومعاوية من أول الأمر تُحقن به الدماء وتصان الكرامة وتجتمع عليه الألفة ويكون له فخره بين الأمة قاصيها ودانيها على مر الدهور — ونحن نعتقد كل الاعتقاد أن عمرو بن العاص كان قادراً على ذلك لو شاءه ، ولكن الرجل كان لا يأمل أن ينال مع علىّ ما يرغب ، فجشّم المسلمين الأهوال وحملهم هو ومعاوية على مركب وعر ، ولم يباليا في سبيل مآربهما بما حملا عليه الناس . وقد وجد عمرو من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية فظاهره على أمره . ولو تريث علىّ كرم الله وجهه وصنع ما تقضى به السياسة من إرضاء المسلمين وعدم عزل ولاة عثمان وقتل قتلته ، لكى يدفع عن نفسه الريب فلا يجد معاوية داعياً قوياً كهذا يبرر رفضه بيعة علىّ ودعوة أهل الشام لحربه باسم الدين . ولا يمكن أن نعتقد أن معاوية كان بعمله هذا يريد إحقاق الحق ، بدليل انه سكت عن المطالبة بدم عثمان ولم يتتبع بقية قتلته حين افضت إليه الخلافة ، ولم يمده حين كان محصوراً بالمدينة ، فكأنه كان ينتظر قتله . إلا أنه إنما جعل المطالبة بدمه سبيلاً إلى الخلافة ، فلما حصل عليها سكن ثائره . وما قيل فى معاوية

يقال في عمرو فأنه لما تولى معاوية ،كان أول ما طلب منه الاستيلاء على مصر والولاية عليها .

هذا ما نراه أقرب إلى المعقول فيما وقفنا عليه ـ ورب قائل يقول إن تبعة ما وقع من عمرو يوم صفين وفى يوم التحكيم واقعة عليه لا محالة . فنجيب بأن الذنب ليس ذنبه بل هو ذنب الذين خالوا علياً ولم يتبعوا رأيه ، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ـ على أن عمراً ذلك الرجل الفذ إنما أراد أن يصل إلى غايته من أي طريق يسلكه مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع والدهاء التي امتاز بها على العرب كافة . وقد أدى لصاحبه حق الخدمة ، وعمل بما تقضي به صفة الدها والسياسة الموصوف بهما ، بينما لم يبلغ هذه الصفة أبو موسى الذى كان يرى عدم نصرة عليّ واجباً شرعاً ما دام قتلة عثمان في صفوفه .

وإن كنا قد أنحينا باللائمة على كل من عمرو ومعاوية لاتباعهما هذه السياسة التى أدت إلى خلع عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأن تدخلهما كان لاغراض شخصية وأهواء ، وأن دهاء عمرو قد ساعد على تحقيق غرضه والوصول الى غايته ، فلا ينبغي أن يعزب عن بالنا أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أنه نظراً للحالة السياسية التى وصلت إليها الأمة العربية في ذلك الزمن ، كان لا بد من حدوث هذا التغيير إما على أيدى عمرو ومعاوية أو على يد غيرهما . وكل ما يقال فى عمرو ومعاوية ، ان الظروف قد تهيأت لهما فاستفادا منها فوجدا من قتل عثمان سبيلاً إلى إحداث هذا التغيير الذى حصل في الواقع من جهتين متباينتين .

الأولى جهة عربية خاصة : وهي أنه لما تولى عثمان بن عفان الخلافة طمع بنو أمية فى أن يستردوا سلطانهم على قريش ، ولو تم لهم ما أرادوا لاستقر سلطانهم على الامة الاسلامية بأجمعها . وقد تولى منهم عثمان وولىّ ذوى قرباه على الامصار بحيث لو طالت حياته لنجح بنو أمية فيما كانوا يرمون إليه ، وهو انتزاع الخلافة من بنى هاشم وحصرها فى بنى أمية ، وكان معاوية كما لا يخفى أقوى بنى أمية فى ذلك العصر ، ومعه جند الشام وهم أقوى أجناد العرب يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه فاتخذهم سلاحاً لتنفيذ أغراضه .

الثانية : جهة عامة : وهى أن العرب بالتقائهم مع الامم المقهورة سواء أكانت تلك الأمم فارسية أو أمماً خاضعة للحكومة البيزنطية ، أخذوا عنهم نظم الحكم وحاولوا تقليدهم فى الخضوع لنظام ملكى فلم يكن بد حينئذ من أن تتأثر هذه الأمة البدوية بهذه الأمم المتحضرة ، كالأمة الرومانية وأهل مصر والشام وغيرها . وبعضهم كانوا يتأثرون بهذا المبدأ ويرغبون في أن يؤسسوا الحكم الامبراطورى الذى يلائم الحالة التى أصبحت فيها بلادهم ، وقد اتسع ملكهم وكبر سلطانهم ، بحيث أصبحت نظم الحكم التي كانت مألوفة فى أيام أبى بكر وعمر غير صالحة لهذه الأمبراطورية الضخمة المتألفة من شعوب مختلفة في الجنس والعادة والخلق والدين وسائر أنواع الحياة (١) هذه النظم التى كانت محصورة في دائرة

---

(١) لا ينبغي أن يعترض بأن هذه الامبراطورية كانت عظيمة فى عهد عمر ، فأن عمر لم يزد على أن افتتح وحاول تثبيت الفتح وتنظيمه ، ولو قد طالت حياته لرأي هذا التغيير ، وربما كان استطاع لرجاحة حلمه وحسن سياسته أن يطبّ

ضيقة هى مكة والحجاز وبلاد العرب : وهذا هو حزب الأرستقراطية وهم زعماء الامة العربية على العموم، وأعظم ممثل لهؤلاء الزعماء هم بنو أمية .

لهذا لم يكن بد إذاً من انقسام العرب الى قسمين :

الاول : قسم يدافع عن المذهب الموروث ، مذهب الحرية ذى النظام البدوي البسيط كالذى كان فى عهد أبى بكر وعمر ـ ذلك النظام الذى ما كان يصلح إلا في أيامهما ، لا في ذلك العصر وقد تطورت الامة العربية تطورات عديدة ومر بها أدوار سياسية كبيرة .

الثانى : قسم يدافع عن المذهب الجديد ، مذهب تأسيس أمبراطورية إسلامية ذات نظام يلائم الحالة التى وصلت إليها الامة العربية .

والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هى :

أولاً وقوع الحرب

ثانياً : انتصار أصحاب المذهب الجديد الذى يؤيد زعماءه من العرب أهلُ الشام والفرس ، على أصحاب المذهب القديم الذى يميل اليه كثيرون من اهل بلاد العرب ولا سيما أشد أصحاب النبى عليه السلام تورعاً وحرصاً على السنة الموروثة ، كسعد بن ابي وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرهما ممن اعتزلوا الفتنة

وإن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد دخلت الرومان فى

للامر وأن يحدث هذا التغيير من غير اخلال بالنظام الاجتماعى الأسلامي . على أن من تفقه التاريخ وتدبر حوادثه لم يشك فى أن قتل عمر نفسه إنما كان مقدمة من مقدمات هذه الثورة التي لم يكن منها بد .

نفس هذه التطورات حين امتدت فتوحهم في آسيا وأفريقية وأوربا وعظم ملكهم ، فقامت الحروب الاهلية التى انتهت بأحلال النظام الامبراطورى محل النظام الجمهورى القديم .

أما ما كان من أمر عمرو ومعاوية ، فقد افادتهما هذه الظروف التى خدمت معاوية بقتل عثمان فتامس المعين على مناوأة علىّ وتذرع بالباسه جناية عثمان ، ووجد عمرو سبيلاً الى معونة معاوية لاغراض بيناها ، فتم التغيير على أيديهما ـ وذلك لابد من حدوثه ـ ولو كف عمرو ومعاوية أيديهما عن القيام به لقام به غيرهما من العرب .

هذا ما يمكن ان يقال عن سياسة عمرو مع معاوية وتدخله فى أمور الأمة الأسلامية ، التى افادها من جهة تغيير نظام الحكم القديم الى الحكم الجديد، الذى كانت الامة في حاجة طبيعية اليه بمقتضى الحالة السياسية التى وصلت اليها بامتداد فتوحها وبسط سلطانها على امم مختلفة .



الباب الثالث

ولاية عمرو الثانية على مصر

إعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر في خلافة عثمان ، فكان لا ينساها بل يريد أن يستردها ويتولى أمرها مرة ثانية ، يدلنا على هذا أنّ أول ماطلبه من معاوية هي « مصر » . ومن هنا يستدل على أمرين

(١) على أنه كان يحب مصر حباً جماً حتى انضم إلي معاوية من أجلها بخلاف ماكنا ننتظر ، وتفانى فى خدمته ليفوز بأمنيته

(٢) وعلى أنه كان يكره عثمان كراهة شديدة من حين عزله عن ولاية مصر وكان بينهما من الملاجاة ما ذكرناه .

إنضم عمرو إلى معاوية ولم يكن يستغني هذا عن الاهتداء برأيه والعمل بمشورته فكان ساعده الأيمن وعضده الأقوى ، وقد كان من وراء انضمامه لمعاوية ماقدمناه . وكان معاوية قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فأراد الاستيلاء على مصر ، وكانت حالها اذ ذاك ممايضاعف آماله في تحقيق أمنيته فى الوصول الى غايته ، ذلك أنه كان بمصر قوم قد ساءهم قتل عثمان ، فكتب معاوية الي مسلمة بن مخلّد ومعاوية بن حديج (وكانا قد خالفا علياً وناوءا محمد بن أبى بكر عامله على مصر) يقويهما ويمنيهما الأماني الطيبة فكتبا اليه يطلبان المدد ، وكانت الفرصة قد سنحت لعمرو بن العاص لاسترداد مصر سنة ٣٨ هـ بعد أن غاب عنها زهاء اثنتي عشرة سنة ، فجهزه

معاوية فى ستة آلاف أقبل بهم إلى مصر ، حيث انضمت إليه العثمانية ، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي بكر « أما بعد فتنحّ عني بدمك يا ابن أبي بكر فأني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فانى لك من الناصحين والسلام »

ولما لم يُجد هذا الكتاب نفعاً سار عمرو لقتال محمد بن أبى بكر وانتدب كل منهما نحواً من ألفى رجل ، فلم يحتمل جند محمد هجمة الجنود الشامية ولا من مالأهم من جنود مصر ، فقتل منهم من قتل وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فخرج معاوية بن حُديج يطلبه حتى ظفر به فقتله — ويقال إنه أحرقه بالنار . وقد قال المقريزى إن الموقعة المذكورة كانت فى مدينة يقال لها المنشأة (١)

ولما تم لعمرو الانتصار سار فى طريق الفسطاط حتى دخلها واستولى عليها ، وكان ذلك فى صفر سنة ٣٨ هـ فأقره معاوية والياً عليها وأعطاه إياها على أن يُعطى عطاء الجند وما بقى فله ، واستقرت ولاية مصر لعمرو بن

---

(١) وقد ذكرها اليعقوبى المسناة . أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال : يوجد من هذا الاسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة (أخميم) ثم منشأة (بكار) من مديرية الجيزة ومنشأة (سدود) من مديرية المنوفية ومنشأة (سيوط) ومنشأة (عاصم) : وهى قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير . والظاهر أن الواقعة كانت فى هذه القرية وباسمها سميت .

العاص من جديد ، وأصبح له القدح المعلّى والسلطان المطلق فى إدارة شؤون هذه البلاد ، فشمر عن ساعد الجد فى إصلاح ما أفسدته أيدى أسلافه الذين نقم عليهم المصريون وتاقوا إلى الخلاص من حكمهم ، إلا أن أجل هذه الولاية كان قصيراً وسرعان ما قصفته يد المنون .

(ب) استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمرو ونشوء الجفاء بينهما :

خشى معاوية خروج عمرو عليه فأراد أن يدفع ما عسى أن يترتب على خروجه من النتائج ، فكتب إليه وهو بمصر كتاباً أراد فيه أن يقيد ما بيده من عهد الولاية حتى لا يجد مبرراً للخروج عليه فى وقت ما ، وبذلك يأمن معاوية خروج عمرو عن طاعته ، فأرسل إليه كتاباً ضمنه هذه العبارة : « على أن لا ينقض شرطٌ طاعة » ، فأدرك عمرو ما يرمي إليه معاوية وكتب إليه : « على أن لا تنقض طاعة شرطاً » فهذا القلب في العبارة قد قلب الحقيقة لصالح عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلى عن مصر التى استكثرها معاوية عليه لما استقر له الأمر ، فحاول الرجوع على عمرو بمصر فأصلح بينهما معاوية بن حديج .

ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث بين الرجلين من الخطوب والمحن لو تشبث معاوية بتغيير عهده .

وقد روي ابن عساكر أنه لما صار الأمر كله (١) فى يدى معاوية

---

(١) ولا يتبادر إلى الذهن من قوله « لما صار الامر كله فى يدى معاوية » أن مصر انتهت إلي معاوية بعد اصطفاء معاوية للخلافة والحسن رضى الله عنهما ، بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان والياً عليها من قبل علىّ فى خلافته قبل وفاته بسنتين .

استكثر طعمة مصر لعمرو ماعاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وبعنايته وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام على مصر فلم يفعل معاوية ، فتنكّر له عمرو فاختلفا وتغالظا وظن الناس أنه لا يجتمع أمرهما ، ولكن قبل أن يتفاقم الخطب وتستعر نار الخلاف استعاراً تدخّل بعض المسلمين فى الأمر وأصلحوا بين الرجلين (وإن كان هذا الصلح ظاهرياً) على أن يُكتب بينهما كتاب بمثابة ضمان لكل منهما خلاصته :

(١) أن تكون لعمرو ولاية مصر سبع سنين .

(٢) وأنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية.

وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً عليها ، وذلك فى أواخر سنة ٣٩ للهجرة فلم يمكث غير ثلاث سنوات تقريباً حتى مات وهو أمير عليها

وصفوة القول أن المودة والوئام لم يدوما بين عمرو ومعاوية ، لأن عمراً كان يود أن تكون له الشام مع مصر ومعاوية قد استكثر عليه مصر ومثل هذين الرجلين لا يتفق لهما أمر ، فيعلم مما تقدم أنه اتفاق ظاهره المحبة وباطنه يشعر بالدهاء وأن عمراً لم يبايع معاوية حباً به أو مودة له ، بل طامعاً لمصر ورغبة في استرجاع ما كان له عليها من سلطان — ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً منه . يدلك عليه ما روى أن معاوية قال يوماً لجلسائه « ما أعجب الأشياء ؟ » فقال يزيد « أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شئ من تحته ولا هو منوط بشئ من فوقه »

وقال آخر « حظ يناله جاهل وحرمان ينـاله عاقل » وقال آخر : « أعجب الأشياء ما لم يُر مثله » وقال عمرو بن العاص « أعجب الأشياء أنّ المبطل يغلب المحق (يعرّض بعلىّ ومعاوية) » فقال معاوية « بل أعجب الأشياء أن يعطَى الأنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف (يعرّض بعمرو ومصر التى أخذها له طعمة »

(ج) محاولة قتل عمرو :

اجتمع ثلاثة من الخوارج وأجمعوا أمرهم على قتل علىّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص جميعاً في يوم واحد هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة . فأما ابن ملجم فقد قتل علياً كرم الله وجهه ، وبوفاته انتهى عهد الخلافة الشرعية ، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية منه بأرب ، أما ما كان من أمر عمرو فأن عمرو ابن بكر (١) الذى عزم على قتله ، فأنه جلس له في الليلة المعهودة فلم يخرج عمرو ابن العاص لمرض ألمّ به وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس ، وبينما هو فى الصلاة ضربه الخارجى بالسيف فقتله يظنه عمراً ، ولما علم الخارجى أن المقتول غير عمرو قال: « أردتُ عمراً وأراد الله خارجة » فذهبت مثلاً . ولما وقف الرجل بين يدي عمرو بكى فقيل له « أجزعاً من الموت مع هذا الاقدام ؟ » فقال « لا والله ولكن غماً أن يفوز صاحبيّ بقتل علىّ ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو » فأمر عمرو بضرب عنقه فضرب وصلب.

ولما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عمرو :

---

(١) سماه المسعودى « زادوية عمرو بن بكر »

وقتل وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤى بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوتَ وقد بلّ المرادى سيفه ... من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخر مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغى كل يوم وليلة ... بمصرك بيضاً كالظباء السوارب

(د) بعض أخبار عمرو ومعاوية :

يظهر أن عمرو بن العاص كان فى خلافة معاوية يختلف كثيراً إلى الشام ، فكان الخليفة لا يقطع أمراً دون الاستعانة برأيه والعمل بمشورته (١) وقد عثرنا فى تواريخ الطبري والمسعودي وأبي المحاسن وغيرها على أخبار عديدة عن عمرو بن العاص رأينا أن نأتى ببعضها علّها تبين ما كان لهذا الرجل من جليل الأعمال وفاضل الصفات ، وإن كان التاريخ لم يكشف لنا أعمالا خاصة قام بها ذلك الأمير مدة ولايته الثانية على مصر كشق الترع وبناء الجسور وإقامة الأبنية وغيرها ، ولو طال عمره فى هذه الولاية لما ضن علينا التاريخ بذكر كثير من إصلاحاته ، إذ من المعقول أن مدة الثلاث أو الأربع سنوات التى مكثها فى مصر لا تكفى أكبر قائد حربى ومصلح عظيم لاطفاء شعلة هذه الفتن التى كانت ضاربة أطنابها فى البلاد ، لانقسام أهلها واختلاف ميولهم نحو معاوية وعلىّ ، فكان لكل

---

(١) ذكر الطبرى أن عمرو بن العاص كان مع معاوية حين تسليم الحسن بن علىّ الأمر إلي معاوية وحين جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد أن امتنع هذا عن بيعته .

منهما شيعة وأنصار .

وقد ذكر المسعودى أن عمرو بن العاص دخل يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان فأخذا فى الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو « يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذه ؟ » فقال معاوية « أما النساء فلا أرب لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجلدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ماأدرى أيه ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب ، فما شئ ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ومن أن أنظر إلى بنىّ وبنى بنىّ يدورون حولى ، فما بقى منك يا عمرو ؟ » فقال : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته » فالتفت معاوية إلى وردان فقال : « ما بقى منك يا وردان ؟ » فقال : « صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل وأخطار يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى » .

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على مبلغ ميل عمرو لاستثمار المال ، ولا غرو فقد نشأ تاجراً فنمى فى نفسه حب الكسب منذ نعومة أظفاره حتى إذا ما وصل إلى مرتبة الأمراء لم يقف به هذا المركز عن مباشرة مهنة التجارة ابتغاء الكسب وتنمية ثروته

وقد ذكر الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان ولىّ عبد الله بن عمرو ابن العاص على الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة وقال « استعملتَ عبد الله ابن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحيى الأسد ؟

فعزله عنها واستعمل المغيرة ، ولما بلغ عمراً ذلك أراد أن يكيد المغيرة فدخل على معاوية وقال له «استعملتَ المغيرة على الكوفة ؟» فقال « نعم » فقال عمرو «أجملته على الخراج » فقال « نعم » فقال عمرو « تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال فيذهب فلا تأخذ منه شيئاً ، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك » فعزل المغيرة عن الخراج واستعمله على الصلاة ، فلقي المغيرة عمراً فقال « أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت في عبد الله قال « نعم » فقال عمرو « هذه بتلك »

ومن أخباره مع معاوية والانصار مارواه صاحب الأغانى (ج١٤ص١٢٢) قال : حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبي سفيان ، فخرج إليهم حاجبه فقالوا له «إستأذن الانصار » فدخل عليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو « ماهذا اللقب ياأمير المؤمنين أردد القوم إلى أنسابهم » فقال الحاجب « هي كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم وإلا فهذا اللقب راجع إليهم » فقال له عمرو « أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو ابن عامر فليدخل » فقال الحاجب ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الانصار فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر فقال له « باعدتَ جدا » فقال « أخرج فقل من كان ههنا من الاوس والخزرج فليدخل » فخرج فقالها ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصارى وهو يقول :

ياسعد لا تجب الدعاء فما لنا ... نسب نجيب به سوى الانصار
نسب تخيره الاله لقومنا ... أثقل به نسباً إلى الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم ... يوم القليب هموا وقود النار

فقال معاوية « لقد كنا أغنياء عن هذا » . ولا ندرى إن كان عمرو أراد بهذا المباعدة بين معاوية والانصار إتماماً لمقاصده السياسية في إغرائهم بمعاوية أو هو يريد الحط من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا عليّ بن أبي طالب أيام الفتنة ، ونرجح أنه إنما أراد أن يحط من قدر الأنصار لانهم أساءوا إلى قريش حين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على ميل نفر من المسلمين في هذا العصر إلى ما كان مألوفاً فى الجاهلية من العصبية .

(هـ) وفاة عمرو :

إلى هنا انقضت ولاية عمرو الثانية على مصر بانقضاء أجله ، فاغتالت يد المنون رجلاً من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم ، كان غرة فى جبين الاسلام ذا همة عالية وإقدام على المكاره فى سبيل الوصول إلى متمناه ، اشتهر بتحببه إلى أهل مصر ببذل العدل فيهم فأحبوه وخضعوا له فى ولايتيه الاولى والثانية حتى مات ، ففى يوم عيد الفطر سنة ٤٣ للهجرة هبط نجم من النجوم الساطعة وتقوض ركن من أركان الدين وانكسفت شمس سعادة مصر وأفعمت قلوب الاهلين حزناً وكمداً ، فبكوا فى فقد عمرو العدل والوفاء والجد والشجاعة والاقدام ، فكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة خيم فيه الحزن فى جو البلاد قاصيها ودانيها.

روى ابن عساكر قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى ساعة الموت فولىّ وجهه الى الحائط وجعل يبكى طويلاً فقال له ابنه « ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ، أما بشرك بكذا ؟ » فأقبل عمرو بوجهه وقال « إن أفضل مايعد عليّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله ، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث ، قد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحب من أن أتمكن منه فأقتله ، فلو مت على تلك الطبقة كنت من أهل النار ، فلما جعل الله الأسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه فقلت : أبسط يدك لأبايعك ، فبسط يده ، ثم انى قبضت يدى فقال: (مالك يا عمرو ؟) فقلت : أردت أن أشترط . فقال : (تشترط ماذا ؟) فقلت : أن تغفر لى ما تقدم . فقال : (أما علمتَ يا عمرو أن الأسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟) فبايعته ، فما كان أحد أجل في عينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو سُئلت أن أنعته ما طقت لأنى لم أكن أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ، فلو مت على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما حالى فيها » وقال لبنيه : « إن أنا مت فلا تتبعنى نائحة فاذا دفنتمونى فى قبرى فسنوا علىّ التراب سناً (١) فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ، ولا تجعلوا في قبرى خشبة ولا حجراً فاذا فرغتم من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها فأنى أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى » ثم قال لبنيه « يا بنىّ ما تغنون عنى من أمر الله شيئاً » قالوا « يا أبت إنه الموت ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا » فقال : « أسندونى » ثم قال وقد استقبل القبلة « اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك فأن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فبما قدّمت يداي ، اللهم لاقوىّ فأنتصر ولا برىء فأعتذر ولا مستكبر بل

---

(١) أى صبوه صباً

مستغفر أستغفرك وأتوب إليك ولكن لا إله إلا الله ، فما زال يقولها حتى مات في يوم الفطر من سنة ٤٣ للهجرة (١)

وهذا يدل على أن عمراً كان يعلم أنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخذ الدين وحده غاية لحياته السياسية ، وإنما كانت له أهواء وأغراض أثرت فيه وأحس ساعة الموت ندمه فاستغفر منها وتاب .

روى في كتاب (حياة الحيوان الكبرى ـ باب وعل) أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه « يا أبتاه إنك كنت تقول لنا ، ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت به حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل فصف لي الموت » . فقال : « يا بني ، والله كأن السماء قد أطبقت على الأرض وكأني أتنفس من سم إبره وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي » ثم قال :

ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرعى الوعولا (٢)

وقد قال فيه الشاعر :

ألم تر أن الدهر أخنت صروفه ... على عمرو السهمي تجبى له مصر

فلم يغن عنه حزمه واحتياله ... ولا جمعه لما أتيح له الدهر

وأمسى مقيماً بالعراء وضللت ... مكايده عنه وأموله الدثر

وقد خلف عمرو على ما ذكره المسعوى ثلثمائة وخمسة وعشرين ديناراً

(١) ابن خلكان (جـ ٢ ص ٥٠٤) ؛ والعقد الفريد (جـ ٢ ص ٤) ؛ والمعارف لابن قتيبة (ص ٩٦) ؛ والمستطرف في كل فن مستظرف (ص ٣٢٩)

(٢) يقول بطلر (ص ٤٩٤) إن ابن عباس هو الذى طلب من عمرو أن يصف له الموت ، وبعيد أن ابن عباس كان في مصر في ذلك الوقت .

ومن الورق (الفضة) ألفي الف درهم (٢،٠٠٠،٠٠٠) وضيعته المعروفة بالرهط وقيمتها عشرة آلاف درهم .

وروى ابن عساكر أنه كان يقيم كروم الرهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم عدا الدور العديدة التي كان يمتلكها في مصر ودمشق . وقال صاحب كتاب « حياة الحيوان » وخلّف عمرو من المال سبعين بهاراً دنانير (والبهار جلد ثور يسع أردبين) ، وكان عند حلول أجله أخرجه وقال : من يأخذه بما فيه ؛ فأبى ولداه أخذه ، فبلغ معاوية فقال : « نحن أحق بهذه الأموال التي جمعها أبوك لدفع العدو ، فأخذها وأدخلها في بيت المال »

وأما نحن فنجزم بأن هذا القول غير صحيح ، إذ يلزم أن يكون عنده مائة وأربعون أردباً من الذهب تأخذ فراغاً يزيد على عشرين متراً مكعباً وهي تبلغ اكثر من أربعين مليوناً من الجنيهات أو ثمانين إلى مائة مليون دينار . ومحال أن يجمع عمرو بن العاص هذا المبلغ من مصر في أقل من عشرين سنة إلى أربعين باعتبار أنها في يده يأخذ ما زاد عن عمارتها وأعطيات جندها .

(و) قبر عمرو :

اتفق أبو المحاسن وابن قتيبة وابن الزيات في كتابه « الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ص ٨٥) والدميري في كتابه « حياة الحيوان - باب وعل » على أن عمرو بن العاص دفن بسفح المقطم في ناحية الفج وكان طريق الناس إلى الحجاز

وقد اختلف في قبره فقال صاحب كتاب (المزارات المصرية) إن قبر عمرو بن العاص غربي قبر الأمام الشافعي والموضع الذي به يسمى مقابر قريش . وقال غيره : هو غربي الخندق وشرقي المشهد . (١)

---

(١) بني على حافته الشرقية قبر الأمام الشافعي ، والمشهد هو مشهد السيدة

وقيل أيضاً هو القبر الكبير المشار إليه بقبر القاضي قيس، والمستحب لمن زار هذا المكان أن يحضر قلبه ويخلص نيته فأنه مكان مبارك. وإذا صح ما ذكره صاحب (كتاب المزارات المصرية) أمكن تعيين قبر عمرو بالضبط، وفي هذا المكان قبر يعرف الآن بقبر ,, سيدنا عمرو بن العاص،،

على أننا نرى أن موضع قبر عمرو لا بد أن يكون قد لعبت به يد النسيان منذ قرون طويلة فظل التاريخ في سكون تام، بحيث يصعب كشف اللثام عن حقيقة هذا الموضوع لاقتلاع كثير من أحجار المقطم، فلم يعد لموضعه أثر تقريباً، ولا ننسى قول عمرو حين حضرته الوفاة ,, وسنوا عليّ التراب سناً ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجراً ،، مما يدل على أن قبر عمرو لم يعد له أثر تقريباً، أضف إلى ذلك ما ذكره بطلر (ص٤٤٠) أن مدينة الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص قد اندثر معظم أبنيتها تحت الأرض فلم يعد يظهر منها إلا القليل من المباني كجامع عمرو الذي يدل على موضع بنائه الأصلي، وبقربه قصر الشمع وغيره من الأبنيـة التي يرجع عهد بنائها إلى الروم.

على أن الاهتداء إلى بعض أسوار مدينة الفسطاط التي ظهر بعضها بالحفر والتنقيب لا سيما الباب الذي خرج منه المقوقس لمقابلة عمرو مما يزيد أملنا في العثور على الموضع الذي دفن فيه عمرو بن العاص لكي نجدد بناء هذا القبر بما يليق بمقام عمرو ونستأنس بقبره فنذكر تاريخ حياته وما قام به من الأعمال الجليلة

وقد روى ابن الزيات أن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني في قبر واحد، وقيل إنهم ثلاثة في قبر واحد، وهم عقبة وعمرو وأبو بصرة الغفاري.

آمنة ابنة موسى الكاظم

الخاتمة

إلى هنا انتهى بنا البحث والتنقيب بعد طول الجهد ومواصلة العمل في حياة عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ذلك العربى الصميم والقائد العظيم والسياسى المحنك ، ونرجو أن يكون القارىء قد ألم بشيء كثير من مآثر هذا الرجل ، ووقف على أدوار حياته وما قام به من الاعمال الجلى والمآثر العظمى.

هنالك صلة كبيرة بين عظماء الرجال وبين الظروف التى ينشئون عليها ويشبون فى أحضانها : فمن هؤلاء من يهيء الظروف ومنهم من تلده هذه الظروف ، فتظهر مواهبهم للعالم جلية ناصعة: تلك المواهب التى تعمل على نموها الأحوال والأيام فتنشأ منها الاعمال الجليلة والمآثر الفاخرة التى تكلل التاريخ، وذلك من فتح الفتوح وتمصير الامصار أو العمل على تحرير بلادهم وغير ذلك مما يبقى أثراً خالداً على كر الأيام ومر الأعوام ، فمثلا «نابليون» فهو وليد الثورة الفرنساوية غيّر الحالة السياسية والاجتماعية في فرنسا وفي غيرها وقلب العالم رأساً على عقب

أما عمرو بن العاص، فهو وإن كان قد ولدته الظروف كذلك وأظهرته فهو وليد الاسلام الذى كونه قائداً محنكاً وسياسياً قديراً وواليا عادلاً وداهية من أكبر دهاة العالم الذين دوخوا ممالكه وأقالوا دوله ، فلولا الأسلام ما ظهرت مواهب هذا الرجل وما أوتيه من جليل الصفات إلى هذا الحد ، فبعد أن كانت تلك المواهب محصورة في دائرة ضيقة أصبح وقد اتسعت أمامه دائرة العمل فتجلت سجاياه ومواهبه فى ميدان فتوحه الواسعة للبلاد التى غزاها وفى كفاءته لادارة شؤونها والعمل على ترقيتها وترقية أهلها. إلا أنه امتاز عن هؤلاء العظماء بأنه قد ولد بعض الظروف ، فهو الذى سعي لفتح

مصر ففتحها وطرد الروم منها وكان السبب فى نشر الاسلام في أرجائها تدريجاً ، فنبه ذكره وسما قدره وعظم شأنه وكتب في سمائها أكبر مثل يسطره له التاريخ إلى أبد الدهر .

وقد امتاز عمرو بين قومه بمزايا عديدة ظهر أثرها فى أعماله ظهوراً بيناً وتجلت صورتها للناس كلما ذكر اسمه ، فكانت ذات أثر كبير فى أحوال الأمة الأسلامية : الدينية والسياسية والحربية والاجتماعية . وبتحليل نفس عمرو يعرف المرء الصلة بين مواهبه وبين هذه الأحوال - تلك النفس التى حللناها فيما مررنا به من استقصاء أخباره وتتبع آثاره وذكر أقواله المأثورة وحكمه التالدة . ولا ريب فى أن اسم عمرو بن العاص قد ملأ كل مكان استغنى عن تعريفه بنسب أو حسب، وأصبح معروفاً لدى جميع طبقات العالم الأسلامى ، ولا يجهل هذا الاسم أحد لانفراده بتلك المأثرة العظيمة مأثرة فتح مصر وانتزاعها من قبضة الروم مما أضحي له موضع إعجاب العالم جميعاً لا سيما مؤرخى الفرنجة الذين اشتغلوا بتاريخ الفتوح الأسلامية ، ولا نبالغ إذا قلنا إن عمرو بن العاص كان نادرة فى عصره وحسنة من حسنات الدهر وهادياً من هداة الأسلام وليثاً من ليوث العرب الذين أسسوا عظمة بلادهم فنهضوا بها الى أوج السعادة .

وقد رأيت مكانة عمرو من الشرف فى قريش فى الجاهلية واحترام العرب له ، فلما أسلم حفظ له النبى صلى الله عليه وسلم شرف تلك المكانة فتأدب عمرو بآدابه عليه السلام ، فسمح بنفسه وأخلص للرسول الخدمة ، ولم تفت النبى صلى الله عليه وسلم شجاعة عمرو وإقدامه فولاه على جند المسلمين في غزوة ذات السلاسل ، ولا غرو إذا كان النبي عليه السلام مصيباً

في اعتقاده فقد كان عمرو موفقاً للنصر في جميع المواقع التى اشترك فيها ، فانتصر في غزوة ذات السلاسل وغزوة سواع ، وفي وقائعه مع أهل الردة وفي اشتراكه في حروب الشام وفلسطين ، وفي مصر وبلاد المغرب ، وهذا ولا ريب من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب . وحسبك دليلاً على شجاعته مخاطبته جيفراً وعباداً ابنى الجُلندى وكذا مخاطبته قرة بن هبيرة ، وقذفه بنفسه في معامع الوقائع غير هياب ولا وجل ، وكيف كان يعرض نفسه للاخطار في كثير من المواقع التى قاتل فيها ، وكيف كان يحمل اللواء ويقاتل بنفسه ، وكيف سبق خالد بن الوليد إلى أخذ الراية في موقعة اليرموك تلك الموقعة التي جنى المسلمون ثمار الانتصار فيها لاتباعهم مشورته والعمل برأيه باجتماع وحدات المسلمين في مكان واحد ليكونوا قوة واحدة يدفعون بها العدو وينتصرون عليه ، وقد كان من وراء رأيه السديد انتصار العرب فى هذه الموقعة وفي غيرها من المواقع حتى كان النصر . أما حبه للجهاد فقد كان يفوق الوصف ـ ذلك الحب الذى استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً حتى كان يتسابق إليه غير مبال بجموع أعدائه مهما كثرت وقوة جنده مهما قلت ، وان محاولته فتح مصر بأربعة آلاف مقاتل أو أقل لأقوى دليل وأسطع برهان على صحة ما نقول

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين ، وقد قرأتَ صحف دهائه عند النجاشى حين أوقع بعمارة بن الوليد ، وانظر كيف أوقع التفريق فى صفوف علىّ فى موقعة صفين وقد أشرف جيش علىّ على الانتصار ، وكيف تغلب بما أوتيه من ضروب الحيل وفنون الدهاء على أبى موسى عند عقد التحكيم وغير ذلك من أخباره فى الدهاء التى يقف أمامها المرء حائراً لهذا

العقل البشرى والذكاء الأنساني الذى ذلّل أمثال تلك الصعوبات وفك أعقد العقد حتى هدت حيله عزائم الجحافل فتبددت آمال الرجال وأقطاب السياسة. ومما يدل على دهائه أيضاً ما روى عنه أنه عند استيلائه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده متشبهاً بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين ، فتمادى به السير راجلا حتى لحق بطرف الفسطاط فرأى جماعة قد التأبت على سوء منه فقال لهم «إعملوا بي كل ما تؤثرون من السوء ولا تردوني إلى يد الأمير فأنى هربت منه» فقال بعضهم ردوه فأنه يقتله ويكون لكم بذلك عارفة عند الأمير» فساقوه إلى دار الامارة فأخذ يتضور ويتأبى فى سياقته حتى قرب من الدار ، فقام إليه الشرط فقال: « لا يفوتنكم منهم أحد ، فجمعوا له عن آخرهم ».

وكان عمرو من شيوخ قريش فى الجاهلية ، فلما أسلم أثر الأسلام فى نفسه فاقتلع منها كثيراً من رذائل الجاهلية ، فألبست تلك النفس ثوب الفضيلة وتجلت عن حسن خلقه مما كان له نصيب وافر فى تقدم الأسلام ونصرته ، فأصبحت نزاعة إلى مكارم الأخلاق فتجلى فيها الحلم وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق وتكفيره عن خطئه بأجلى مظاهرها ، يدلك على ذلك ما رواه ابن عساكر عن الشعبي عن قبيصة قال « صحبتُ عمرو ابن العاص فما رأيت أبين طريقاً ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بعلانية منه.» وما رواه أبو المحاسن أنه تصادف أن وقع بين عمرو والمغيرة بن شعبة كلام فاستشاط عمرو غضباً وقال له : « يا آل هصيص أتسبنى ؟ » فقال له عبد الله ابنه « إنا لله دعوتَ بدعوة القبائل وقد نهي عنها !! » ، فندم عمرو على ما فرط منه وكفر عن خطئه بأن أعتق ثلاثين رقبة. وقد كان تقياً يخشى

عقاب ربه وخاف هول اليوم الآخر فتمنى لو سلبه الله ماله أو أثكله ولده أو نزع منه سلطانه رجاء عدم تعذيبه بالنار. رُوى عن ربيعة عن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص يصلي بالليل وهو يبكي ويقول: «اللهم آتيت عمراً مالا فأن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله؛ وإنك آتيت عمراً أولاداً فأن كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده، وإنك آتيت عمراً سلطاناً فأن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه»

ونعتقد أن هذا كان فى آخر أيامه حين مرت به ساعة حاسب فيها نفسه على ما أتى فى أيام الفتنة بعد أن سكنت النفس وثاب إليها الرشد وعلم أن الله تعالى سائله عما احتقب في دنياه فعاد على نفسه باللوم وتمنى الخروج من كل ما أوتى إذا كان ذلك كفارة عما غمس يده فيه، وهو ندم ظاهر ترجى معه المغفرة لمن يقبل المثوبة من عباده ويعفو عن السيئات إنه هو التواب الرحيم.

وكان عمرو لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، أراد معاوية أن يختبر بديهته يوماً فقال عمرو «أخرج من عندك» فأخرجهم معاوية فقال عمرو «يا أمير المؤمنين أسارك» فأدنى معاوية رأسه منه فقال عمرو: «من معنا فى البيت حتى أسارك؟»

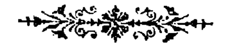
أما سياسة عمرو فلم تخف على العرب فى جاهليتهم قدرته فيها فندبوه ليكون رسولهم إلى النجاشى، وندبه النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ليكون رسوله لدى ملك عمان، ولا يعزب عن بالنا حسن سياسته فى

مصر وكيف ألف بين قلوب المصريين واستمالهم إليه وسار معهم على نهج العدل وسعى فى ترفيه حالهم وترقية شؤونهم ورعى معهم حرمة العهود والمواثيق ، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة — تلك الموقعة التى أشرف فيها جيش عليّ على الانتصار فلم يثن ذلك من عزيمة عمرو ، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند عليّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم ، وقد كان من وراء تلك السياسة ما فصلناه

هذه هى نفس عمرو قد حللناها تحليلا ، ونحن نرجو أن نكون قد وفقنا إلى إثبات أن عمراً قد كان أحسن مثال للعربي في هذا العصر الذى ظهر فيه الأسلام وانتشر وامتدت فتوحه ، فكان ممن أعان على ظهوره وانتصاره ، وكان من غير شك أحد المؤسسين لدولة العرب التى لن يزال اسمه مقروناً بها .

فرحم الله عمرو بن العاص رضى الله عنه ورحم من ترحّم عليه .

(انتهت)



مصادر الرسالة

تنقسم أهم المصادر التى رجعنا اليها فى رسالتنا الى قسمين : عربية وإفرنجية ومن المصادر الأفرنجية : الانجليزى والفرنسي .

(١) المصادر العربية :

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير	: الكامل في التاريخ . طبع مصر سنة ١٣٠١ هـ
ابن الزيات	: الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة
ابن اسحق	: فتوح مصر وأعمالها . مصر سنة ١٢٧٥هـ
ابن برهان الدين	: السيرة الحلبية . ثلاثة أجزاء
ابن حجَر	: الأصابة فى تمييز الصحابة .مصر سنة ١٣٢٣ هـ
ابن خلدون	: العبر وديوان المبتدا والخبر . بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
ابن خلكان	: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . مصر سنة ١٣١٠ هـ
ابن دُقماق	: الأنتصار لواسطة عقد الأمصار . القاهرة سنة ١٨٩٣م
ابن طباطبا	: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية. مصر سنة ١٣١٧هـ
ابن عبد الحكم	: فتوح مصر : طبع بمجلس المعارف الفرنساوى
ابن عبد ربه	: العقد الفريد : ٣ أجزاء
ابن قتيبة	: (١) كتاب المعارف (ب) الأمامة والسياسة
ابن هشام	: سيرة ابن هشام : مصر سنة ١٣٢٩ هـ .
أبو الفرج	: مختصر تاريخ الدول : بيروت
أبو المحاسن	: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ليدن سنة ١٨٥٦ م
البلاذُرى	: فتوح البلدان : القاهرة سنة ١٣١٩ هـ
البغدادي	: سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب . بغداد سنة ١٢٨٠ هـ

﴿ مصادر الرسالة ﴾

اسم المؤلف — اسم الكتاب

الأصفهانى : كتاب الأغانى : مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب : بغداد سنة ١٣١٤ هـ

الخضرى بك : تاريخ الأمم الاسلامية

رفيق العظم بك : أشهر مشاهير الأسلام فى الحرب والسياسة : مصر سنة ١٣٢١ هـ

السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة : المطبعة الشرقية

الشهرستانى : الملل والنحل : مصر سنة ١٣١٧ هـ

الطبرى : الأمم والملوك : المطبعة الحسينية المصرية .

عبداللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية : بولاق سنة ١٣٠٦ هـ

القلقشندى : أبو العباس احمد : صبح الأعشى : المطبعة الاميرية

القلقشندى : محمد بن عبد الله : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب : خط يد

المبرد : الكامل فى اللغة : طبع لايبسك

المرحوم محمود فهمى : مصر فى عهد الرومان : مصر سنة ١٩١٦ م

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر : بولاق سنة ١٢٨٣ هـ :

المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : مصر سنة ١٢٧٠ هـ

وستنفلد : تاريخ مكة : لايبسك سنة ١٨٦١ م

ياقوت : معجم البلدان . مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

الواقدى . فتوح الشام : مصر سنة ١٣٠٢ هـ

اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى . ليدن سنة ١٨٨٣ م

(ب) المصادر الافرنجية :

اسم المؤلف   اسم الكتاب

Ameer Ali, Sayed: A Short History of the Saracens, London, 1891.

Amélineau : (a) Fragements Coptes, Journal Asiatique, 1888.

« (b) Géography de l' Egypte à l' Époque Copte, Paris, 1893.

Butler, Alfred J., : (a) The Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902.

« (b) Babylon of Egypt : Oxford, 1914.

Bury, J, B., : History of the Later Roman Empire, London, 1899.

Caussin de Perceval, A. P., Essai l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mohamet.

Gibbon, Edward : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.

Huart, C. L, Histoire des Arabes, Paris, 1913.

Irving, Washington : A History of the Lives of the Successors of Mahomet, London, 1912.

Lane-poole, Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.

Le Bon, Justave : La Civilisation des Arabes, paris, 1884.

Marcel, M. J. J, : Egypte, Depuis la Conquête des Arabes, Jusqu' à la Dominion Française, paris, 1848.

Milne, J. Grafton : A History of Egypt Under Roman Rule, London, 1913.

Muir, Sir William Temple : The Caliphate; Its Rise, Decline and Fall, Oxford, 1902.

Quatremère, E., : Journal Asiatique, 1850.

Sédillot, L. B., Histoire Générale des Arabes, paris, 1877.

Sharpe, Samuel (a) Chronology and Geography of Ancient Egypt, London, 1838. (b) A History of Egypt Under the Ptolemies, London, 1849.

فهرست الرسالة

الكتاب الاول

عمرو بن العاص من ولادته إلى أن ولى فتح مصر

﴿ فهرست الرسالة ﴾

الكتاب الثانى

عمرو كزعيم من زعماء الدولة العربية

﴿ فهرست الرسالة ﴾

﴿ فهرست الرسالة ﴾

الصور الشمسية

(١) حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح (٢) الباب العمومى لحصن بابليون ، وهو الباب الذى خرج منه المقوقس (٣) جزء من أطلال مدينة الفسطاط مبيناً عليه جامع عمرو وحصن بابليون والأديرة التى بينهما (٤) جامع عمرو بن العاص .

﴿ الأغلاط المطبعية وصوابها ﴾

ظهرت أثناء طبع الرسالة بعض أغلاط مطبعية ، فأعتذر الى حضرات القراء ، وأسطر صحتها حتى لا تلتبس عليهم ، ولو أن كثيراً منها لا يخفى على حضراتهم. وهاك بيان الخطأ والصواب :

ص	س	الخطأ	الصواب
١١	١٠	بأشعر	بالشعر
١٥	٦	جعان	جُدعان
١٦	٢٠	كلامه سنة	كلامه على
٢٤	٥	ومن هذه	ومن كانت
٢٤	١٧	واللؤلؤ	اللؤلؤ
٢٤	١٨	شرقاً	جنوباً
٢٤	١٨	غرباً	شمالاً
٣٠	٢٠	وأعامهم	وأعلمهم
٣١	٣	أصحابه	صاحبه
٣٩	١٣	ومن	من
٥٩	٢	جتمع	إجتمع
٥٩	٤	إلا الفرنج	إلا الآن
٦١	١٠	حصارهم	حصارها
٦٨	١٤	ربما	وربما
١١٨	٤	المقوقس	والمقوقس
١٤٠	٢	منايه	منافية
١٤٩	١	اليصر	قيصر
١٧٣	١٥	د	قد
١٨٩	١٤	التلكب	الكتاب
٢١٢	١	ملا	ملأ
٢٢٢	٦	معاوية	ومعاوية
٢٢٢	٨	ومعاوية	معاوية
٢٢٨	٥	خالوا	خالفوا